بلاغة القرآن

في سورتي الأنبياء والحج

عبدالجواد أحمد السيوطي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الطبعة الأولى

د. عبد الجواد السيوطي

بلاغة القرآن في سورتي الأنبياء والحج

لوتس

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بلاغة القرآن في سورتي الأنبياء والحج

علوم قرآن

د. عبد الجواد السيوطي

مشروع النشر الحر

الإصدار رقم: 647 - يناير 2022

رقم الإيداع: 5437 / 2022

الترقيم الدولي: 978-977-6975-38-5

منشورات دار لوتس للنشر الحر

www.lotusfreepub.com

القاهرة الكبرى: 37 شارع جمال عبد الناصر – فيصل – الجيزة

هاتف / واتسآب: 01091985809 +2 0237390893

المغرب: الدار البيضاء 270 زنقة 16 – حي البركة – مولاي رشيد

هاتف / واتسآب: 0664391261 +212663488377

كل ما ورد بهذا الكتاب مسئولية مؤلفه من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيل له غير منقول؛ وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر، وجميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز إعادة نشر الكتاب أو جزء منه بأية طريقة دون موافقته أو موافقة دار النشر.

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

استهلال

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾[1].

١) سورة فصلت الآية (٤٤)..

الإهداء

أُهدي هذا البحث إلى خير الأنام سيدي وقرة عيني محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وإلى والدي - رحمه الله - ووالدتي أطال الله عمرها في طاعته ومنهما تعلَّمت الصمود، مهما كانت الصعوبات.

وإلى أخي الشقيق محمود، وزوجتي وأولادي الذين ضحُّوا براحتهم من أجلي..

وإلى أساتذتي وإخواني جميعا وهم كُثر، منهم استقيتُ الحروف، وتعلَّمت كيف أنطق الكلمات، وأصوغ العبارات، وهم - بعد الله - من وضعوا قدمي على طريق الهداية، طريق الدعوة إلى الله.

وإلى كل الإخوة والأخوات، الذين لم يدَّخروا جهدًا في إمدادي بالمعلومات والبيانات.

وإلى الشعوب الإسلامية جميعا، وخاصة المرابطين في الأقصى وبلاد الشام..

داعيًا المولى - سبحانه وتعالى - أن يُكلِّل هذا العمل بالنجاح والتوفيق والقبول.

أهدي هذه الرسالة المتواضعة.

الإهداء

أُهدي هذا البحث إلى خير الأنام سيدي وقرة عيني محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وإلى والدي - رحمه الله - ووالدتي أطال الله عمرها في طاعته، ومنهما تعلَّمت الصمود، مهما كانت الصعوبات.

وإلى أخي الشقيق محمود، وزوجتي وأولادي الذين ضحُّوا براحتهم من أجلي..

وإلى أساتذتي وإخواني جميعا وهم كُثر، منهم استقيتُ الحروف، وتعلَّمت كيف أنطق الكلمات، وأصوغ العبارات، وهم - بعد الله - من وضعوا قدمي على طريق الهداية، طريق الدعوة إلى الله.

وإلى كل الإخوة والأخوات، الذين لم يدَّخروا جهدًا في إمدادي بالمعلومات والبيانات.

وإلى الشعوب الإسلامية جميعا، وخاصة المرابطين في الأقصى وبلاد الشام..

داعيًا المولى - سبحانه وتعالى - أن يُكلَّل هذا العمل بالنجاح والتوفيق والقبول.

أهدي هذه الرسالة المتواضعة.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وعلي آله وصحبه أجمعين.. وبعد..

فإن القرآن الكريم بحر خضم عظيم لا ينضب معينه، أينما يوجه القاصد وجهه إليه يأت بخير، والقرآن الكريم له لغته التي اختارها الله عز وجل لتكون وعاءً لكتابه، فتحمل إلينا فصاحة الألفاظ وبلاغة الأساليب التي تكون منهلا لفهم ما جاء في سوره وآياته وكلماته وحروفه، ولا شك أن لغة القرآن الكريم لغة تحمل مراد الله إلى خلقه في ترتيب وتنظيم إلهي يبين المعنى بعد المعنى ،حيث خلا من الخلل بين أجزائه أو آياته أو جمله أو عباراته أو كلماته أو حروفه، لقد جاءت أجناس كلمات القرآن مختلفة الأساليب، متفاوتة في درجات البيان، فوقف الجميع أمام بلاغات القرآن الكريم إعظاماً وتقديراً وتقديساً، لان نمط كلامه يجمع بين الفخامة والعذوبة فكان معجزة بينة للنبي- صلى الله عليه وسلم -.

إن جوانب الإعجاز في القرآن الكريم لن تخضع للإحصاء ولا يحيط بها استقصاء إلى يوم القيامة، وعلى العلماء الاستفادة من لغته التي خرقت العادة، لذا آمن بهديه من آمن، وكفر به من كفر، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾[1].

إن الدقة التي تميز بها القرآن الكريم في اختيار ألفاظه وانتقاء كلماته، تفوقت

١) سورة فصلت، الآيات (٤٠-٤١).

على أساليب البلغاء من العرب، فإذا اختار اللفظ معرفة كان ذلك لسبب، وإذا جاء اللفظ نكرة كان ذلك لغرض، هذه الأساليب الموجودة في القرآن الكريم، جعلته يأسر القلوب ويحير الأفهام، لتظهر وجوه الإعجاز من كل جانب، في معانيه أو كلماته وأسراره، فتحدى به النبي الناس أجمعين، قال تعالى: (قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ)[1].

لقد تميز القرآن الكريم بأساليب عدة من البدائع التي جاء بها في الكثير من آياته من الإيهام، والالتفات، والاطراد، والانسجام وغيرهم، فظهرت بدائع الأساليب في صور شتى، فإذا كان اللفظ مفرداً كان ذلك لمقتضى يطلبه، وإذا كان مجموعاً كان الحال يناسبه، وقد يختار الكلمة ويهمل مرادفها الذي يشترك معها في بعض الدلالة، وقد يفضل كلمة على أخرى والكلمتان ظاهراً بمعنى واحد، بل قد يردف لفظة على أخرى وهما في الظاهر بمعنى واحد، وفي مواطن جمع القرآن بين لفظين وهما بمعنى واحد أو على الأقل بينهما تشابه كبير في الاستعمال والدلالة.

لذا رجوت من الله أن يفتح عليّ، وأن أعطر قلمي بنيل الشرف في وضع لبنة في صرح القرآن الكريم الشامخ في «أسرار الالتفات في سورتي الأنبياء والحج» رغبة في خدمة كتاب الله - عز وجل-. وذلك حسب فهمي للآيات القرآنية موضع الالتفات من خلال رجوعي لكتب العلماء السابقين ممن لهم علاقة بتفسير كتاب الله تعالى، وهذا البحث جمعت فيه من كتب السابقين ما قمت بدراسته وتحليله، من كتاب الله تعالى بقدر ما فتح الله به عليّ،

١) سورة الإسراء، الآية: (٨٨).

ووضعتها بين أيديكم، فإن صادفت منكم قبولا فبها ونعمت وهذا فضل الله وحده، وإن لم يصادف وكان فيها من الأخطاء، فهذا جهد المقلّ وكل بني آدم خطاء، راجياً منكم تصويب الخطأ، وتقويم المعوج فالكمال لله وحده والعصمة لرسوله – صلى الله عليه وسلم -.

وقد قسمته لفصلين وتحتهما مباحث ومطالب:

الفصل الأول: الالتفات في سورة الأنبياء.

المبحث الأول: حول سورة الأنبياء.

المبحث الثاني: الالتفات في الضمائر في سورة الأنبياء.

المبحث الثالث: من صور الالتفات في غير الضمائر في سورة الأنبياء.

****

الفصل الأول:

الالتفات في سورة الأنبياء

المبحث الأول
حول سورة الأنبياء

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتحته أربعة مطالب:

المطلب الأول: السورة وآياتها ومكيتها وترتيبها وفضلها:

سورة الأنبياء هي سورة مكية. كما ذكر ذلك أكثر المفسرين[1]، واستدلوا بقول لابن مسعود عن عبد الرحمن بن يزيد بن قيس، قال: سمعت ابن مسعود، يقول في بني إسرائيل (الإسراء)، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: «إنهن من العتاق الأُوَل، وهن من تِلادي»[2].

والعِتاق: جمع عتيق، والعرب تجعل كل شيء بلغ الغاية في الجَودة عتيقا وهو يريد هنا تفضيل هذه السور الكريمة، وذلك لما تتضمن من ذكر القصص وأخبار الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -. والتلاد ما كان قديما من المال، يريد أنها من أوائل السور المنزلة في أول الإسلام؛ وذلك لأنها مكية، وأنها من أول ما قرأه وحفظه – رضي الله عنه - من القرآن.

فقوله من العِتاق الأول أي من أول ما نزل من القرآن أو المراد بالعتيق الشريف قوله على فرس عتيق أي بالغ في الجودة أو السبق ولهذا سمي أبو بكر عتيقا لشرفه أو لحسنه أو لعتقه من النار[3].

١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد, أحمد بن محمد بن عجيبة (٤٤١/٣). تحقيق: أحمد القرشي رسلان الناشر: الدكتور حسن عباس زكي, القاهرة, طبعة:١٤١٩هـ. الهداية الى بلوغ النهاية, مكي ابن أبي طالب (٤٧٢٥/٧). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز, المعروف بـ«تفسير ابن عطية» عبد الحق بن غالب بن تمام بن عطية الأندلسي (٧٣/٤) تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد, الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت, الطبعة: الأولى - ١٤٢٢هـ. تفسير الرازي (١١٨/٢٢). تفسير ابن كثير (٣٣١/٥).

٢) صحيح البخاري (٦/ ١٨٥). باب تأليف القرآن..

٣) شعب الإيمان, أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي (٤/ ٨٨)., حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد, أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند, الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م. فتح الباري شرح صحيح البخاري, أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي (١٥٣/١), الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ. رقم كُتُبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي, قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب, عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن باز.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقيل قوله: (من العِتاق) بكسر العين المهملة وتخفيف التاء المثناة من فوق: وهي جمع عتق، والعرب تجعل كل شيء بلغ الغاية في الجودة عتيقا، وهو بهذا –رضي الله عنه وأرضاه - يريد تفضيل هذه السورة وسابقاتها من السور لما تتضمنه مفتتح كل منها بأمر غريب وقع في العالم خارقا للعادة، وهو الإسراء وقصة أصحاب الكهف وقصة مريم ونحوها.

وقوله: الأُوَل: بضم الهمزة وفتح الواو المخففة، والأولية إما باعتبار حفظها أو باعتبار نزولها لأنها مكية. وقوله: (من تِلادي) بكسر التاء المثناة من فوق وتخفيف اللام، وهو ما كان قديما، يقال: ماله طارف ولا تالد، أي: لا حديث ولا قديم، وأراد ابن مسعود – رضي الله عنه - بقوله: (من تلادي) أي: من محفوظاتي القديمة[1].

ومعنى الأولية هنا باعتبار حفظها أو باعتبار نزولها لأن هذه السور مكيات ومراده تفضيل هذه السور، وإنما كانت الأنبياء بهذا الوصف لتضمنها أخبار جلة الأنبياء وغير ذلك.

وترتيب سورة الأنبياء الحادية والعشرون من حيث ترتيب المصحف. والسورة حسب ترتيب النزول نزلت بعد سورة إبراهيم – عليه السلام -. ونزلت قبل سورة المؤمنون[2].

١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري, أبو محمد محمود بن أحمد الغيتابي الحنفي, المعروف ببدر الدين العيني (١٩/١٩), الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري, أبو العباس، شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني القتيبي المصري (١٩٨/٧). و(٢٤٠/٧)، الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر, الطبعة: السابعة، ١٣٢٣هـ

٢) التفسير الحديث (٢٥٣/٥). تفسير الزمخشري (١٠٠/٣). تفسير السمرقندي (٤١٩/٢), البحر المحيط في التفسير, أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن علي الأندلسي (٤٠٣/٧). تحقيق: صدقي محمد جميل, الناشر: دار الفكر – بيروت, الطبعة: ١٤٢٠هـ التوضيح لشرح الجامع الصحيح, سراج الدين أبو حفص عمر بن علي المصري, المعروف بابن الملقن, (٦١٨/٢٢). تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث, الناشر: دار النوادر، دمشق – سوريا, الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفي حديث ابن مسعود من الفقه: إشعاره بزيادة أنسه بهذا السور وذلك يستدعي زيادة فهمه لكل منهن، وذلك لأن نزولهن متقدم، ويعني قوله (من تلادي) أي مما حفظته قديمًا.

كما أن في الحديث ما يدل على أن نزول القرآن كان على غير ترتيبه في المصحف، إلا أن الله عز وجل أعلم أن ترتيبه يكون على ما هو الآن، وفي ذلك أسرار، وتنبني عليه أمور[1].

وحروفها أربعة آلاف وثمانمائة وتسعون كلمها ألف ومائة وثمان وسبعون آياتها مائة وست عشرة، وهي مائة واثنتا عشرة آية في عد الكوفي وإحدى عشرة في عد الباقين.

وهي سورة عظيمة فيها موعظة فخيمة[2].

وسميت بذلك لذكر قصص الأنبياء فيها وهي كغيرها من السور المكية، تهدف إلى إثبات عقيدة الإسلام في نفوس المشركين فتراها تعرض لأقوالهم، وترد عليهم مهددة منذرة، وتلفت الأنظار للكون وما فيه حتى يستدل بذلك على خالقه، ثم تَعرِض لقصص بعض الأنبياء للعبرة والعظة، وهي في البدء والنهاية تُصوّر بعض مشاهد يوم القيامة بأسلوب قوى مؤثر.

وقيل: سميت سورة الأنبياء بهذا الاسم لتضمنها الحديث عن جهاد الأنبياء المرسلين مع أقوامهم، بدءا من قصة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام بإسهاب وتفصيل، ثم إسحاق، ويعقوب، ولوط، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، وإسماعيل، وإدريس، وذي الكفل، وذي النون: يونس، وزكريا، وعيسى، إلى

---

١) الإفصاح عن معاني الصحاح, أبو المظفر، يحيى بن هُبَيْرَة بن محمد بن هبيرة الذهلي الشيبانيّ، (٨٧/٢). تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد, الناشر: دار الوطن, سنة النشر: ١٤١٧هـ.

٢) فتح القدير للشوكاني (٤٦٨/٣) تفسير النيسابوري (٣/٥). تفسير الألوسي (٣/٩).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خاتم النبيين محمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -، وذلك بإيجاز يدل على مدى ما تعرضوا له من أهوال وشدائد، فصبروا عليها، وضحوا في سبيل الله، لإسعاد البشرية[1].

وفي فضلها روي عن عامر بن ربيعة «أنه نزل به رجل من العرب، فأكرم عامر مثواه وكلم فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فجاءه الرجل فقال: إني استقطعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وادياً ما في العرب وادٍ أفضل منه، وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك، قال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: هي سورة: (ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١) [سورة الأنبياء:١][2].

وكانت تسمى عند السلف بـ «سورة الأنبياء»، لما تقدم في الحديث السابق عن عبد الله بن مسعود قال: «بنو إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هن من العتاق الأول وهن من تلادي» ولا يعرف لها اسم غير هذا.

وقي عن وجه تسميتها سورة الأنبياء أنها ذكر فيها أسماء ستة عشر نبيّاً السيدة مريم. ولم يأت في سور القرآن مثل هذا العدد من أسماء الأنبياء في سورة من سور القرآن إلا في سورة الأنعام. فقد ذكر فيها أسماء ثمانية عشر نبيّاً، فإن كانت سورة الأنبياء هذه نزلت قبل سورة الأنعام فقد سبقت

١) التفسير الواضح (٥١٥/٢). التفسير المنير للزحيلي (٥/١٧)

٢)حلية الأولياء وطبقات الأصفياء, أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (١٧٩/١), الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م. حياة الصحابة, محمد يوسف بن محمد إلياس الكاندهلوي (٢/ ٥٢٣), حققه، وضبط نصه، وعلق عليه: الدكتور بشار عوّاد معروف, الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان, الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م. تاريخ دمشق, أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر(٣٢٧/٢٥). تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي, الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع, عام النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بالتسمية بالإضافة إلى الأنبياء وإلا فاختصاص سورة الأنعام بذكر أحكام الأنعام أوجب تسميتها بذلك الاسم فكانت سورة الأنبياء أجدر من بقية سور القرآن بهذه التسمية، على أن من الحقائق المسلمة أن وجه التسمية لا يوجبها. وهي السورة الحادية والسبعون في ترتيب النزول حيث نزلت بعد حم السجدة وقبل سورة النحل، فتكون من أواخر السور النازلة قبل الهجرة. ولعلها نزلت بعد إسلام من أسلم من أهل المدينة كما يقتضيه قوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا﴾ [سورة الأنبياء:٣]. وقد عدت الزخرف ثانية وستين في النزول.

وعدد آياتها في عدّ أهل المدينة ومكة والشام والبصرة مائة وإحدى عشرة وفي عد أهل الكوفة مائة واثنتا عشرة[1].

قلت: وما عليه الجمهور أن سورة الأنبياء مكية ومن أوائل ما نزل، وذلك لقوة دليل عبد الله ابن مسعود في الحديث المتقدم في قوله «... وإنهن من تلادي» لذا نقول أن نزوله متقدم وليس متأخر، وأنها نزلت بعد سورة إبراهيم وقبل سورة المؤمنون كما قال الجمهور وهذا يدل عليه سياق هذه السور الثلاث والله أعلم.

****

١) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٥/١٧).

المطلب الثاني: مناسبة سورة الأنبياء وغرضها:

قلت: تبين السورة الكريمة دور الأنبياء في تذكرة البشرية وانتشال الخلق من وحل الغفلة والبُعد عن عبادة ربهم خالقهم ورازقهم. ومن ثم نجد أن السورة تتناول بإطناب قصص كثيرين من أنبياء الله تعالى، وتوضح مدى دورهم في تذكرة البشرية.

ومن ثم بدأت السورة الكريمة بالحديث عن خطورة الغفلة والبعد عن المنهج القويم الذي أرسل الله به رسله لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

ومن ثم كانت أول مهمة من مهمات أنبياء الله تعالى هي إزالة الغفلة، لأنها سبب ضلال الناس في كل زمان ومكان، ولأنها سبب ضياع الرسالات السابقة، كما في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١ مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ هَلۡ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡۖ أَفَتَأۡتُونَ ٱلسِّحۡرَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ ۝٣﴾[سورة الأنبياء: ١ – ٣].

كما بينت السورة أن الأنبياء هم القدوات الحقيقية في العبادة والحركة. لذلك تدور سورة الأنبياء حول هذا المعنى، وكأنها تقول لك: هؤلاء الأنبياء هم المثل الأعلى في حسن التعامل مع الله وفي حسن التعامل مع الناس، أي في العبادة والدعوة إلى الله.

كما بينت السورة وحدة الألفاظ بين الدعاء والاستجابة مع سرعة استجابة الله لهم ولكل من دعاه، لذلك نرى في السورة آيات كثيرة تصف دعاء الأنبياء وكيف استجاب لهم ربهم مع السرعة في إجابة دعائهم.

كما تحدثت السورة عن البناء الواحد والذي تدعم فكرته وحدة دعاء الأنبياء ودعوتهم، واستعمالهم نفس الألفاظ يؤكد على وحدة رسالتهم وتكامل دعواتهم. فمثلا قوله تعالى:(إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾)[سورة الأنبياء: ٩٢]. فأمة الأنبياء أمة واحدة، وكل نبي كان له دور في بناء الدين وبناء الأمة، وبعدهم يأتي خاتم الأنبياء والمرسلين ويكمل بناء الدين، ولذلك ركزت السورة أن كل نبي بعث إلى قومه خاصة، أما عند ذكر سيدنا محمد فقد قالت: (وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾)[سورة الأنبياء: ١٠٧]. أي أرسلنا محمد – صلى الله عليه وسلم - للناس كافة، بل لعوالم أخرى كالجن.

فلماذا لا تقتدي به؟ لماذا تصر على عدم اتخاذه قدوة في حياتك؟ وهو رحمة للعالمين؟ ثم ختام السورة الذي تهتز له القلوب..

لأن السورة بدأت بخطورة مرض الغفلة، كانت آياتها في الختام شديدة، تهز القلوب لتوقظها من غفلتها. قال تعالى:(يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾) [سورة الأنبياء: ١٠٤].

ثم بين الله تعالى أن الأرض هي أرضه يورثها الصالحين من عباده، فمن سار على خطى الأنبياء فهو المنتصر في الدنيا والفائز في الآخرة، لذلك نقرأ بعد الآيات الشديدة في وصف القيامة قوله تعالى:(وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾)[سورة الأنبياء: ١٠٥].

«وفي السورة حملات شديدة على الكفار وزعمائهم بسبب عنادهم

واستخفافهم بالنبي ودعوته وحكاية لأقوالهم وتحدياتهم ومؤامراتهم، وردود قوية في البرهنة على وحدة الله وتنزهه عن الولد والشريك وطبيعة إرسال الرسل من البشر، وثناء على الملائكة وتقرير عبوديتهم لله ولفت نظر إلى مشاهد قدرة الله في السموات والأرض للتدليل على وحدة الله واستحقاقه وحده للعبادة وقدرته على تحقيق وعده الحق. وفيها سلسلة تتضمن ذكر بعض الأنبياء ورسالاتهم وثناء على إخلاصهم وعناية الله بهم في معرض التذكير والتثبيت والتطمين والبشرى، وبيان مصائر الكفار والصالحين في الآخرة وتقرير لمهمة الرسالة وأهدافها. وفي الجملة فإن فصول السورة مترابطة مما يسوغ القول إنها نزلت متتابعة[1].

****

١) التفسير الحديث (٥/٢٥٣)..

المطلب الثالث: علاقة سورة الأنبياء بما قبلها سورة طه:

قلت: ترتيب السور القرآنية نوعان. الأول: إما ترتيب مصحفيّ أي ما هو عليه ترتيب المصحف العثماني الذي بين أيدينا الآن، وهذا ما يُسمّى بترتيب المصحف.

النوع الثاني: الترتيب النزولي وهو ما يُسمّى بترتيب النزول حيث يكون الاعتداد بنزول السور. لهذا نجد أغلب سور القرآن لها ترتيبان. ترتيب نزول، وترتيب مصحف. لذا نتكلم عن سورة الأنبياء من حيث مناسبتها لما قبلها في ترتيب المصحف والسورة التي قبلها هي سورة طه.

ومناسبتها لما قبلها: قوله تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾ ﴾ [سورة طه: ١٣٥]. وذلك لأن علم ذلك إنما يظهر، حقيقة، يوم الحساب وهو الذي صدرت به سورة الأنبياء، فقال تعالى: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة الأنبياء: ١ – 2].[1].

لما ختمت سورة طه بإنذارهم بأنهم سيعلمون الشقي والسعيد، وكان هذا العلم تارة يكون في الدنيا بكشف الحجاب بالإيمان، وتارة بمعاينة ظهور الدين وتارة بإحلال العذاب بإزهاق الروح بقتل أو غيره، وتارة ببعثها يوم الدين، لذا افتتحت هذه بما يكون في ذلك وهو اليوم الذي يتم فيه كشف الغطاء فينتقل فيه الخبر من علم اليقين إلى عين اليقين وحق اليقين وهو

١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة (٤٤١/٣).

يوم الحساب، فقال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾ أي عامة أنتم وغيركم اقترب حسابهم في يوم القيامة؛ وأشار بصيغة الافتعال إلى مزيد القرب لأنه لا أمة بعد هذه ينتظر أمرها، وأخرّ الفاعل تهويلا لتذهب النفس في تعيينه كل مذهب، ويصح أن يراد بالحساب الجزاء، فيكون ذلك تهديدا بيوم بدر والفتح ونحوهما، ويكون المراد بالناس حينئذ قريشا أو جميع العرب[1].

قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾ [سورة الأنبياء: 1]. نجد مناسبة هذه الفاتحة الكريمة مع ما قبلها من الخاتمة الشريفة في سورة طه غنية عن البيان قال ابن عباس رضي الله عنهما المراد بالناس المشركون وهو الذي يفصح عنه ما بعده والمراد باقتراب حسابهم اقترابه في ضمن اقتراب الساعة وإسناد الاقتراب إليه لا إلى الساعة مع استتباعها له ولسائر ما فيها من الأحوال والأهوال الفظيعة لانسياق الكلام إلى بيان غفلتهم عنه وإعراضهم عما يذكرهم ذلك. ونسبة الاقتراب إليهم من أول الأمر مما يسوؤهم ويورثهم رهبة وانزعاجا من المقترب، والمعنى دنا منهم حساب أعمالهم السيئة الموجبة للعقاب. ومعنى اقترابه لهم تقاربه ودنوّه منهم بعد بُعدِه عنهم فإنه في كل ساعة من ساعات الزمان أقرب إليهم منه في الساعة السابقة والقرب هنا باعتبار أن كل آت قريب[2].

وجيء بلفظ اقترب للإشارة إلى قرب الأجل المسمى للعذاب، ودنو الأمل المنتظر، فقال تعالى في آخر سورة طه. قوله تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا وَأَجَلٞ مُّسَمّٗى﴾ [سورة طه: ١٢٩]. ثم قال تعالى:

١) بتصرف: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (٣٧٩/١٢).
٢) بتصرف: تفسير أبي السعود (٥٣/٦).

(قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ) [سورة طه: ١٣٥]. وقال تعالى في مطلع هذه السورة: اقترب للناس حسابهم. كأن الافتتاح جاء للتحذير من الاغترار بالدنيا، والعمل للآخرة. فإن قرب الساعة يقتض الإعراض عن زهرة الحياة الدنيا لدنوها من الزوال والفناء، وختمت سورة الأنبياء بمثل ما بدئت به السورة المتقدمة، فأبان الله تعالى أنه بالرغم من قرب الساعة والحساب، فإن الناس غافلون عنها، ولاهون عن القرآن والاستماع إليه[1].

****

١) بتصرف: التفسير المنير للزحيلي (٥/١٧).

المطلب الرابع: ما تحدثت عنه سورة الأنبياء إجمالاً:

قلت: لسورة الأنبياء أغراض عامة وهامة لكل من يتدبرها ويعيش معها فقد جمعت بين صفحاتها ستة عشر نبياً وبينت ما حدث لهم من أقوامهم ودعائهم ومدى سرعة استجابة الله لهم. كما وضحت مآل القوم الكافرين الذين ناصبوا أنبياء الله وما جاءوا به من عند ربهم من الحق، كما أن بعض الأنبياء دعوا الله بدعوات استجاب الله لهم فيها. كما بينت السورة مصير المكذبين لأنبيائهم ويمكن تلخيص ما جاء في السورة الكريمة فيما يأتي:

- الحديث عن الإنذار بالبعث والقيامة، وتحقيق وقوعه وإنه لتحقق وقوعه كان قريبا لذا جاء السياق بلفظ الماضي (اقترب).

- إقامة السورة الحجة على المكذبين بالبعث ويوم القيامة وما فيه بما يرونه من خلق السماوات والأرض من العدم كما بينت أن الله خلق الموجودات من الماء.

- كما حذرت الجميع من التكذيب بكتب الله تعالى ورسله وما يبلغون عن ربهم.

- التذكير بأن هذا الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما هو إلا كأمثاله من الرسل وما جاء إلا بمثل ما جاء به إخوانه من الرسل قبله.

- «ذكرت السورة الكثير من أخبار الرسل والأنبياء - عليهم السلام - وحالهم مع أقوامهم.

- كما جاء في السورة التنويه بشأن القرآن وأنه نعمة من الله على أمة النبي

محمد - صلى الله عليه وسلم – وأنه رحمة للعالمين.

- في السورة التذكير بما أصاب الأمم السالفة من جراء تكذيبهم رسلهم وأن وعد الله للذين كذبوا واقع لا يغرهم تأخيره فهو جاء لا محالة.

- حذر الله تعالى الناس من أن يغتروا بتأخير الموت كما اغتر الذين من قبلهم حتى أصابهم بغتة، كما جاء في السورة ذكر بعضاً من أشراط الساعة وهو فتح سد يأجوج ومأجوج. ما في خلق السماوات والأرض من الدلالة الواضحة على الخالق سبحانه.

- ثم بينت أن وراء هذه الحياة الدنيا حياة أخرى أتقن وأحكم لتُجزى كل نفس بما كسبت وينتصر الحق على الباطل. كما دللت أن ما في ذلك الخلق الذي خلقه الله من الدلائل على وحدانية الخالق إذ لا يستقيم هذا النظام بتعدد الآلهة. وفيها تنزيه الله تعالى عن الشركاء وعن الأولاد والاستدلال على وحدانية الله تعالى. وأنه تعالى لا يُكرهه أحدٌ على فعل ما لا يريد ثم عطف على هذا بالحديث إلى ذكر الرسل والأنبياء، ومقارنة أحوالهم وأحوال أممهم بأحوال محمد - صلى الله عليه وسلم - وأحوال قومه، وكيف نصر الله الرسل على أقوامهم واستجاب دعواتهم، وأن الرسل كلهم جاءوا بدين الله وهو دين واحد في أصوله قطعه الضالون والكافرون قطعا. كما أثنى الله على الرسل وعلى من آمنوا بهم، وبين أن العاقبة للمؤمنين في خيري الدنيا والآخرة، وأن الله سيحكم بين الفريقين بالحق ويعين رسله على تبليغ شرعه.

وكان الجمال والجلال كله في افتتاح كل ما سبق من الكلام بهذه الجملة أسلوب بديع في الافتتاح لما فيه من غرابة الأسلوب وإدخال الروع على المنذرين، قوله تعالى: ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ١ ﴾

والاقتراب مبالغة في القرب، فصيغة الافتعال الموضوعة للمطاوعة مستعملة في تحقق الفعل أي اشتد قرب وقوعه بهم[1].

وموضوع السورة في الأصل – كما هو السور المكية - هو بيان أصول العقيدة الإسلامية ومبادئها وهي التوحيد، والرسالة النبوية، والبعث والجزاء، وقد بدأت بوصف أهوال القيامة، ثم ذكرت قصص جملة من الأنبياء الكرام عليهم السلام، كما تقدم.

وكانت البداية التي بدأت بها السورة بداية مرهبة مرعبة، منذرة محذرة بقرب قيام الساعة، والناس لاهون غافلون عنها وعن خطورة الحساب والعقاب، ومعرضون عن سماع القرآن، مفتونون بلذائذ الحياة الدنيا. ثم أوضحت السبب في إنكار المشركين في مكة نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو أنه بشر مثلهم، وعجزه عن الإتيان بآيات فذة فريدة لم يُسبق إليها ومعجزات مادية، كما أتى بها الأنبياء السابقون مثل موسى وعيسى، فرد القرآن عليهم بأن الأنبياء جميعا كانوا بشرا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، ثم أنذرهم بالإهلاك، كما أهلك بعض الأمم المتقدمة لتكذيبهم رسلهم، ولفت أنظارهم إلى عظمة خلق السموات والأرض، وأن الملائكة طائعون لله، منقادون لأمره، ينفذون ما أمروا به من التعذيب بسرعة لا تعرف التردد والانتظار.

ثم ناقشهم القرآن في اتخاذهم آلهة من دون الله، وطالبهم بالدليل على ادعائهم، وأقام البرهان على وحدانية الله إذ لو كان في السماء والأرض آلهة إلا الله لفسدتا، ووصف النشأة الأولى للسموات والأرض، وأنهما كانتا رتقا ففصلتا، وأبان أن الجبال أوتاد للأرض حتى لا تميد بأهلها، وأن الله تعالى

١) بتصرف: التفسير المنير للزحيلي (١٧/ ٥).

خالق الليل والنهار والشمس والقمر، ثم تكون النهاية الحتمية للجميع الموت والفناء لكل شيء، حتى للملائكة والأنبياء، ويبقى الله وحده ذو الجلال والإكرام، وأوضح أن استعجال الكافرين العذاب غباء منهم وطلب في غير محله، فإن العذاب قريب، والساعة آتية لا ريب فيها، وأنها تأتيهم بغتة فتبهتهم، وأن موازين الحساب دقيقة وفي أتمّ عدل، فلا يبخس أحد شيئا من حقه، ولا يظلم إنسان مثقال حبة من خردل.

وتحقيقا لهاتيك الغايات وتأكيدا عليها، جاءت الأمثال الواقعية تنذر وتذكر، من خلال إيراد قصص بعض الأنبياء كموسى وهارون، وإبراهيم ولوط، وإسحاق ويعقوب، ونوح، وداود وسليمان، وأيوب وإسماعيل، وإدريس وذي الكفل، ويونس وزكريا ويحيى، وعيسى - عليهم السلام - جميعاً.

وأثبت القرآن عقب ذلك وحدة مهام الأنبياء وهي الدعوة إلى عبادة الله، وتطمين المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالجزاء الحسن، وأن الأمم المعذبة في الدنيا سترجع حتما إلى الله في الدار الآخرة لعذاب آخر هو جهنم وبئس المصير. وختمت السورة ببيان كون النبي- صلى الله عليه وسلم- رحمة للعالمين، وأنه أوحي إليه بأن الإله واحد لا شريك له، وأنه يجب الانقياد لحكمه، وأنه ينذر الناس بعذاب قريب وأن مجيء الساعة واقع محتم، وأن الإمهال به وتأخير العقوبة امتحان واختبار، وأن الله يحكم بين النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وبين أعدائه المشركين، وأنه المستعان على افتراءاتهم واتهاماتهم[1].

١) بتصرف: التفسير المنير للزحيلي (٧/١٧).

المبحث الثاني
الالتفات في الضمائر
في سورة الأنبياء

المطلب الأول: الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الأنبياء: ١٧- ١٩].

المعنى العام للآية:

قلت: بعد أن ذكر الله – تعالى – مطاعن الكفار وكل من على شاكلتهم في نبوة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم – باتخاذه هزوا وكذلك استهزائهم بما جاء به من الحق الذي أرسله به ربه إلى الناس كافة. عطف على ذلك أن ذكر فساد أقوالهم، وتلك المطاعن التي طعنوا بها فيه، وبين أن من يُنكر نبوته – صلى الله عليه وسلم - فكأنما جعل تلك المعجزات الواضحات التي ظهرت على يديه، والتي أيده الله بها جعلها من باب العبث واللعب - تنزه ربنا عن ذلك وتعالى عما يقولونه -، فإن الله ما خلق المخلوقات ومنها السماء والأرض وما بينهما إلا لوظيفة مهمة وهي عبادته وحده ومعرفته ومجازاة المؤمنين الذين قام بهذه الوظيفة بالثواب العظيم والنعيم المقيم، ومن لم يقم بها بالعقاب الأليم، فمنكر الرسالة جاعل خلق السماء والأرض لهوا ولعبا، تعالى خالقهما علوا كبيرا.

«ثم بين أن غرضهم من تلك المطاعن إنما هو التمرد والعناد، بين في هذه الآية أنه غنى عن طاعتهم، لأنه هو المالك لجميع المخلوقات، والملائكة

على جلالة قدرهم مطيعون له خائفون منه، فأجدر بالبشر على ضعفهم أن يطيعوه، وما أخلقهم أن يعبدوه، فقال: (وله من في السماوات والأرض) أي وله تعالى جميع المخلوقات خلقا وملكا وتدبيرا وتصرفا وإحياء وإماتة وتعذيبا وإثابة دون أن يكون لأحد في ذلك سلطان لا استقلالا ولا استتباعا»[1].

لقد خلق الله سبحانه هذا الكون لحكمة، لا لعبا ولا لهوا. ودبره بحكمة، لا جزافا ولا هوى، وبالجد الذي خلق به السماء والأرض وما بينهما أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وفرض الفرائض، وشرع التكاليف..

فالجد أصيل في طبيعة هذا الكون، أصيل في تدبيره، أصيل في العقيدة التي أرادها الله للناس، أصيل في الحساب الذي يأخذهم به بعد الممات.

ولو أراد الله- سبحانه- أن يتخذ الهوا لاتخذه – جلّ وعلا - من لدنه. لهواً ذاتيا لا يتعلق بشيء من مخلوقاته الحادثة الفانية.

وهو مجرد فرض جدلي: (لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ) ولو- كما يقول النحاة- حرف امتناع لامتناع. تفيد امتناع وقوع فعل الجواب لامتناع وقوع فعل الشرط. فالله – سبحانه - لم يرد أن يتخذ لهوا فلم يكن هناك لهو لا من لدنه ولا من شيء خارج عنه. ولن يكون لأن الله- سبحانه- لم يرده ابتداء ولم يوجه إليه إرادته أصلا: لذا قال إن كنا فاعلين.. وإن حرف نفي بمعنى ما، والصيغة لنفي إرادة الفعل ابتداء إنما هو فرض جدلي لتقرير حقيقة مجردة.. هي أن كل ما يتعلق بذات الله- سبحانه- قديم لا حادث، وباقٍ غير فانٍ. فلو أراد- سبحانه- أن يتخذ لهوا لما كان هذا اللهو حادثا، ولا كان متعلقا بحادث كالسماء والأرض وما بينهما فكلها حوادث.. إنما كان يكون

١) بتصرف: تفسير المراغي (١٦/١٧).

ذاتيا من لدنه – سبحانه -. فيكون أزليا باقيا. لأنه يتعلق بالذات الأزلية الباقية.

إنما الناموس المقرر والسنة المطردة ألا يكون هناك لهو، إنما يكون هناك جد، ويكون هناك حق فيغلب الحق الأصيل على الباطل العارض:(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) و«بل» للإضراب عن الحديث في موضوع اللهو والعدول عنه إلى الحديث في الواقع المقرر الذي تجري به السُّنة ويقتضيه الناموس. وهو غلبة الحق وزهوق الباطل. والتعبير يرسم هذه السنة في صورة حسية حية متحركة. فكأنما الحق قذيفة في يد الله. يقذف به على الباطل، فيشق بها دماغه! فإذا هو زاهق هالك ذاهب..

هذه هي السنة المقررة، فالحق أصيل في طبيعة الكون، عميق في تكوين الوجود. والباطل منفيٌّ عن خلقة هذا الكون أصلا، طارئ لا أصالة فيه، ولا سلطان له، يطارده الله، ويقذف عليه بالحق فيدمغه.

ولا بقاء لشيء يطارده الله ولا حياة لشيء تقذفه يد الله فتدمغه! ولقد يخيل للناس أحيانا أن واقع الحياة يخالف هذه الحقيقة التي يقررها العليم الخبير. وذلك في الفترات التي يبدو فيها الباطل منتفشا كأنه غالب، ويبدو فيها الحق منزويا كأنه مغلوب. وإن هي إلا فترة من الزمان، يمد الله فيها ما يشاء، للاختبار والابتلاء. ثم تجري السنة الأزلية الباقية التي قام عليها بناء السماء والأرض وقامت عليها العقائد والدعوات سواء بسواء.

والمؤمنون بالله لا يخالجهم الشك في وعد الله وفي أصالة الحق في بناء الوجود وفي نصرة الحق الذي يقذف به على الباطل فيدمغه.. فإذا ابتلاهم

الله بغلبة الباطل حينا من الدهر عرفوا أنها الفتنة وأدركوا أنه الابتلاء وأحسوا أن ربهم يربيهم، لأن فيهم ضعفا أو نقصا ويريد أن يُعدّهم لاستقبال الحق المنتصر، وأن يجعلهم ستار القدرة، فيدعهم يجتازون فترة البلاء يستكملون فيها النقص ويعالجون فيها الضعف.. وكلما سارعوا إلى العلاج قصّر الله عليهم فترة الابتلاء، والله يفعل ما يريد.

هكذا يقرر القرآن الكريم تلك الحقيقة للمشركين، الذين يتقولون على القرآن وعلى الرسول- صلى الله عليه وسلم- ويصفونه بالسحر والشعر والافتراء. وهو الحق الغالب الذي يدمغ الباطل، فإذا هو زاهق. ثم يأتي التعقيب الفصل من الله وحده بقوبه تعالى:(وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ) ولله من في السماوات والأرض، عبيدا أو ملوكا، ملائكة أو جنا الكل له – سبحانه وتعالى -، ومن عنده، يعني الملائكة، لا يستكبرون عن عبادته، لا يأنفون عن عبادته ولا يتعظمون عنها، ولا يستحسرون، لا يعيون، يقال: حسر واستحسر إذا تعب وأعيا. وقيل: لا ينقطعون عن العبادة»[1].

موضع الالتفات في الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى:(وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ) حيث جاء السياق بصيغة الغيبة في قوله: (وله – عنده – عبادته) إلى قوله تعالى: (لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا لَّٱتَّخَذۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ١٧ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ) الذي هو بصيغة التكلم، في قوله: (أردنا – اتخذناه – لدنا – نقذف) وكان مقتضى الظاهر أن يقال:(ولنا –

عندنا - عبادتنا) ليتوافق السياق ويكون كله بصيغة التكلم، لكن السياق القرآني انتقل من التكلم إلى الغيبة وذلك بطريق الالتفات من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب ، وذلك لأن ضمير المتكلم يحمل معاني العظمة والكبرياء من الله تعالى في قوة القذف ودحض الباطل، وهذا العدول إلى الغيبة إنما يشير إلى اتساع ملك الله سبحانه وتعالى الظاهر والباطن لذا قال وله، كما أن السياق يصف حال الملائكة وصفاتهم وكل ذلك مقامه الغيب فعدل إلى الغيب لإفساح المجال للفكر والتأمل وأخذ العبرة والعظة.

سبب الالتفات في الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

قلت: المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب العدول إلى الغيبة هنا الإشارة إلى ملك الله سبحانه وتعالى الواسع الظاهر والباطن الذي لا يحده وصف ولا يحيط به عقل بشر وهذا من الغيب الذي لا يستطيعه مخلوق فناسب السياق أن يكون بالغيبة بدل من التكلم، كما أن السياق يصف حال الملائكة وصفاتهم وكل ذلك مقامه الغيب فعدل إلى الغيب لإفساح المجال للفكر والتأمل وأخذ العبرة والعظة.

قيل المتكلم يحمل معاني العظمة والكبرياء في قوة القذف ودحض الباطل والعدول إلى الغيبة يشير إلى اتساع ملك الله الظاهر والباطن كما يصف حال الملائكة وصفاتهم وكل ذلك مقامه الغيب فعدل إلى الغيب لإفساح المجال للفكر والتأمل وأخذ العبرة والعظة.

أراء العلماء في الالتفات في هذا الموضع في الالتفات:

قوله تعالى:(وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا

يَسْتَحْسِرُونَ) «وإفراد الله يكون للتعظيم أو لأنه أعم منه من وجه، أو المراد به نوع من الملائكة متعالٍ عن التبوؤ في السماء والأرض أو مبتدأ خبره: لا يستكبرون عن عبادته لا يتعظمون عنها. ولا يستحسرون ولا يعيون منها، وإنما جيء بالاستحسار الذي هو أبلغ من الحسور تنبيها على أن عبادتهم بثقلها ودوامها حقيقة بأن يستحسر منها ولا يستحسرون.

أما قوله ومن عنده.. المقصود جميع من عنده من الملائكة لا يترفعون عن عبادته، ولا يعيون ولا يتعبون ولا يملون. والعندية هنا ليست مكانية، وإنما هي عندية مكانة وتشريف. وتخصيص الملائكة بالذكر هنا لإبانة رفعة شأنهم[1].

«وله تعالى خاصة جميع المخلوقات خَلقا ومُلكا وتدبيرا وتصرفا وإحياء وإماتة وتعذيبا وإثابة وليس لأي أحد في ذلك استقلالا واستتباعا، وكأنه أريد هنا إظهار مزيد العظمة فجيء بالسماوات جمعا على معنى له كل من هو في واحدة واحدة من السماوات. وقيل عبر عنهم بذلك تنزيلا لهم لكرامتهم عليه عز وجل منزلة المقربين.

وهنا قد يسأل سائل لماذا أفرد الله الملائكة بالذكر مع أنهم داخلون في ملكية الله تعالى، ولما ذكر أنهم عنده؟ ونقول في الجواب: أفردوا لتعظيمهم ولقربهم من الله تعالى، ولأن بعض الناس كان يقدسهم، بل يعبدهم، فكان ذكرهم فيه عبرة لمن يعبدون الله تعالى، وذكر أنهم عنده تشريفا لهم، وللإشارة إلى قربهم من الله[2].

١) الالتفات في القران الكريم دراسة في القيم البلاغية, (ص: ٥٠). تفسير البيضاوي (٤٨/٤). التفسير المنير للزحيلي (٢٨/١٧).

٢) ()بتصرف: تفسير الألوسي (٢١/٩). زهرة التفاسير (٤٨٤٤/٩).

«له يحتمل أن يكون ابتداء كلام، واللام في له لام الملك، وقوله تعالى: من في السماوات يعم الملائكة والنبيين وغيرهم، ثم خصص من هذا العموم من أراد تشريفه من الملائكة بقوله تعالى: ومن عنده لأن «عند» هنا ليست في المسافات إنما هي تشريف في المنزلة فوصفهم تعالى بأنهم لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يسأمونها ولا يكلّون فيها. والمراد أن الملائكة مكرمون منزلون لكرامتهم على الله منزلة المقربين عند الملوك على طريق التمثيل والبيان لشرفهم وفضلهم[1].

«وله: استئناف مقرر لما قبله من خلقة تعالى لجميع مخلوقاته على حكمة بالغة ونظام كامل وأنه تعالى يحق الحق ويزهق الباطل أي له تعالى خاصة جميع المخلوقات. ومن عنده هم الملائكة - عليهم السلام - عبر عنهم بذلك إثر ما عبر عنهم بمن في السموات بياناً لكرامتهم عليه - عز وعلا - وزلفاهم عنده فهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، و{لا يستكبرون عن عبادته} أي لا يتعظمون عنها ولا يعدّون أنفسهم كبيرا، وكذلك لا يستحسرون، أي ولا يكلون ولا يعبون وصيغة الاستفعال المنبئة عن المبالغة في الحسور للتنبيه على أن عباداتهم بثقلها ودوامها حقيقة بأن يُسْتَحسَر منها ومع ذلك فهم لا يستحسرون. وإفرادهم بالذكر مع دخولهم في من في السموات والأرض للتعظيم»[2].

«وهذه الجملة مقررة لما قبلها ومن عنده يعني الملائكة، وفيه رد على القائلين بأن الملائكة بنات الله، وفي التعبير عنهم بكونهم عنده إشارة إلى تشريفهم وكرامتهم، وأنهم بمنزلة المقربين عند الملوك. وتخصيصهم بالذكر

١) بتصرف: البحر المحيط في التفسير (٤١٧/٧). تفسير ابن عطية (٧٧/٤).
٢) بتصرف: تفسير أبي السعود (٦٠/٦)..

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جاء معبرا عن خصوصيتهم وقربهم بالعندية تمثيلا بما نعرف من أصفياء الملوك عند التعبير بعند من مجرد القرب في المكانة لا في المكان. وعند وإن كان من الظروف المكانية إلا أنه شبّه قرب المكانة والمنزلة بقرب المكان والمسافة فعبر عن المشبه بلفظ المشبه به[1].

فاللام في وله للملك، والمجرور باللام خبر مقدم. ومن في السماوات مبتدأ، وتقديم المجرور للاختصاص، أي له من في السماوات والأرض لا لغيره وهو قصر إفراد ردا على المشركين الذين جعلوا لله شركاء في الإلهية.

ومن في السماوات والأرض يعم العقلاء وغيرهم وغلب اسم الموصول الغالب في العقلاء لأنهم المقصود الأول.

«ولا فرق بين أهل العالم العلوي والسفلي، ومن عنده وهم الملائكة- عليهم السلام- فهم لا يستكبرون عن عبادته ولا يتعاظمون عنها، ولا يعدون أنفسهم كبراء، ولا يستحسرون أي: لا يكلون ولا يعيون[2].

****

١) بتصرف: فتح القدير للشوكاني (٤٧٤/٣). نظم الدرر في تناسب الآيات والسور, البقاعي (٤٠١/١٢). روح البيان (٤٦٢/٥).

٢) بتصرف: البحر المديد, ابن عجيبة (٤٥١/٣). التحرير والتنوير (٣٥/١٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المطلب الثاني: الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

قال تعالى:(وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾) **[سورة الأنبياء: ٣٢ – ٣٣].**

قلت: قوله تعالى:(وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ **) أي أن السماء بمثابة سقف البيت للأرض التي يعيش الناس عليها، وهذا السقف محفوظ بحفظ الله له من السقوط على مَن تحته، أو أنه محفوظٌ من استراق الشياطين للسمع.**

(وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ **) أي: أن الناس معرضون عن هذه الآية العظيمة وهي خلق السماء والأرض وجعل السماء سقفا لما تحتها، ولاهون وغافلون عنها، وهذا الكلام عام في جميع آيات السماء العُلويّة من علو وارتفاع وبلا عمَد، ومدي سعتها وعظمتها التي لا تُدانى، ولونها الحسن الذي يظهر لكل عاقل، وهذا الإتقان العجيب فيها، وما فيها من مشاهد يدرك بعضا منها العاقل الموَفَّق الذي وفقه الله..**

انظر مثلاً إلى الكواكب الثوابت منها أو السيّارة، وهذه الشمس والقمر النيرات، والذي يتولد عنهما، الليل والنهار، وكونهما سابحين في فلكهما دائما لا يتوقفان، وهذه النجوم التي تقوم بالمنافع الكثيرة للعباد من حر وبرد، وفصول السنة التي يعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم عن طريقها، والناس يستريحون في ليلهم ويهدأون فيه وينامون، ومن ثم ينتشرون في نهارهم، ويسعون في معايشهم، كل هذه الأمور إذا ما تدبرها اللبيب، وأمعن

النظر فيها، لجَزَم جزما لا شك فيه ولا ريب، بأن الله جعلها مؤقتة بوقت معلوم، إلى أجل معلوم ومحتوم، فالعباد يقضون فيها ومنها مآربهم، وتقوم بها حياتهم ومنافعهم، حتى يستمتعوا وينتفعوا بها، ثم بعد هذا كله، ستزول وتفنى وتضمحل وتنتهي، والذي يفنيها هو وحده الذي أوجدها، وهو يسكنها لأنه هو الذي حَرّكها، ومآل المكلفون بعد هذه الحياة الدنيا إلى الدار الآخرة، وسيجدون فيها جزاء أعمالهم، كاملا موفرا لا نقص فيه، وحتى يعلم العباد أن المقصود من هذه الدار إنما هي مزرعة لدار القرار، وأنها منزل سفر، لا محل إقامة.

وأن الله - سبحانه وتعالى - خلق الليل والنهار وما يدور فيهما منّة منه ونعمة على عباده ليتعرفوا على خالقها ومن ثم يعبدوه ولا يُشركوا به شيئا، كذلك حجة عليهم ودلالة على عظيم سلطانه ومدى قدرته عليهم وعلى بعثهم من موتهم ومن ثم حسابهم، لذا بين لهم أن الليل والنهار فهما يختلفان عليكم، وهذا الاختلاف فيهما فيه صلاح معايشكم وأمور دنياكم وآخرتكم، وهو سبحانه خلق الأرض والشمس والقمر، كلها تجري في أفلاكها كما يجري السمك في الماء بقدرة العزيز الحكيم.

«وجعل الله السماء سقفا محفوظا، أي أن السماء بمثابة المظلة أو السقف والقبة على الأرض، وذلك السقف محفوظ من الوقوع والاضطراب، ومحفوظ من الشياطين التي تحاول استراق السمع- سمع الأسرار الإلهية. فالحفظ هنا عام في الصون من الشياطين ومن التصدع والسقوط وغير ذلك من الآفات.

وعلى الرغم من هذه الأدلة الدالة على وحدانية الإله، إلا أن الناس غافلون

عنها، لذا استحقوا اللوم والتوبيخ بنهاية الآية، فقال الله تعالى:(وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ) أي أن الناس عن آيات السماء وما فيها معرضون غير متأملين ولا مفكرين، وآيات السماء ما فيها من: كواكبها وأمطارها، والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك مما يشبهه.

وخلق الليل والنهار، والشمس والقمر، نعمة من الله، ودليلا على عظمة سلطانه، عن طريق دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس، ودوران القمر حول الأرض، والشمس والقمر كل منهما يدور ويسبح في فلك خاص معين له، لا يفارقه، والفلك: هو الجسم الدائر دورة اليوم والليلة، فالكل في ذلك سابح متصرف، وإيجاد الليل لمنافع كثيرة كالراحة والنوم والاستقرار، وإيجاد النهار للتقلب في معايش الدنيا، وخلق الشمس والقمر للإضاءة، وإفادة الزروع والثمار[1].

(وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ) أي إنه تعالى نظم السماء وجعلها كالسقف المحفوظ من الاختلال وعدم النظام، فقد حفظت الشموس والكواكب في مداراتها بحيث لا يختلط بعضها ببعض، ولا يختبط بعضها في بعض، بل جعلت في أماكنها الخاصة بها بقوة الجاذبية.(وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ) أي أن المشركون معرضون عن التفكر في تلك الآيات الدالة على وحدانية الله وعظيم قدرته وإحاطة علمه - جل وعلا - (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) أي والله خلق لكم الليل والنهار نعمة منه عليكم، وحجة على عظيم سلطانه، فهما يختلفان عليكم لصلاح معايشكم وأمور

١) بتصرف: التفسير الوسيط للزحيلي (٢/ ١٥٧٩). تفسير حدائق الروح والريحان (٧٦/١٨).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دنياكم وآخرتكم، وخلق الأرض والشمس والقمر تجرى فى أفلاكها كما يجرى السمك فى الماء[1].

قوله تعالى:(وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾) هذه الآيات تعتبر جولة في الكون المعروض للأنظار، والقلوب الغافلة عن آياته الكبار، وفيها ما يحير اللبيب حين يتأمله بالبصيرة المفتوحة والقلب الواعي والحس اليقظ. فالله جعل من الماء كل شيء حيّ ومن ثم فيقرر كذلك حقيقة خطيرة. يعد العلماء كشفها وتقريرها أمرا عظيما. ويمجدون «دارون» لاهتدائه إليها! وتقريره أن الماء هو مهد الحياة الأول.

وهي حقيقة تثير الانتباه حقا. وإن كان ورودها في القرآن الكريم لا يثير العجب في نفوسنا، ولا يزيدنا يقينا بصدق هذا القرآن. فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله. بأن السماء سقفا محفوظا من خالقه سبحانه وتعالى..

والسماء هي كل ما علا. ونحن نرى فوقنا ما يشبه السقف. والقرآن يقرر أن السماء سقف محفوظ. محفوظ من الخلل بالنظام الكوني الدقيق. ومحفوظ من الدنس باعتباره رمزا للعلو الذي تتنزل منه آيات الله..

لكن الناس غافلون ومعرضون عن آياتها.. فهو وحده الذي خلق الليل والنهار هاتان الآيتان العظيمتان، والشمس والقمر كذلك وكل هذه الآيات في فلك يسبحون ويروحون ويجيئون فالليل والنهار ظاهرتان كونيتان. والشمس والقمر جرمان هائلان لهما علاقة وثيقة بحياة الإنسان في الأرض. وبالحياة

١) بتصرف: تفسير السعدي (ص: ٥٢٢). تفسير المراغي (١٧/٢٧).

كلها.. والتأمل في توالي الليل والنهار، وفي حركة الشمس والقمر. بهذه الدقة التي لا تختل مرة وبهذا الاطراد الذي لا يكف لحظة.. جدير بأن يهدي القلب إلى وحدة الناموس، ووحدة الإرادة، ووحدة الخالق المدبر القدير[1].

موضع الالتفات في الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ) حيث جاء السياق بصيغة الغيبة في قوله: (وهو الذي خلق..) بعد أن كان بصيغة التكلم في قوله تعالى:(وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفَۢا مَّحۡفُوظًا) الذي هو بصيغة التكلم، في قوله: (جعلنا السماء..) وكان مقتضى الظاهر أن يقال:(وخلقنا الليل..) ليتوافق السياق ويكون كله بصيغة التكلم، لكنه عدل عن ذلك بطريق الالتفات والتكلم يفيد العظمة في جعل السماوات باتساعها طولا وعرضا إذ السماء أمام الأعين ثابته لا تغيب ولا تتحرك بينما نشاهد الليل والنهار يتحركان ويغيبان ويتعاقبان وفي ذلك دعوة للتفكر في عظمة الخالق سبحانه وتعالى وعظمة هذا المخلوق الذي يدل على حكمة وعظمة خالقها، وهذا العدول إلى الغيبة إنما يشير إلى اتساع ملك الله سبحانه وتعالى الظاهر والباطن لذا قال وهو الذي خلق.

سبب الالتفات في الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

قلت: إن المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب هذا العدول إلى الغيبة هنا الإشارة إلى ملك الله سبحانه وتعالى الواسع الظاهر والباطن الذي يدل على عظمة الخالق البارئ بحكمته وقدرته بما لا يحده وصف ولا يحيط به

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عقل بشر وهذا من الغيب الذي لا يستطيعه مخلوق فناسب السياق أن يكون بالغيبة بدل من التكلم، والعدول إلى الغيب حتى يفسح المجال للفكر والتأمل في مخلوقات الله الغيبة والمشاهدة وأخذ العبرة والعظة.

والتكلم وإن كان يفيد العظمة في جعل السماوات باتساعها طولا وعرضا وذلك لأن السماء أمام الأعين ثابته لا تغيب ولا تتحرك بينما نشاهد الليل والنهار يتحركان ويغيبان ويتعاقبان وفي ذلك دعوة للتفكر في عظمة الخالق وعظمة المخلوق.

أراء العلماء في الالتفات في هذا الموضع في الالتفات:

قيل إن سبب الالتفات من التكلم إلى الغيبة هنا هو «لإظهار الفخامة وإثبات صفات الجلال والكمال لله تعال كما أن السياق فيه التأكيد على فحوى الكلام وما يتضمنه»[1].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾ حيث عدل عن ضمير التكلم في قوله وجعلنا في الآيتين قبلها إلى الغيبة هنا وعدل عن الفعل جعل الى الفعل خلق وفي سبب العدول هناك ارتباط بين العدولين والمشهور أن الخلق هو التقدير والإبداع من العدم، أما الجعل فهو إنشاء شيء من شيء موجود في الأصل أو تصييره شيئا آخراً أو تنقله من حال الى حال آخر وكذلك الآيات والمشاهد اذا جاءت مع الفعل (جعل) فإن موطن العبرة يكون في الجانب المحسوس المشاهد وعندما ترد مع الفعل (خلق) لا تكون هي المقصودة بالاختيار ولا الجانب المحسوس منها لكن ما وراء تكوينه من لطيف الحكمة وخفي الأسرار والتدبير ففي الآيتين الأوليين

١) بتصرف: تنوع صور الالتفات في القرآن, إسماعيل الحاج عبد القادر (ص: ١٧٦).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كان الاعتبار مع فعل الجعل إلى الأمور المحسوسة التي نراها في علو الجبال وشموخها، كذا ارتفاع السماء بلا عمد نراها لكنه هنا لما عدل إلى الفعل خلق فلم يكن موطن العبرة والعظة في مشاهدة جانب الظلمة والنور من الليل والنهار ودوران الشمس والقمر، لكن إلى قدرة الله الخفية التي بها يتم تعاقب الليل والنهار وتدور الشمس والقمر ولذلك زُيّلت الآية الأولى بالهداية في(يهتدون) والآية الثانية بالإعراض (معرضون) والاهتداء هو الحس للسائر والماشي الذي لا يصل طريقه فيصل إلى غايته التي يقصدها من سار مستأنسا بالسُبُل مسترشدا الجبال والآية الثانية إعراضهم عن انتصاب السماء سقفا محفوظا وما زينت به السماء الدنيا بالنجوم والكواكب والشمس والقمر، فالآية تنعي عليهم إعراضهم عن الآيات المشاهدة والمحسوسة التي لو تأملوها لاعترفوا بعظمة هذا الخالق العظيم لكن الآية محل الشاهد ختمت بقوله: (كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) في فلكٍ يسبحون ونحن إن رأينا الشمس والقمر يَسْبَحان لكن لا تدل كيف يسبَحان وبعد ذلك يظهر التناسب والملائمة بين العدول عن التكلم في أن الفعل جعل إلى ضمير الغيبة في الفعل خلق فالتكلم قرين للحضور والمشاهدة والغيبة مع أن الفعل خلق قرين التواري والخفاء لعقلانية هذا الاستدلال ويكاد أن يكون سر هذا العدول قاعدة مطردة في كل مواضع القران الكريم[1].

قوله تعالى: (وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرۖ) «هذا تذكير لهم بنعمة أخرى مما أنعم به عليهم، وذلك بأنه خلق لهم الليل ليسكنوا فيه، والنهار ليتصرفوا فيه في معايشهم، وخلق الشمس والقمر لذا جاء بالغيبة.

١) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية, د حسن طبل (ص: ١١٩) وما بعدها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فعدل عن التكلم إلى الغيبة للامتنان من الله على عباده ببعض خلقه، ولا يمتن الله إلا بشيء عظيم ونعمة من نعمه على عباده، ومن ذلك الليل والنهار[1].

«(وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرۖ) لما كانت في إيجاد هذه الأشياء المعدودة هنا منافع للناس سيقت في معرض المنة بصوغها في صيغة الجملة الاسمية المعرفة الجزأين لإفادة القصر، وهو قصر إفراد إضافي وذلك لتنزيل المخاطبين من المشركين منزلة من يعتقد أن أصنامهم مشاركة لله في خلق تلك الأشياء، لأنهم لما عبدوا الأصنام، - والعبادة شكر - لزمهم أنهم يشكرونها وقد جعلوها شركاء لله فلزمهم أنهم يزعمون أنها شريكة لله في خلق ما خلق لينتقل من ذلك إلى إبطال إشراكهم إياها في الإلهية، ولكون المنّة والعبرة في إيجاد نفس الليل والنهار، ونفس الشمس والقمر، لا في إيجادها على حالة خاصة، جيء هنا بفعل الخلق لا بفعل الجعل وجاء بصيغة الغيبة بدل من التكلم[2].

«والليل والنهار والشمس والقمر هي آيات من الله، ولذا لم يعد الفعل بيانا لبعض تلك الآيات التي هم عنها معرضون بطريق الالتفات الموجب لتأكيد الاعتناء بفحوى الكلام، ولما كان إيجاد الليل والنهار ليس على نمط إيجاد الحيوانات وإيجاد الرواسي لم يتحد اللفظ الدالّ على ذلك[3].

****

١) بتصرف: فتح القدير للشوكاني (٤٧٩/٣). تفسير الشعراوي (٩٥٣٤/١٥).
٢) بتصرف: التحرير والتنوير (٥٩/١٧).
٣) بتصرف: تفسير الألوسي (٣٨/٩).

المطلب الثالث: الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

قال تعالى: (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾) [سورة الأنبياء: ٤٨ – ٤٩].

المعنى العام للآية:

قلت: جاء السياق القرآني في هذه السورة عن استهزاء المشركين بالنبي - صلى الله عليه وسلم- لأنه من البشر وليس من الملائكة. كما توضح السورة في الآيات السابقة لهذه الآيات ما كان عليه مشركي مكة من تكذيبهم بالوحي الذي هو من عند الله، وكانوا لا يفترون عن وصفه بأنه شعر أو سحر أو افتراء من عند محمد – صلى الله عليه وسلم -.

لذا جاء السياق هنا ليكشف لهم أن الله أرسل رسله السابقين لمحمد – صلى الله عليه وسلم - من البشر أيضا وليسوا من الملائكة إذن فهي سنة الله المطردة في إرسال الرسل، وهؤلاء الرسل منهم موسى وهارون عليهما السلام إنما هما نماذج ومثلهم مثل غيرهم. كما أن نزول الكتب على هؤلاء الرسل ليس بدعة مستغربة فموسى وهارون آتاهما الله كتابا، ويسمى هذا الكتاب الذي أُنزل على سيدنا موسى – عليه السلام - يسمى (التوراة) والفرقان وإن كان صفة للقرآن. إلا أن هناك وحدة حتى في الاسم.

«ذلك أن الكتب المنزلة كلها فرقان بين الحق والباطل، وبين الهدى والضلال، وبين منهج في الحياة ومنهج آخر، واتجاه في الحياة واتجاه آخر. فهي في عمومها فرقان. وفي هذه الصفة تلتقي التوراة والقرآن.

وجعل التوراة كذلك، (ضياء) يكشف ظلمات القلب والعقيدة، وظلمات

الضلال والباطل. وهي ظلمات يَتوهُ فيها العقل ويضل فيها الضمير. وإن القلب البشري ليظل مظلما حتى تشرق فيه شعلة الإيمان، فتنير جوانبه، ويتكشف له منهجه، ويستقيم له اتجاهه، ولا تختلط عليه القيم والمعاني والتقديرات.

وجعل التوراة كالقرآن كذلك في أنهما ذكرا للمتقين تذكرهم بالله، وأيضا تُبقي لهم ذكرا في الناس. وماذا كان بنو إسرائيل قبل التوراة؟ كانوا أذلاء تحت سياط فرعون، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ويستذلهم بالسخرة والإيذاء.

ويخص المتقين بهذا الذكر فقال: ﴿وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٨ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ لأن الذين تستشعر قلوبهم خشية الله ولم يروه، وهم من يوم القيامة مشفقون خائفون فيعملون لها ويستعدون، هؤلاء هم الذين ينتفعون بالضياء، ويسيرون على هداه، فيكون كتاب الله لهم ذكرا، يذكرهم بالله، ويرفع لهم ذكرا في الناس.

ذلك شأن موسى وهارون.. «وهذا ذكر مبارك أنزلناه» فليس بدعا ولا عجبا، إنما هو أمر مسبوق وسنة معروفة «أفأنتم له منكرون» فماذا تنكرون منه، وقد سبقت به الرسالات؟[1].

قلت: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي أعطينا موسى وأخاه هارون ومكناهم فيما آتيناهم من الكتب والرسالة إلى قومهما، ومن هذا العطاء من الله لهما التوراة (الفرقان) فهي شأنها شأن جميع الكتب المنزّلة من عند الله، وكلها فرقت بين الحق الذي جاءت به والباطل الذي كانوا عليه، كما فرّقت بين قوم ليس لهم سلطان ولا

قانون يحكمهم سواء في ماضيهم ولا في حاضرهم إذ لم يؤمنوا، لكنهم افترقوا وصاروا من بعدها لهم قانون يحكمهم بحكم الشرع، وصار سلطانهم من أنفسهم، لذا قال لهم الله في مقام الامتنان والإنعام عليهم: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[سور المائدة:٢٠]. أي جعلكم الله مستقلين عن الجميع وسلطانكم منكم.

«وقال بعضهم: إن الفرقان هو نجاتهم في البحر، إذ فرق الله البحر فصار كل فرق كالطود العظيم، وفي الحق: إن الفرقان يشمل بعمومه كل فارق بين أمرين، فآتاه الله تعالى أن انفلق له البحر بعصاه، وأخرج بني إسرائيل من الذل والهوان إلى العزة والقوة، وأهرهم أن يطبقوها التوراة ويتحملوا واجباتها وتبعاتها حتى اضطر موسى لأن يتركهم يتيهون في الأرض أربعين سنة ليتعودوا حياة الباس والقوة، ومهما يكن فإن الله تعالى آتى موسى كل ذلك، ولعل ذلك هو السر في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ ولم يقل « وأنزلنا الفرقان» وقال:﴿وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ الضياء هو النور الهادي المرشد، وهو هنا المعجزات التسع التي بعث الله تعالى موسى - عليه السلام - بها، والتعبير عنها بالضياء من قبيل الاستعارة فشبهت بالضياء، لأنها مرشدة هادية معرفة كالضياء وهي نور، وهي ذات الضياء، وسمّاها - سبحانه وتعالى- (ذكرا) لأنها مذكّرة بالحق دائما، ولكن بشرط أن تكون القلوب متفتحة للحق، ولذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ فوصفهم الله – تعالى - بوصفين أولهما: أنهم يخشونه، أي يخافونه معظمين له مؤمنين بألوهيته مصدقين لكل ما يأمر به، طائعين لأوامره ونواهيه،

ووصف الله الذين يخشونه بأنه ربهم الذي خلقهم وربهم وهو القائم على شئونهم، ويخشونه وهو غائب عنهم، علموه بالعقل والنقل فهم يعبدونه كأنهم يرونه وهذا هو الإحسان في العبادة، وهو حقيقة الخشية.

الوصف الثاني: أنهم يعرفون أن الله – جل وعلا - لم يخلق الناس عبثا، بل لهم بعث وحساب وعقاب، وهم يستشعرون الخوف من نتيجة الحساب؛ ولذا قال تعالى: (وهم من الساعة مشفقون)، فهم يُغلّبون الخوف على الرجاء، والساعة هي يوم القيامة، وعبر بالساعة؛ لأنها ساعة شديدة، فهم يخافون الحساب لأنهم يستصغرون حسناتهم ويستكثرون سيئاتهم.

هذا شأن الفرقان الذي آتى الله موسى فيه تذكير للمتقين الذين لهم هذه الأوصاف، ولم يكن بنو إسرائيل على تلك الأوصاف، ولكنه مع ذلك ضياء وذكر للمتقين الذين ربما يوجدون من بعدهم حتى جاء محمد - صلى الله عليه وسلم -.

فالله - جل وعلا- لما تكلم في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد شرع في قصص الأنبياء عليهم السلام، وذلك تسلية للرسول - عليه السلام - فيما يناله من قومه وتقوية لقلبه على أداء الرسالة والصبر على كل عارض دونها وذكر هاهنا منها قصصا. وهذه القصة الأولى من قصص الأنبياء في هذه السورة، قصة موسى عليه السلام ووجه الاتصال أنه تعالى لما أمر رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يقول: (قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ) [سورة الأنبياء: ٤٥]. أتبعه بأن هذه عادة الله تعالى في الأنبياء قبله فقال: ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان[1].

١) بتصرف: زهرة التفاسير (٤٨٧٩/٩). تفسير الرازي (٢٢/ ١٥٠). تفسير القرطبي (٢٩٥/١١) تفسير ابن جزي الكلبي (٢٤/٢).

«وهذا الإيتاء من الله في قوله: (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ) إنما هو من مقام فضلنا وجودنا على موسى الكليم وأخاه هارون أعطيناه الفرقان (التوراة) وهو الفارق بين الحق والباطل ولكمال تفريقه وفصله صار ضياء يستضئ به عموم المؤمنين الموحدين فقط، وليس هؤلاء البعيدين التائهين في ظلمات الغفلات والجهالات وأنواع الضلالات وكذلك هذا الكتاب ذكرا للمتقين منهم المتذكرين الوقوف بين يدي الله يوم العرض الأكبر. وهم الذين يخشون ربهم بضمائرهم وسرائرهم كما يخشون منه سبحانه بظواهرهم وعلنهم ومع ذلك الخوف المستوعب لجوانحهم وجوارحهم هم من الساعة الموعود إتيانها المحقق وقوعها وقيامها حقا حتما محققا مشفقون خائفون مرعوبون كأنها واقعة آتية عليهم اليوم.

وقال جماعة (الفرقان) هو ما رزقه الله من نصر وظهور حجة وغير ذلك مما فرق بين أمره وأمر فرعون، و «الضياء» التوراة و «الذكر» بمعنى التذكرة. وتفسير «الفرقان» بالتوراة، لأن فيها الفرق بين الحرام والحلال وهذا ذكر يعني القرآن[1].

موضع الالتفات في الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى: (ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ) حيث جاء السياق بصيغة الغيبة في قوله: (الذين يخشون ربهم– وهم من الساعة) بعد أن كان بصيغة التكلم في قوله تعالى: (وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ) الذي هو بصيغة التكلم، في قوله: (آتينا موسى..) وكان مقتضى الظاهر أن يقال:(الذين يخشوننا – وهم منّا..) ليتوافق السياق

١) بتصرف: الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية, النخجواني (٥٣٥/١). تفسير ابن عطية (٨٥/٤). تفسير ابن جزي الكلبي (٢٤/٢).

السابق واللاحق ويكون كله بصيغة التكلم، لكنه عدل عن ذلك بطريق الالتفات والتكلم يفيد العظمة في إعطاء موسى وهارون ما أعطاهم من الكتب بعد النبوة التي لا يصل إليها أحد من البشر إلا مَن اصطفاهم الله واختارهم لهذه المهمة الجليلة وهذا العدول إلى الغيبة إنما يشير كشف حال المتقين وما هم عليه من الخشية والخوف والوجَل من الله وهم لم يروه. فالله تبارك اسمه كأنه يعرض هنا للجميع الصورة الحسنة للمتقين، وهي المستورة عن الناس حتى يتشبه بهم غيرهم. ولما كانت الخشية أمر قلبي لا يُري بالعين لذا ناسبه سياق صيغة الغيبة حتى يحدث التناغم والتناسب.

سبب الالتفات في الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

قلت: إن المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب هذا العدول إلى الغيبة هنا الإشارة يفسح المجال للفكر والتأمل في صفات هؤلاء المتقين وهم يخافون ربهم بالغيب وهم لم يشاهدوه. والتكلم وإن كان في سياق الامتنان علي موسي وأخيه وعلي المؤمنين وتكريم لهم، إلا أن العدول إلى الغيبة فيه فوائد عظيمة لمن يريد الاقتداء بهم والسير في طريقهم، لذا كشف حال المتقين لما هم عليه من الخشية كي يكونوا مثالا يُحتذى به، ومنارة يُهتدى بها فناسب هنا الغيبة بدل التكلم.

أراء العلماء في الالتفات في هذا الموضع في الالتفات:

«المراد بجميع هذه الصفات واحد هو التوراة وتخصيص المتقين بالذكر لانهم المستضيئون بأنواره والمتنعمون بهدايته، والغانمون بمغانم آثاره الذين يخشون ربهم عذابه وهو مجرور المحل على أنه صفة مادحه للمتقين

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بالغيب حال من المفعول أى يخشون عذابه تعالى وهو غائب عنهم غير مشاهد لهم ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون بالإنذار ما لم يشاهدوا ما أُنذروه من العذاب»[1].

«يخشون عذاب ربهم فيأتمرون بأوامره وينتهون عن نواهيه وإيمانهم بالله غيبي استدلالي، فالعباد يعملون لله في الغيب والله لا يغيب عنه شيء يعني: يعملون لربهم في غيب عنه، وقيل: يخشون ربهم وهم غائبون عن الآخرة وأحكامها. وقيل: يخشون ربهم في الخلوات إذا غابوا عن الناس وهذا هو الأقرب، والمعنى أن خشيتهم من عقاب الله لازم لقلوبهم إلا أن ذلك ليس مما يظهرونه في الملا دون الخلا وهم من عذاب الساعة وسائر ما يجري فيها من الحساب والسؤال مشفقون فيعدلون بسبب ذلك الإشفاق عن معصية الله تعالى»[2].

«الذين يخشون ربهم لأن هذه الخشية تلازم التقوى أو يخشون عذابه وهو غائب عنهم أو هم غائبون عنه، لأنهم في الدنيا، والعذاب في الآخرة؛ وقيل يخافونه في الخلوات إذا غابوا عن أعين الناس.

وهؤلاء المتقون من الساعة وما فيها من أهوال القيامة خائفون وجلون، وهذا من ذكر الخاص بعد العام، لكونها أعظم المخلوقات وللتنصيص على إنصافهم بضد ما أنصف به المستعجلون وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه.

وجامع القول في ذلك: أن الكتب السماوية تشتمل على التفرقة بين الحق

---

١) بتصرف: روح البيان, الاستنبولي (٤٨٨/٥). الالتفات في القران الكريم دراسة في القيم البلاغية (ص: ٥١).

٢) بتصرف: تفسير الرازي (١٥١/٢٢). تفسير ابن عطية (٨٥/٤). تفسير السمرقندي (٤٢٨/٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد، والحلال والحرام، وعلى ما يحصل نورا في القلوب، وهداية وخوفا وإنابة وخشية»[1].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ صفة للمتقين أو مدح لهم منصوب أو مرفوع بالغيب حال من الفاعل أو المفعول. وهم من الساعة مشفقون خائفون وفي تصدير الضمير وبناء الحكم عليه مبالغة وتعريض. أي يخشون عذابه تعالى وهو غائب عنهم غير مشاهد لهم ففيه تعريض بالكفرة حيث لا يتأثرون بالإنذار مالم يشاهدوا ما أنذروه وقيل من الفاعل. وهم من الساعة خائفون منها والالتفات للاعتناء وتقديم الجار لمراعاة الفواصل وتخصيص إشفاقهم منها بالذكر بعد وصفهم بالخشية على الإطلاق للإيذان بكونها معظم المخوفات وللتنصيص على اتصافهم بضد ما اتصف به المستعجلون وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على ثبات الإشفاق ودوامه[2].

قلت: والخلاصة أن المتقين وصفهم ربهم بصيغة الغيبة بعد أن كان بصيغة المتكلم في قوله آتينا ومقتضى الظاهر أن يقال يخشوننا وفي سبب العدول أن التكلم هنا في معرض الامتنان علي موسي وأخيه هارون وكذلك علي المؤمنين الذين اتبعوهم بإحسان وتكريم لهم والعدول إلى الغيبة فيه كشف لحال هؤلاء المتقين وما هم عليه من الخشية لله فالله تبارك اسمه كأنه يعرض صورتهم الحسنة المستورة عن الناس لأجل أن يكونوا مثالا يحتذى به ولما كانت الخشية أمر قلبي لا يري بالعين ناسبه صيغة الغيبة كي يحدث التناغم والتناسب.

****

١) بتصرف: فتح البيان في مقاصد القرآن, محمد صديق خان (٣٣٦/٨) تفسير ابن كثير (٣٤٧/٥).

٢) بتصرف: تفسير البيضاوي (٥٣/٤) البحر المحيط, أبو حيان (٤٣٦/٧) تفسير أبي السعود (٧١/٦).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المطلب الرابع: الالتفات عن الغيبة إلى التكلم:

قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾) [سورة الأنبياء: ٣٠- ٣١].

المعنى العام للآية الكريمة:

قلت: لكل عاقل يريد أن يدخل في عباد الله المؤمنين، يجد أن هناك أدلة ملموسة واضحة، و براهين كثيرة محسوسة ومشاهدة للجميع، كلها تدل دلالة لا يعتريها شكّ على توحيد الله الواحد الأحد القادر على كل شيء، وتلك الأدلة الواضحة كثير منها موجود في عظمة هذا الكون الذي لا يقدر على تنظيمه بهذه العظمة إلا إله قادر حكيم، وإحكام صنعته، وإتقان وجود هذا العالم، فما على الإنسان العاقل إلا أن يتأمل ما يراه من هذا العالم المُتقَن تأملا واعيا ودقيقا، على الأقل فيما اكتشفه العلماء المعاصرون، وما أرشدوا إليه في اكتشافاتهم من ثوابت الكون، وآفاقه الرحبة الشاسعة، وما يقوم به كل جزء في الكون بوظيفته التامة ودون تصادم أو تعارض أو تعطل أو شذوذ في وظائفه، وكل هذه الأدلة موجودة في آيات من القرآن العظيم تورد الكثير من الأدلة على وجود الله ووحدانيته.

«فها هو الله القادر على كل شيء قد فصل الأرض عن السماوات والقرآن يبين أدلة ذلك للجميع في قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) والرؤية

هي رؤية القلب، لا رؤية البصر، إذ وقتها لم يكن الكفار على ظهر الحياة حين تم هذا الفتق.

خلق الله كل حيوان من الماء، أي جعل الله من الماء الذي أوجده بفتق السماء عن الأرض، حياة الكائنات الحية، والمراد كانت السماء والأرض ملتزقتين ففصل الله بينهما. هذه هي الأدلة المادية المحسوسة الظاهرة الدالّة على وجود الواحد الصانع القادر المختار بعد الأدلة العقلية والنقلية ومناقشة الكفار السابقة في اتخاذهم شريكا له، وفي هذا لفت لأنظار المشركين إلى جهة الكون وما فيه. أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم، وجحدوا الإخلاص له في العبودية، ما يدلهم دلالة مشاهدة، على أنه الرب المحمود الكريم المعبود، فيشاهدون السماء والأرض فيجدونهما رتقا، هذه ليس فيها سحاب ولا مطر، وهذه هامدة ميتة، لا نبات فيها، ففتقناهما السماء بالمطر، والأرض بالنبات، أليس الذي أوجد في السماء السحاب، بعد أن كان الجو صافيا لا قزعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، وأنبتت من كل زوج بهيج، مختلف الأنواع، متعدد المنافع، أليس هذا دليلا على أنه الله الحق، وما سواه باطل، وأنه محيي الموتى، وأنه الرحمن الرحيم؟ ولهذا قال أفلا يؤمن هؤلاء إيمانا صحيحا، ما فيه شك ولا شرك. ثم عدد تعالى الأدلة الأفقية ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته، أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال، أرساها بها وأوتدها، لئلا تميد بالعباد، أي: لئلا تضطرب، فلا يتمكن العباد من السكون أو العيش فيها ولا حرثها، ولا الاستقرار بها، فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك، من المصالح والمنافع، ما حصل، ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض، قد تتصل اتصالا كثيرا جدا، فلو

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بقيت بحالها، جبالا شامخات، وقللا باذخات، لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان، لكن الله جعلها ذلولا ليمشوا في مناكبها»[1].

وقال الشيخ أبو زهرة [2] - رحمه الله - «فالله يستنكر ويوبخ هؤلاء الكفار الذين لا يؤمنون بالله ولا ينظرون نظرة تأمل وإدراك لما حولهم من الأدلة الواضحة على قدرة ربنا المعبود – سبحانه وتعالى - وينكرون وحدانيته ويثبتون له شريكا من خلقه، وينسبون لله ولدا ظلما وزورا. ألم ير هؤلاء الذين كفروا كمال قدرته، فها هي السماوات والأرض قد كانتا رتقا ففتقناهما لحكم ومصالح المخلوقات، وانظروا كيف جعلنا من الماء الواحد بالذات المشتمل على الأوصاف الكثيرة، والاستفهام له الصدارة دائما، والاستفهام هنا للإنكار عليهم، وبيان عدم وقوع الرؤية التي توصل صاحبها إلى الإيمان بالله لكنهم لم يروا وكان حقهم أن يروا، والآيات تشير إلى أن السماوات والأرض كانتا شيئا واحدا، وكانت السماء الأرض كتلة واحدة، وبعد ذلك تكونت الجبال الرواسي، والسبل الفجاج، وتكوّنت السُحُب والمياه العذبة، والإنسان والحيوان والزروع والثمار، وكانت الأرض، هذا المهاد والفراش، وانتهى أمر الله بأن جعل من الماء كل شيء حي، فكان النبات والحيوان من الماء العذب. ثم قال تعالى: (أفلا يؤمنون) « الفاء» لترتيب التوبيخ بعدم الإيمان على ما

---

١) بتصرف: التفسير الوسيط للزحيلي (١٥٧٧/٢). التفسير الواضح (٥٢٧/٢). تفسير السعدي (ص:٥٢٢).

٢) محمد أحمد مصطفى أحمد المعروف بأبي زهرة، ولد سنة ١٣١٦هـ. المجلة الكبرى, عالم ومفكر وباحث وكاتب مصري من كبار علماء الشريعة الإسلامية والقانون في القرن العشرين, حفظ القرآن صغيرا ودرس وتخرج وبعد تخرُّجه عمل في ميدان التعليم، ثم اختير للتدريس في كلية أصول الدين. ولمَّا ذاع صيته وبرع في مادَّته اختارته كلية الحقوق المصرية للتدريس بها. من أهم كتبه: تفسير زهرة التفاسير, وخاتم النبيين, المعجزة الكبرى, والقرآن الكريم. وغيرها من الكتب النافعة. وتوفي رحمه الله بعد حياة حافلة بالعلم سنة ١٣٩٤هـ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قبلها، و «الفاء» مؤخره عن تقديم، والمعنى: فألا تؤمنون، والاستفهام لإنكار الواقع وهو عدم الإيمان، وإنكار الواقع بمعنى التوبيخ والتعجب من الكفر مع قيام الأدلة على وجوب الإيمان، فالفاء لترتيب التوبيخ على ما بين الله تعالى من خلق السماوات والأرض من خلق الأرض من السماء وخلق الأرض في ستة أيام»[1].

«والذي يعيش مع هذه الآيات يجد أنها جولة في الكون المعروض للأنظار، لكن بعض القلوب غافلة عن آياته الكبار، وفيها ما يحير اللب حين يتأمله بالبصيرة المفتوحة والقلب الواعي والحس اليقظ وتقريره أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقتا، مسألة جديرة بالتأمل، كلما تقدمت النظريات الفلكية في محاولة تفسير الظواهر الكونية، فحامت حول هذه الحقيقة التي أوردها القرآن الكريم منذ أكثر من ثلاث مائة وألف عام. ونحن أصحاب العقيدة الصحيحة لا نحاول أن نحمل النص القرآني المستيقن على نظرية غير مستيقنة، تقبل اليوم وترفض غدا.

فالقرآن أحيانا يشير إلى حقائق كونية كهذه الحقيقة التي يقررها هنا ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ فالسماوات والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله بقدرته ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها في القرآن. وإن كنا لا نعرف منه كيف كان فتق السماوات والأرض. أو فتق السماوات عن الأرض. ونتقبل النظريات الفلكية التي لا تخالف هذه الحقيقة المجملة التي قررها القرآن. ولكننا لا نجري بالنص القرآني وراء أية نظرية فلكية، ولا نطلب تصديقا للقرآن في نظريات البشر. وهو حقيقة

١) بتصرف: الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية (١/٥٣٢). زهرة التفاسير (٩/ ٤٨٥٥).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مستيقنة! أما شطر الآية الأخير (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) فيقرر كذلك حقيقة خطيرة. يعد العلماء كشفها وتقريرها أمراً عظيماً، وهي حقيقة تثير الانتباه حقا. ومنذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا كان القرآن الكريم - ولا زال - يوجه أنظار الكفار إلى عجائب صنع الله في الكون، ويستنكر ألا يؤمنوا بها وهم يرونها مبثوثة في الوجود: «أفلا يؤمنون؟» وكل ما حولهم في الكون يقود إلى الإيمان بالخالق المدبر الحكيم؟ ثم يمضي في عرض مشاهد الكون الهائلة: «(وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) فيقرر أن هذه الجبال الرواسي تحفظ توازن الأرض فلا تميد بهم ولا تضطرب. وحفظ التوازن يتحقق في صور شتى. فقد يكون توازنا بين الضغط الخارجي على الأرض والضغط الداخلي في جوفها، وهو يختلف من بقعة إلى بقعة: وقد يكون بروز الجبال في موضع معادلا لانخفاض الأرض في موضع آخر..

وذكر الفجاج في الجبال وهي الفجوات بين حواجزها العالية، وتتخذ سبلا وطرقا.. ذكر هذه الفجاج هنا مع الإشارة إلى الاهتداء يصور الحقيقة الواقعة أولا، ثم يشير من طرف خفي إلى شأن آخر في عالم العقيدة. فلعلهم يهتدون إلى سبيل يقودهم إلى الإيمان، كما يهتدون في فجاج الجبال»[1].

موضع الالتفات في الالتفات عن الغيبة إلى التكلم.

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا) حيث جاء السياق بصيغة التكلم في قوله: (جعلنا من الماء – وجعلنا في الأرض..) حيث عدل عن

الغيبة في قوله: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا) في قوله: (أو لم ير..) وكان مقتضى الظاهر أن يقال:(وجعل من الماء – وجعل الأرض..) ليتوافق السياق ويكون كله بصيغة الغيبة، لكنه عدل عن ذلك بأسلوب الالتفات عن الغيبة إلى التكلم وذلك لبيان عظمة وقدرة الله التي لا يحدها عقل ولا يصل إلى كُنهها أي مخلوق مهما كان، كما يبين الله لجميع المخلوقات بنون المتكلم الدالة على العظمة بأنه لا يقدر على هذه الأشياء إلا خالقها وهو الله وهذا يُوجب عليهم الإيمان بالله الخالق القادر – سبحانه وتعالى-.

سبب الالتفات في الالتفات عن الغيبة إلى التكلم:

قلت: إن المتأمل في الآية يجد أن سبب هذا العدول هو بيان عظمة الله ومدى قدرته - جل وعلا - التي لا يصل إليها عقل مهما كان، ومهما أوتي من خبرة أو قدرة، وذلك لأن قدرة أي مخلوق محدودة بحدود، كما يوضح السياق لأصحاب العقول من جميع المخلوقات أنه كان من الواجب عليهم عندما يروا هذه الآيات الدالّة على عظمة الله وقدرته، كان يتوجب عليهم الإيمان بالله الخالق القادر الذي يرون قدرته بنظرهم دائما لكنهم لم يستخدموا عقولهم للوصول للإيمان بالله الخالق القادر العزيز الحكيم – جلّ في علاه – وكل هذا من باب الامتنان عليهم ليؤمنوا.

أراء العلماء في الالتفات عن الغيبة إلى التكلم:

في قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ) هنا التفات وذلك أن الله سبحانه أخذ في تعداد نعمه على خُلّص عباده امتنانا عليهم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتنبيها لهم كي يتفطنوا منها بوحدة ذاته وكمال قدرته وبسطته فقال وجعلنا. والاستفهام في الآية الأولى إنكاري، توجه الإنكار على إهمالهم للنظر في ملكوت الله النظر الذي يجعل صاحبه يهتدي للحق، والرؤية هنا تحتمل أن تكون بصرية وأن تكون علمية. والاستفهام صالح لأن يتوجه إلى كلتيهما لأن إهمال النظر في المشاهدات الدالة على علم ما ينقذ علمه من التورط في العقائد الضالة حقيق بالإنكار، وإنكار إعمال الفكر في دلالة الأشياء على لوازمها حتى لا يقع أحد في الضلال جدير أيضا بالإنكار.

ثم إن قوله تعالى كانتا يحتمل أن تكونا معا رتقا واحدا بأن تكون السماوات والأرض جسما ملتئما متصلا. ويحتمل أن تكون كل سماء رتقا على حدتها، والأرض رتقا على حدتها وكذلك الاحتمال في قوله تعالى ففتقناهما.

وإنما لم يقل نحو: فصارتا فتقا، لأن الرتق متمكن منهما أشد تمكن كما قلنا ليستدل به على عظيم القدرة في فتقهما، ولدلالة الفعل على حدثان الفتق إيماء إلى حدوث الموجودات كلها وأن ليس منها أزلي»[1].

قال أبو السعود: (وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ) أي خلقنا من الماء كل حيوان وذلك لأنه من أعظم مواده أو لفرط احتياجه إليه وانتفاعه به أو صيرنا كل شيء حي من الماء أي بسبب منه لا بد له من ذلك وتقديم المفعول الثاني للاهتمام به والتقديم على المفعول للاهتمام به والتشوق إلى المؤخر. وفي {أفلا يؤمنون} إنكار لعدم إيمانهم بالله وحده مع ظهور ما يوجبه حتما من الآيات الآفافية والأنفسية الدالة على تفرده عز وجل بالألوهية وعلى كون ما سواه من مخلوقاته مقهورة تحت ملكوته وقدرته. {وجعلنا في الأرض رواسي} أي جبالا ثوابت جمع راسية من رسا الشيء.

---

١) بتصرف: الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية (٥٣٢/١). التحرير والتنوير (٥٣/١٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتكرير الفعل جعلنا الذي بصيغة المتكلم لاختلاف المجعولين ولتوفية مقام الامتنان حقه لعلهم يهتدون ويصلون إلى معرفة ما ينفعهم في مصالحهم ومهماتهم»[1]. وهذا ما يدل عليه الالتفات إلى التكلم.

«فكأن القرآن يقول أعموا عن هذه الآيات التي نُبِّهوا إليها، وامتنعوا عن الإيمان؟ فكان يجب عليهم أن يلتفتوا إلى هذه الآيات العجيبة والنافعة لهم، كيف والبشر الآن يقفون أمام مخترع أو آله حديثة أو حتى لعبة تبهرهم فيقولون: من فعل هذه؟ ويؤرخون له ولحياته. فمن الأولى أن نلتفت إلى الخالق العظيم الذي أبدع لنا هذا الكون، فالانصراف - إذن - عن آيات الله والإعراض عنها حالة غير طبيعية لا تليق بأصحاب العقول»[2].

وأرى من خلال ما سبق: أن الله- سبحانه وتعالى- ساق الدليل على وحدانيته وعظيم قدرته بصيغة المتكلم المعظّم نفسه، لتأييد ما مضى من الآيات الدالة على عظمته ووحدانيته. والقرآن غالبا ما يجنح للأدلة الكونية المنظورة الظاهرة، ويلفت النظر إلى ما في هذا الكون من عجائب صنعته حتى يعتبر الناس كلهم، لكن الجاهل الغير موَفّق إذا رأى ما فيه ببصره، وسمع بأذنه أو لمس بيده لا يؤمن ولا يعتبر، وأما العالم فإنه بمجرد أن يرى ويحس بما حوله يصل إلى الإيمان بالله الخالق، ويعلم من أسرار وقضايا علمية، ونظريات كونية، فسبحان من هذا كلامه.

****

١) بتصرف: تفسير أبي السعود (٦٥/٦).

٢) تفسير الشعراوي (٩٥٢٦/١٥).

المطلب الخامس: الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۚ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [سورة الأنبياء: ٤٢].

قلت: بعد أن أوضح الله – تبارك وتعالى – شأن الكفار وما آلَ إليه حالهم في الآخرة من العذاب الأليم، لما قاموا به في الدنيا من معاداتهم للأنبياء ولما جاءوا به من عند الله من الوحي وما أنزل على الرسل من الكتب، ومن ثم كفروا بالله وعادوا أنبياءه فاستحقوا بذلك ما نزل بهم من العذاب. ثم بين أن هؤلاء الكفار عندما يُبعثون من موتهم ويأمر الله بهم إلى النار في هذا الوقت لا يستطيعون أن يكفوا عن وجوههم النار وهم فيها، ولا عن ظهورهم، جاء السياق متبوعا ببيان أنهم حتى وهم في الدنيا أيضا لا يستطيعون نصر أنفسهم، فلولا أن الله تعالى يحرسهم ويحفظهم بعنايته لما بقوا سالمين في حالهم.

«ثم أردفه ببيان أنهم معرضون لا يتفكرون بالأدلة التي ترشدهم إلى الإيمان بالله وترك عبادة الأصنام، كما أنهم لا يرون آثار قدرة الله في إتيان الأرض من جوانبها، بأخذ الواحد بعد الواحد، وفتح البلاد والقرى حول مكة، وفي ذلك عبرة، فيؤمنوا برسول الله - صلى الله عليه وسلم -. إن من فضل الله ورحمته الحراسة والحفظ للناس من عذاب الله تعالى بالليل حال النوم، وفي النهار حال التصرف في الأمور، ولكن الناس غافلون عن موعظة القرآن ومواعظ ربهم ومعرفته حق عليهم»[1].

١) بتصرف: التفسير المنير للزحيلي (٦١/١٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أمر الله - جل وعلا - نبيه - صلى الله عليه وسلم - في هذه الآية الكريمة أن يقول للمعرضين عن ذكر ربهم: من الذي يكلؤكم أو من هو الذي يحفظكم ويحرسكم بالليل في حال نومكم والنهار في حال تصرفكم في أموركم. فإن الله هو الحارس على كل نفس بالليل والنهار. وصفته هي الرحمة الكبرى، وليس من دونه راعٍ ولا حامٍ. فاسألهم: هل لهم حارس سواه؟

وهو سؤال للإنكار، وللتوبيخ على غفلتهم عن ذكر الله، وهو الذي يكلؤهم بالليل والنهار، ولا راعي لهم سواه: لكنهم معرضون عن ذكر ربهم غافلون عنه، أو عن القرآن الذي هو وحي من الله. وقيل: عن مواعظ ربهم»[1].

والكلاءة هي حفظ الشيء وتبقيته يقال كلأك الله وبلغ بك أكلأ العمر.

والآية الكريمة تفيد أمورا ثلاثة:

«أولها: بيان نعمة الله تعالى عليهم في حفظهم وتبقيتهم مع عظيم جرائمهم في مأوى يسكنون فيه، ويقيهم الحر والبرد، ويمدهم بالغذاء والكساء لحفظ أنفسهم من الموت. وليُبقيهم إلى أجلٍ مسمّى وحتى يقضي الله أمرا كان مفعولا، فهُم في كلاءة الله تعالى المستمرة حتى ينزل بهم ما هم أهل له.

الثاني: ما يضمنه السياق من إنذار شديد لهم، وأن الله تعالى الذي كلأهم هو مسيطر عليهم منزلٌ بهم من الله ما يستحقون، فهو – سبحانه وتعالى - يُمهل ولا يُهمل.

الثالث: أن هذه الوقاية من الرحمن أي عذابه، ووصف سبحانه ذاته العلية بالرحمن، للإشارة إلى أن نزول العذاب بهم بعد هذا الاستهزاء الذي حصل منهم في دنياهم من دواعي رحمته؛ لأن عذاب المجرمين من الرحمة، لأنه

١) بتصرف: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. الشنقيطي (١٥٣/٤). تفسير القرطبي (٢٩١/١١).

إذا كان عذابا للفجار فهو رحمة بالأبرار، فمن الرحمة ألا يسوّى بين المحسن والمسيء.(بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾) والإضراب هنا في (بل) هو إضراب انتقالي من وصف إلى وصف للمشركين، فهم يستهزئون ويجهلون ولا ينتبهون مع وجود المنبه المرشد الذي يرشدهم إلى ربهم، وبذكره لهم، وأثبت أنهم معرضون عن ذكر ربهم[1].

قوله تعالى: (قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ۚ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾) «كأن السياق يقول للنبي – صلى الله عليه وسلم - قل لهؤلاء المستهزئين من الكافرين وهذا القول إنما جاء على سبيل التقريع والتبكيت. {مَن} للاستفهام التقريعي المتضمن للإنكار. {يكلؤكم}؛ أي: يحفظكم ويحرسكم. والكلاء بكسر أولهما حفظ الشيء وإبقائه. والكالىء هو الذي يحفظ.

{بالليل والنهار من الرحمن}؛ أي: من بأسه الذي يستحقون نزوله ليلا أو نهارا من أراد بكم؛ أي: لا يمنعكم من عذابه إلا هو. وفي ذكر {الرحمن} تنبيه على أنه لا كالىء غير رحمته العامة، وأن اندفاعه بمهلته وتقديم الليل لما أن الدواهي أكثر فيه وقوعا، وأشد وقعا. والمعنى: قل يا محمد لأولئك المستهزئين بطريق التقريع والتوبيخ: من يحرسكم ويحفظكم بالليل والنهار، من بأس الرحمن وعذابه، الذي تستحقون حلوله بكم، ونزوله عليكم.

والخلاصة: من يحفظكم بالليل إذا نمتم، وبالنهار إذا تصرفتم في أمور معايشكم، من عذاب الرحمن إن نزل بكم، ومن بأسه إذا حل بساحتكم. لكنهم عن ذكر ربهم وعن القرآن ومواعظه معرضون غافلون لا يتأملون في

١) بتصرف: زهرة التفاسير (٤٨٦٩/٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شيء منها؛ أي: لا يخطرون ذكره تعالى ببالهم، فضلا عن أن يخافوا الله، ويعدوا ما كانوا عليه من الأمن والدعة، حفظا وكلاءة، حتى يسألوا عن الكالىء لهم سبحانه؛ وقيل: دعهم عن هذا السؤال؛ لأنهم لا يصلحون له لإعراضهم عز ذكر الله تعالى، أي إن هؤلاء القوم قد ألهَتهم النِّعم عن المُنعِم، فلا يذكرون الله تعالى حتى يخافوا بأسه، فهم مع وجود الدلائل العقلية، والنقلية، الدالة على أنه تعالى هو الحافظ لهم، معرضون عنها، لا يتأملون فيها. وفي ذكر «الرب» إيماء إلى أنهم خاضعون لسلطانه، وأنهم في ملكوته وتدبيره وجميل رعايته وتربيته، وهم على ذلك معرضون، فهم في الغاية القصوى من الضلال، وفي النهاية الكبرى من الجهل والغباء[1].

قلت: والحاصل: أنه – سبحانه وتعالى -، لما ذكر لنا أن الكفار سيصيبهم على أفعالهم لا محالة مثل ما أصاب الأولين من قبلهم من العذاب جزاء ما فعلوه، أتبع ذلك ببيان أن عدم إصابة ذلك لهم عاجلا في الحياة الدنيا إنما هو بحفظه جلّ وعلا - لهم، حيث أمهلهم – سبحانه - مدة معينة بمقتضى رحمته العامة لهم، ثم أمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - بأن يسألهم عن الكالىء لهم ليقروا وينتبهوا، لكونهم في قبضته وقدرته سبحانه، وذلك ليكفوا عن هذا الاستهزاء، ثم بعد ذلك أضرب بقوله:(بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ) أي: اتركهم ودعهم يا محمد عن هذا السؤال؛ لأنهم لا يصلحون لهذا السؤال لإعراضهم عن ذكر الله، فالله لا يخطر ببالهم حتى يخوفوا بالله، لكن سيأتي الوقت المحدد ليعرفوا أن الحافظ هو الله.

«لما هددهم بما مضى مما قام الدليل على قدرته عليه، وختمه - لوقوفهم

---

١) بتصرف: تفسير حدائق الروح والريحان, الأمين الهرري (٨٦/١٨). تفسير ابن كثير (٣٤٤/٥).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

مع المحسوسات - بما وقع لمن قبلهم، وكان الأمان عن مثل ذلك لا يكون إلا بشيء يوثق به، أمره أن يسألهم عن ذلك بقوله: ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم ﴾ أي يحفظكم ويؤخركم ويكثر رزقكم، وهو استفهام توبيخ. ولما استوى بالنسبة إلى قدرته حذرهم وغفلتهم، قال: {بالليل} أي وأنتم نائمون. ولما كانت مدافعة عذابه سبحانه غير ممكنة لنائم ولا يقظان قال: {والنهار} أي وأنتم مستيقظون. ولما كان لا منعم بكلاية ولا غيرها سواه سبحانه، ذكرهم بذلك بصفة الرحمة فقال: {من الرحمن} الذي لا نعمة بحراسة ولا غيرها إلا منه حتى أمنتم مكْرِه ولو بقطع إحسانه، فكيف إذا ضربتم بسوط جبروته وسطوة قهره. وفي ذكر الرحمن تنبيه على أنه لا كالئ إلا الله، وان اندفاعه بمهلته وتقديم الليل لما أن الدواهي أكثر فيه وقوعا وأشد وقعا»[1].

«فبعد أن سلّى الله الرسول - صلى الله عليه وسلم - على استهزائهم بالوعيد، أمره أن يذكرهم بأن غرورهم بالإمهال من قبل الله رحمة منه بهم كشأنه في الرحمة بمخلوقاته إذا نزل بهم عذابه لا يجدون حافظا لهم من العذاب غيره ولا تمنعهم منه آلهتهم. والاستفهام إنكار وتقريع، أي لا يكلؤكم منه أحد فكيف تجهلون ذلك، وتنبيها لهم إذا نسوا نعمه. وذكر الليل والنهار لاستيعاب الأزمنة كأنه قيل: من يكلؤكم في جميع الأوقات. قدم الليل لأنه زمن المخاوف ولأن الظلام يعين أسباب الضر على الوصول إلى مبتغاها من إنسان وحيوان وعلل الأجسام. وذكر النهار بعده للاستيعاب. ومعنى من الرحمن من بأسه وعذابه. وجيء بعد هذا التفريع بالإضراب في قوله تعالى: بل هم عن ذكر ربهم معرضون، وهو ارتقاء من التقريع المجعول للإصلاح

١) بتصرف: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٤٢٣/١٢). روح البيان, إسماعيل حقي (٤٨٣/٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إلى التأييس من صلاحهم. بأنهم معرضون فلا يرجى منهم الانتفاع بالقوارع، واتركهم حتى إذا تورطوا في العذاب عرفوا أن لا كالىء لهم[1].

موضع الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى: (بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ) بصيغة الغيبة في قوله (هم – ربهم) بعد أن كان بصيغة الخطاب في قوله تعالى:(قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ) في قوله: (قل من يكلؤكم..) حيث جاء السياق بصيغة الخطاب وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (بل أنتم عن ذكر ربكم..) ليتوافق السياق ويكون كله بصيغة الخطاب، لكنه عدل عن ذلك بطريق الالتفات للإنكار عليهم وتوبيخهم لأنهم تركوا عبادة ربهم الذي هو حافظ لهم في حال نومهم أو حال استيقاظهم، وهاهم يعيشون في هذه النعم ويعبدون غيره فكان من المناسب أن لا يخاطبهم إذ في الخطاب تشريف للمخاطَب وهم لا يستحقون هذا الشرف.

سبب الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

قلت: إن المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب هذا العدول إلى الغيبة هو عدم استحقاق الكفار لشرف الخطاب لأن مخاطبتهم فيه أُنسٌ وشرف لكن الكفار نظرا لما قاموا به من عبادة غير الله المُنعِم عليهم لا يستحقون هذا الشرف العظيم فكان الأولى في حقهم أن يُذكروا بضمير الغائب.

أراء العلماء في الالتفات في هذا الموضع:

قال بعض العلماء - رحمهم الله - «وقد وجه الخطاب إليهم ابتداء بقوله تعالى: قل من يكلؤكم، ثم أعرض عنهم من طريق الخطاب إلى طريق الغيبة

١) بتصرف: التحرير والتنوير (٧٣/١٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لأن ما وجه إليهم من إنكار أن يكلأهم أحد من عذاب الله جعلهم أحرياء بالإعراض عنهم.

(بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾) الإضراب هنا إضراب انتقالي من وصف إلى وصف للمشركين، فهم يستهزئون ويجهلون ولا ينتبهون مع وجود المنبه المرشد الذي يرشدهم إلى ربهم، وبذكره لهم، وأثبت أنهم معرضون عن ذكر ربهم أي تذكره، فـ (ذكر ربهم) من إضافة المصدر للمفعول، وهم في غفلة مستمرة عنه، مع أنه خالقهم وحافظهم وفي كل حياتهم ما يذكرهم، والجملة الاسمية مؤكدة لاستمرار الإعراض، وقلوبهم غلف لا تفتح لذكره سبحانه وذكر آلائه ونعمه، وهنا أمران بيانيان: أولهما: أن الله تعالى في ذكر نعمة الكلاءة من عذاب الرحمن، وقد ذكر الليل قبل النهار؛ لأن المفاجآت بالعذاب تكون فيه أكثر، ووقعها أشد، ولأن الليل حيث يكون الاطمئنان فالمباغتة تكون فيه أشد.

ثانيهما: أن الاستفهام هنا للتذكير والتنبيه، إلى ما هم فيه من نعم واقية، وإيجابية[1].

وقال الأستاذ عبد العظيم المطعني[2]: «وسر العدول عن مخاطبتهم إلى الحديث بضمير الغيبة إيماءٌ لطيف إلى أنهم كما اعرضوا عن الداعي - الذي هو

---

١) بتصرف: زهرة التفاسير (٤٨٦٩/٩). التحرير والتنوير (٧٥/١٧).

٢) هو الدكتور عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني: داعية إسلامي مصري معاصر، قدم إضافات ثمينة إلى المكتبة العربية في مجال تخصصه الأصلي وهو البلاغة العربية. من مواليد مايو ١٩٣١ بجزيرة المنصورية التابعة لمحافظة أسوان، بجمهورية مصر العربية. حصل على الابتدائية ثم الثانوية ثم الالتحاق بكلية اللغة العربية، حصل على الماجستير، ثم الدكتوراه، شارك في الندوات والمؤتمرات حول القضايا الإسلامية. من أهم كتبه: الجامع في دفع الشبهات المثارة حول السنة النبوية، والإسلام في مواجهة الأيديولوجيات المعاصرة، و التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم. وغيرها. توفي رحمه الله سنة ١٤٢٩هـ الموافق ٢٠٠٨م.

النبي محمد – صلى الله عليه وسلم - اعرض عنهم في الخطاب بأن يذكرهم بضمير الخطاب وفي خطابهم تشريف لهم وهو غير مقصود هنا والمعرض غائب عن العين»[1].

«من الرحمن أي من بأسه وعذابه بل هم معرضون عن ذكره لا يخطرونه ببالهم، فضلا أن يخافوا بأسه، حتى إذا رزقوا الكلاءة منه عرفوا من الحافظ لهم وصلحوا للسؤال عنه. والمراد أنه أمر رسوله عليه الصلاة والسلام بسؤالهم عن الكالئ، ثم بين بطريق الالتفات أنهم لا يصلحون لذلك لإعراضهم عن ذكر من يكلؤهم»[2].

«وهذا تهديد وإقامة للحجة عليهم لأنهم لو أجابوا عن هذا السؤال لاعترفوا بأنه ليس لهم مانع ولا حافظ غيره تعالى- يعني لما جربوه في أحوال محنتهم- ثم قال: (بل هم عن ذكر ربهم معرضون)، بمعنى أنهم، إذا سئلوا ذلك السؤال، لم يجيبوا عنه، لأنهم تقوم عليهم الحجة إن أجابوا، ولكنهم يعرضون عن ذكر الله»[3].

«ولما كان الجواب قطعا: ليس لهم من يكلؤهم منه وهو معنى الاستفهام الإنكاري، قال مضربا عنه: {بل هم} أي في أمنهم من سطواته {عن ذكر ربهم} الذي لا يحسن إليهم غيره {معرضون} فهم لا يذكرون أصلا فضلا عن أن يخشوا بأسه وهم يدعون أنهم أشكر الناس للإحسان»[4].

---

١) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم (٣٦٦/٢). الناشر: مكتبة وهبة - القاهرة - مصر الطبعة : الثالثة ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

٢) بتصرف: تفسير الزمخشري (١١٨/٣).

٣) بتصرف: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد, أحمد بن محمد بن عجيبة (٤٦٤/٣). روح البيان (٤٨٣/٥).

٤) بتصرف: نظم الدرر البقاعي (٤٢٤/١٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«فبعد ما أمر عليه السلام بما ذكر من السؤال على الوجه المذكور حسبما تقتضيه حالهم لأنهم بحيث لولا أن الله تعالى يحفظهم لحل بهم فنون الآفات فهم أحرى بأن يكلفوا الاعتراف بذلك فيوبخوا على ما هم عليه من الإشراك، لذا أضرب عن ذلك بقوله تعالى {بل هم عن ذكر ربهم معرضون} ببيان أن لهم حالا أخرى مقتضية لصرف الخطاب عنهم هي أنهم لا يخطرون ذكره تعالى ببالهم فضلا أن يخافوا بأسه ويعدّوا ما كانوا عليه من الأمن والدعة حفظا وكلاءة حتى يسألوا عن الكالئ - سبحانه -. وفي تعليق الإعراض بذكره تعالى وإيراد اسم الرب المضاف إلى ضميرهم المنبئ عن كونهم تحت ملكوته وتدبيره وتربيته تعالى من الدلالة على كونهم في الغاية القاصية من الضلالة والغي مالا يخفى»[1].

(بل هم عن ذكر) أي إن هؤلاء القوم قد ألهتهم النعم عن المنعم، فلا يذكرون الله حتى يخافوا بأسه. وخلاصة ذلك- إنهم على وجود الدلائل العقلية والنقلية الدالة على أنه تعالى هو الكالئ الحافظ- معرضون عنها، لا يتأملون فيها.

وفى ذكر (الرب) إيماء إلى أنهم خاضعون لسلطانه، وأنهم في ملكوته وتدبيره، وجميل رعايته وتربيته، وهم على ذلك معرضون، فهم في الغاية القصوى من الضلال وفى النهاية من الجهل والغباء. كما أن فيه إشارة إلى أن هؤلاء المشركون، قد شغلوا بما هم فيه من لهو ومتاع، وأنهم لهذا لا يذكرون الله، وأنه إذا جاءهم من يذكرهم بالله، ويعرض عليهم آياته وكلماته، أعرضوا، وسفهوا.. وذلك غاية في الضلال والخسران فأعرض الله عنهم وذكرهم بضمير الغيبة»[2].

١) بتصرف: تفسير أبي السعود (٦٩/٦).

٢) بتصرف: تفسير المراغي (٣٧/١٧). التفسير القرآني للقرآن, عبد الكريم الخطيب (٩٠٢/٩).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قلت: والخلاصة في موضع الالتفات هنا هو قوله (بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم) بلفظ الغيبة بعد أن كان بلفظ الخطاب في قوله: (قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم) ومجيء الموضع بهذا الشكل هو للتنبيه على ما هو أهم مما تقدم، فالمعنى إنّ الأمن والحفظ لكم أيها الناس من السوء هو أمر مهم للغاية لا ينبغي التغافل عنه ولا نسيانه، وكان ينبغي عليكم النظر الدائم إلى الحافظ لكم سبحانه، فلمّا كان انشغالهم بالحفظ أكثر من انشغالهم بالحافظ سبحانه كان جديرا أن يقابله صرف الكلام عنهم مباشرة وتحويله إلى لفظ الغيبة حتى تصح المقابلة وهي هنا المجهول بالمجهول.

ولو عدنا إلى سياق الآيات التي اكتنفت هذا الموضع لَتَبيَّن لنا انسجام مجيء الكلام على طريقة الالتفات البلاغية من الخطاب إلى الغائب، ذلك لأن الآيات المذكورة أشارت في مجملها ومفصلها إلى أنهم كافرون معرضون من ذكر الرحمن، فهؤلاء الكفار مشغولون بمسائل إذا ما قورنت بانشغالهم عن الله وما يصاحبه من إيمان وأعمال استوجب السخرية من صنيعهم هذا، لذا حَسُن الالتفات في هذا الموضع كي تتم المقابلة كما بيّنّاه سابقاً.

****

المطلب السادس: الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

قال تعالى: (إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾) [سورة الأنبياء: ٩٢ – ٩٣].

المعنى العام للآيات:

قلت: إن الله – سبحانه وتعالى - يخبر في هاتين الآيتين عن أن دين الإنسانية جميعاً هو دين واحد، لذا يقول: (إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ) والأمة هنا مقصودٌ بها الملّة ملّة التوحيد أو ملّة الإسلام، ويبين أنها ملة واحدة وشريعة واحدة من عند الله، وهذا متفق عليه بين جميع الأنبياء بل وجميع الشرائع، وهذه الملة هي التي يجب أن يكون عليها الناس، لذا أمرنا أن نكون عليها أمة واحدة غير مختلفة كما كانت الوحدة هذه بين الأنبياء، ثم يقول وأنا الله الذي لا إله غيري فاعبدوني وحدي ولا تشركون بي، كذلك يجب أن لا تشركوا معي شيئا آخر، سواء كان ملكاً أو حجراً أو بشراً أو صنماً أو شجراً. والمعنى: أن البشر جعلوا أمر دينهم قطعا فيما بينهم وتركوه، وذلك كما يتوزع الشيء على الجماعة ويتقاسمونه فيما بينهم، ومن ثم يصير لهذا نصيب، ولهذا نصيب، وذلك تمثيلا لكثرة اختلافهم فيه، وصاروا فرقا وأحزابا شتى. وهذا التفرق في أمر هذا الدين الواحد شنيع معيب، ولهذا قال تعالى متوعدا على فعلهم الشنيع هذا: (كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ) أي أن كل فرقة منهم سترجع إلينا في الآخرة يوم القيامة، فنجازي كل واحد منهم إن خيرا فخير وإن شرا فشر، بحسب عمله

www.alukah.net
شبكة الألوكة

في هذا الدين. وإن طريق الجزاء في الدنيا الآخرة ومنهاجه هو وحدة الرسالات السماوية: فالأنبياء كلهم متفقون على التوحيد، لذا وجب اتفاق البشر قاطبة على أن الإله واحد لا شريك له، وعلى وجوب إفراده بالعبادة. لكن المشركون خالفوا كل الأنبياء.

«وأما الاختلاف في الدين بين مصدق ومكذب: فهي ظاهرة شائعة، لذا نعى الله تعالى التفرق في أمر الدين، سواء المسلمين أو اليهود والنصارى وغيرهم من المشركين، وذمهم لمخالفتهم الحق الذي هو التوحيد والوحدة عليه، كما ندد الله بغير المسلمين اتخاذهم الآلهة من دون الله، فيكون المراد بقوله: وتقطعوا أمرهم بينهم جميع الخلق، بأن جعلوا أمرهم في أديانهم قِطَعا، وتقاسموه بينهم، فمن مُوحِّدٍ، ومن يهودي، ومن نصراني، ومن عابدٍ لملك أو لصنم. والكل من هؤلاء الفرق المختلفة راجع إلى حكم الله فيجازيهم بما ذكره - جل وعلا - في هاتين الآيتين الكريمتين من أن الدين واحد، والرب واحد فلا داعي للاختلاف. وأنهم مع ذلك اختلفوا أو صاروا فرقا وكل حزب من الأحزاب المختلفة فرحون بما عندهم»[1].

قوله تعالى: (إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً) الإشارة بـ (هذه) إلى الجماعات الماضية رسلا مبشرين ومنذرين وأقوام بعثوا إليهم وعاندوهم أو وافقوهم فيما جاءوهم به من الشرع. والخطاب هنا مقصود به الذين بُعث فيهم النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -، و الأمة الواحدة حال باعتبار الوصف بالوحدة، والمعنى إن هذه الجماعات التي مضت برسلها المصطفين الأخيار حالة كونها أمة واحدة هي أمتكم معشر المخاطبين، ومعنى السياق أن الناس

١) بتصرف: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٢٤٦/٤). التفسير المنير للزحيلي (١٢٨/١٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

جميعا أمة واحدة في كونهم مؤمنين، وكافرين، ومستقيمين ومنحرفين، وأمة واحدة فيما طبعه الله عليها، وجبلها على الصفات الإنسانية الواحدة، ما بين ملهمين التقوى وملهمين الفجور، والرسل المختارون يدعون الأبرار والفجار، فيستقيم على الطريقة المثلى الأبرار، وينحرف عن الجادة الأشرار. فبعد أن بين سبحانه وحدة البشرية في الطبائع والجِبِلّات بين وحدة الرسالة، ووحدة الألوهية والربوبية، فقال: (وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ) أي أنا خالقكم والقائم عليكم والحافظ لكم، لذا يجب عليكم أن تعبدون.

ثم إنه نتج عن هذه الوحدة في الجبلة، وتنوع الغرائز وتضاربها وتغالبها، وتنازع الأهواء والشهوات أن تنازع الناس، وإن اختلفت منازعهم ما بين مهتد رشيد، ومنحرف عنيد؛ فقال: (وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾)تفرقوا وتمزقوا، وفرقا متباينة: فهذا مهتدٍ، وهذا ضالّ، وقد نتج هذا من الوحدة في الطبائع والغرائز، ففي الغرائز حب الغلب، وفي الغرائز حب السيطرة، وفي الغرائز الشهوات، وإنها إن اختلفت في أصلها ومنبعها تفترق في نزوعها واتجاهاتها.

كذلك هنا كانت وحدة الأمة الإنسانية في أصول الغرائز وينابيع النفس سببا في الاختلاف وتقطع الأمر وتفرقه، وعبر سبحانه عن تفرق الإنسانية بـ « تقطع « للإشارة إلى أن الجسم الإنساني واحد وقد تقطع أجزاء، فهو تأكيد لأصل الوحدة، وقوله تعالى: (أمرهم) أي الأمر الجامع بينهم، وهو أصل الوحدة ووحدة الغرائز وجماعتهم الجامعة، قطعوها بين غالب ومغلوب ومسيطِر ومسيطَرٍ عليه.

ثم بين سبحانه وتعالى أنه كما ابتدأوا وحدة يعودون إلى الله تعالى مجتمعين

www.alukah.net
شبكة الألوكة

في المحشر؛ ولذا قال تعالى: (كل إلينا راجعون) فتقديم الجار والمجرور للدلالة على الاختصاص، أي راجعون إلينا وحدنا لا إلى غيرنا»[1].

قوله: (إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ) «أي ملتكم ملة واحدة، وأنا ربكم فاعبدون دون الآلهة والأوثان وسائر ما تعبدون من دوني وتفرق الناس في دينهم الذي أمرهم الله به ودعاهم إليه، فصاروا فيه أحزابا، فهودت اليهود، وتنصرت النصارى وعبدت الأوثان، وتقطعوا أمرهم حتى اختلفوا في الدين فصاروا فرقا وأحزابا، لذا قيل فرقوا دينهم بينهم أي لعن بعضهم بعضا، وتبرأ بعضهم من بعض، والتقطع هاهنا بمعنى التقطيع. ثم أخبر جل ثناؤه عما هم إليه صائرون، وأن مرجع جميع أهل الأديان إليه، متوعدا بذلك أهل الزيغ منهم والضلال، وأنه لهم بالمرصاد، وأنه مجاز جميعهم.

وهذه الآية: بينت للجميع ما يتقون وما يأتون وأمتكم هنا قيل بمعنى سنتكم سنة واحدة. أو الشريعة فيكون المعنى: إن شريعتكم التي بُيّنت لكم ووُضحت لكم كلها واحدة. {وتقطعوا أمرهم بينهم} أي: اختلفت الأمم على رسلها، فمن بين مصدّق لهم ومكذّب؛ لكن الجميع سيرجعون إلينا يوم القيامة، فيجازى كل بحسب عمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر»[2].

موضع الالتفات في الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة.

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى: (وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ)حيث جاء السياق بصيغة الغيبة في قوله: (وتقطعوا أمرهم بينهم..) حيث عدل عن الخطاب في قوله: (إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ) في قوله: (أمتكم..) وكان مقتضى الظاهر أن يقال:(وتقطعتم أمركم بينكم..) ليتوافق السياق ويكون

١) بتصرف: زهرة التفاسير (٩/ ٤٩١٣).

٢) بتصرف: تفسير الطبري (٥٢٣/١٨). تفسير البغوي (٣١٦/٣). تفسير ابن كثير (٣٧١/٥).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

كله بصيغة الخطاب، لكنه عدل عن ذلك بأسلوب الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة وذلك لبيان أن التفرقة وعدم الوحدة لا يحبها الله وإعطاء الدرس لمن يتفرقوا في الدين ولا يتبعون الرسل وما جاءوا به إعطائهم الدرس القاسي بالإعراض عنهم وعدم تشريفهم بمخاطبتهم بصيغة الخطاب، فناسب هذا الإعراض أن يأتي بصيغة الغائب.

سبب الالتفات في الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

قلت: إن المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب هذا العدول من الخطاب إلى الغيبة يجد أن الله يكره للناس التفرق في دينهم وأن التفرق سبب الضعف، وأن التفرق دليل على فسادهم وقبيح فعلهم، لذلك استهانة من الله بهؤلاء الذين تفرقوا وقطّعوا دينهم وتحزّبوا لم يخاطبهم بل أعرض عنهم لبيان أنهم على ضلال وفساد فكان الأجدر والأحرى أن يأتي السياق القرآني بصيغة الغائب بدل من الخطاب الذي يدل على التشريف لمن يخاطبهم.

أراء العلماء في الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

موضع الشاهد قوله تعالى وتقطعوا بصيغة الغيبة بعد أن كان بصيغة الخطاب في قوله أمتكم ربكم ومقتضى الظاهر أن يقال وتقطعتم وفي سبب العدول قيل للتربية وإعطاء الدرس ففي الوحدة قوة وفي التفرق ضعف.

قال الفخر الرازي: « أما قوله تعالى: وتقطعوا أمرهم بينهم والأصل وتقطعتم إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة على طريق الالتفات كأنه ينقل عنهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء، والمعنى جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا كما تتوزع الجماعة الشيء ويقسمونه فيصير لهذا نصيب ولذلك نصيب تمثيلا لاختلافهم فيه

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وصيرورتهم فرقا وأحزابا شتى»[1].

وقال الألوسي وغيره: «ثم أصل الكلام وتقطعتم أمركم بينهم على الخطاب فالتفت إلى الغيبة لينعى عليهم ما فعلوا من التفرق في الدين وجعله قطعا موزعة وينهي ذلك إلى الآخرين كأنه قيل ألا ترون إلى عظم ما ارتكب هؤلاء في دين الله تعالى الذي أجمعت عليه كافة الأنبياء عليهم السلام وفي ذلك ذم للاختلاف في الأصول، وبيان أن كل واحدة من الفرق المتقطعة أو كل واحد من آحاد كل واحدة من تلك الفرق إلينا راجعون بالبعث لا إلى غيرنا فنجازيهم حينئذ بحسب أعمالهم، ولا يخفى ما في الجملة من الدلالة على الثبوت والتحقق وتقطعوا بصيغة الغائب حيث عدل عن صيغة الخطاب في قوله أمتكم وربكم فاعبدون واتقون ونكتة العدول هذا توبيخ وتقبيح لما يقدم عليه المخاطبون من التنازع والتشرذم والتحزب وغير ذلك»[2].

«والخطاب للناس كافة. وتقطعوا أمرهم، أصل الكلام: وتقطعتم في أمر دينكم وتفرقتم. إلا أن الكلام صرف إلى الغيبة، على طريقة الالتفات لينعي عليهم ما أفسدوه في الدين. والمعنى: فجعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعا، وصاروا أحزابا متفرقة، كأنه ينهي إلى أهل التوحيد قبائح أفعالهم»[3].

«تقطعوا أمرهم بينهم صرفه إلى الغيبة التفاتا لينعى على الذين تفرقوا في الدين وجعلوا أمره قطعا موزعة بقبيح فعلهم إلى غيرهم. كل من الفرق المتحزبة. إلينا راجعون فنجازيهم»[4].قال ابن عاشور «وتقطعوا وضمائر

١) تفسير الرازي (١٨٣/٢٢).

٢) بتصرف: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني, شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي(٨٦/٩). تحقيق: علي عبد الباري عطية, الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت, الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية (ص: ١١٣). وما بعدها

٣) بتصرف: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد, ابن عجيبة (٤٩٦/٣). تفسير الزمخشري (١٣٤/٣).

٤) بتصرف: تفسير البيضاوي (٦٠/٤).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الغيبة عائدة إلى مفهوم من المقام وهم الذين من الشأن التحدث عنهم في القرآن المكي بمثل هذه المذامّ، وهم المشركون. ومثل هذه الضمائر المراد منها المشركون كثير في القرآن. ويجوز أن تكون الضمائر عائدة إلى أمم الرسل. فعلى الوجه الأول الذي قدمناه في ضمائر الخطاب في قوله تعالى: (وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ) يكون الكلام انتقالا من الحكاية عن الرسل إلى الحكاية عن حال أممهم في حياتهم أو الذين جاءوا بعدهم مثل اليهود والنصارى إذ نقضوا وصايا أنبيائهم. وعلى الوجه الثاني تكون ضمائر الغيبة التفاتا. وزيادة بينهم لإفادة أنهم تعاونوا وتظاهروا على تقطع أمرهم»[1].

«ولما كان من المعلوم أنهم لم يفعلوا، أعرض إلى أسلوب الغيبة إيذانا بالغضب، فكان التقدير في جواب من كأنه قال: ما فعلوا؟: لم يطيعوا أمري في الاجتماع على ما جمعتهم عليه من عبادتي التي هي سبب لجلب كل خير، ودفع كل ضير ولا افتدوا في ذلك بالكمل من عبادي، فعطف عليه قوله {وتقطعوا} أي مخالفة للأمر بالاجتماع ولما كان الدين الحق من الجلاء والعظمة والملاءمة للنفوس بحيث لا يجهله ولا يأباه أحد نصح لنفسه وإن جهله، كفى أدنى تنبيه في المبادرة إليه وترك ما سواه كائنا ما كان، فكان خروج الإنسان عنه بعد أن كان عليه في غاية البعد فضلا عن أن يتكلف ذلك بمنازعة غيره المؤدية إلى الافتراق والتباغض ولا سيما إن كان ذلك الغير قريبه أو صديقه، وكانت صيغة التفعل من القطع صريحة في التفرق، وتفيد العلاج والتكلف، وكانت تأتي بمعنى التفعيل والاستفعال، عبر بها»[2].

قال الزمخشري : (والأصل: وتقطعتم، إلا ان الكلام حُرف إلى الغيبة على

١) بتصرف: التحرير والتنوير (١٤١/١٧).

٢) بتصرف: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور, البقاعي (٤٧٨/١٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

طريقة الالتفات، كأنه ينعى عليهم ما أفسدوه إلى آخرين ويقبح عندهم فعلهم ويقول لهم: ألاّ ترون إلى عظيم ما أرتكب هؤلاء في دين الله، والمعنى: جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً، كما يتوزع الجماعة الشيء ويتقسمونه فيصير لهذا نصيب ولذلك نصيب تمثيلاً لاختلافهم فيه وصيرورتهم فرقاً وأحزاباً شتى ثم توعدهم بأنّ هؤلاء الفرق مختلفة إليه يرجعون، فهو محاسبهم ومجازيهم، وتقطعوا أمرهم بينهم التفات من الخطاب إلى الغيبة كأنه ينقل عنهم ما أفسدوه إلى آخرين للتقبيح، واستعارة تمثيلية، مثل اختلافهم في الدين وتفرقهم أحزابا بالجماعة التي تتوزع الشيء أنصباء[1].

وقال الزركشي: والأصل [فقطعتم] عطفا على ما قبله لكن عدل من الخطاب إلى الغيبة فقيل إنه سبحانه نعى عليهم ما أفسدوه من أمر دينهم إلى قوم آخرين ووبخهم عليه قائلا: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكب هؤلاء في دين الله...)[2].

«والذي يبدو لي أن غاية هذا الالتفات هو التوبيخ والتقريع لما قاموا به، وكأن قُبح فعلهم صار مسوغاً لهذا التوبيخ، وإذا تأملنا الآيات القرآنية السابقة لهذا الموضع نجد أن الله تعالى قد قصَّ ما حصل للأنبياء والرسل من معاداة واستهزاء بهم من أقوامهم الذين كفروا بالله وتقطعوا أمرهم بينهم، لأنهم كانوا على الحق المبين والصراط المستقيم فبدأ بإبراهيم - عليه السلام - ثم لوط ونوح «عليهما السلام» ثم داود وسليمان «عليهما السلام» ثم أيوب

١) بتصرف: تفسير الكشاف، الزمخشري (٢/٥٨٣). تفسير البيضاوي (٣/٩٠). التفسير المنير للزحيلي (١٢٧/١٧).

٢) البرهان في علوم القرآن (٣/ ٣١٩). البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م. تفسير القرطبي (١١/٣٣٩). والبحر المحيط (٧/٤٣٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وهكذا حتى إذا انتهى من قصصهم وظهر صدق دعوتهم وبطلان عدوهم قال: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ فاذا حصل التفرق بعد كل هذا البيان لهذا الدين من خلال تلك القصص وما جرى فيها من حوادث، فان ذلك يستوجب التوبيخ الشديد ولاسيما أن ما حصل من التفرق ليس بالأمر السهل ولا الهيّن بل هو من أقبح الأفعال التي تؤدي إلى هلاك الأمم. لذا أرى ان التوبيخ هو الغرض من هذا الالتفات[1].

والخلاصة: فإن العدول عن الخطاب إلى الغيبة وقد جمع هذا الموضع من العلل الكثيرة والغايات المثيرة التي انطوت عليها الآية، فهو توبيخ لهم على ما فعلوه من تقطيع أمر دينهم إلى أحزاب شتى، وهو تقبيح لفعلهم هذا، لذا كان الالتفات أصلاً فيه إذ أريد إظهار قبح هذا الفعل لدى الجميع فالتفت عنهم إلى الغيبة لينعى عليهم مثل هذا الفعل، كأن الأمر أو الفعل صادر من غيرهم.

****

١) تنوع صور الالتفات في القرآن (ص: ١٥٣).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المطلب السابع: الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [سورة الأنبياء: ١١١- ١١٢].

المعنى العام للآية الكريمة:

قلت: جاء الحديث في الآيات: عن أمر الله – سبحانه وتعالى – للنبي – صلى الله عليه وسلم – بأن يبلغ الناس ما يوحى إليه من الشرع الذي أرسله الله به في القرآن، وأهم ما أُرسل به الأنبياء وآخرهم محمد – صلى الله عليه وسلم - هو عقيدة التوحيد وأن إلههم واحد لا شريك له فلا يُعبد سواه، وعليهم أن يُسلّموا بذلك ويسلموا أنفسهم له وحده، فإن هم امتنعوا عن ذلك فما عليك أيها الرسول إلا البلاغ عن ربك لمن أُرسلت إليهم، وأخبرهم أنك قد أعلمتهم بالأمر، وأبلغتهم وحي الله، وبتكذيبهم صار بيننا حرب لا هوادة فيها، وبلا صلح بيننا حتى تؤمنوا بالله وحد، فإن توليتم فلا أدري أي موعد يتحقق فيكم وعد الله، ولا أعلم هل هو قريب أم بعيد لكنه لا محالة سيتحقق عاجلاً أم آجلاً. «ولست أدري إذا كان الله أراد اختباركم فجعل لكم مهلة إلى وقت معين في علمه. وأن الله على كل حال يعلم ما تقولونه وتبيتونه في جهركم وسركم وقصارى مهمتي إبلاغكم وإنذاركم وقد قمت بها، وهذا ما ناسب ختم ذكر الأنبياء- عليهم السلام- بذكر سيد الوجود، وعين الرحمة، ومنبع الكرم والجود، وهو نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام -.»[1].

«في هذه الآيات وبعد أن أورد سبحانه الحجج والبراهين، لإقناع الكافرين بأن

١) بتصرف: التفسير الحديث (٥/٢٩٩). البحر المديد, ابن عجيبة (٣/٥٠٥).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رسالة الرسول حق، حتى لم يبق في القوس منزع، وبلغ الغاية التي ليس بعدها غاية، وبين أن هذا الرسول رحمة للعالمين، وهداية للناس أجمعين، وأن من اتبعه سلك سبيل الرشاد، ومن نأى عنه ضل وسار في طريق الغواية والعناد، أردف ذلك ما يكون إعذارا وإنذارا، في مجاهدتهم والإقدام على مناوأتهم، بعد أن أعيته الحِيَل، وضاقت به السُبل التي تجعلهم يؤمنون برسالة الحق، ولم تغنهم الآيات والنذر، فتمادوا في غوايتهم، ولجّوا في عنادهم، وأصبح من العسير إقناعهم وهدايتهم»[1].

«إنما ختم الله هذه السورة المباركة بقوله: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ لأنه- عليه السلام - كان قد بلغ في البيان لهم الغاية من تبليغهم، لكنهم قد بلغوا النهاية في أذيته وتكذيبه وتكذيب ما جاء به، فكان كلامه - سبحانه وتعالى - للنبي - صلى الله عليه وسلم - بذلك تسلية له وتعريفا أن المقصود مصلحتهم، فإذا أبوا إلا التمادي في كفرهم، فعليك بالانقطاع إلى ربك ليحكم بينك وبينهم بالحق، إما بتعجيل العقاب بالجهاد أو بغيره، وإما بتأخير ذلك فإن أمرهم وإن تأخر فما هو كائن قريب، وما روي أنه عليه السلام كان يقول ذلك في حروبه كالدلالة على أنه تعالى أمره أن يقول هذا القول كالاستعجال للأمر بمجاهدتهم. وقوله تعالى: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ﴾ أي: افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالحق. قيل: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا شهد قتالا قال: {رب احكم بالحق}. وقوله:﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: على ما يقولونه ويفترون به من الكذب علينا، ويتنوعون في مقامات التكذيب والإفك، والله المستعان عليكم في ذلك»[2].

١) بتصرف: تفسير المراغي (٧٩/١٧).

٢) بتصرف: تفسير الرازي (١٩٦/٢٢). تفسير ابن كثير (٣٨٨/٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويقول الإمام البقاعي[1] - رحمه الله - قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ لما كان الإمهال قد يكون نعمة، وقد يكون نقمة، قال: {وإن أدري} أي لا علم لديّ أيكون تأخير عذابكم نعمة لكم كما تظنون أم لا. ولما كان إلى كونه نقمة أقرب، قال معبراً عما يقدره الله {لعله} أي لا أعلم أن تأخير العذاب وإبهام وقته يكون {فتنة لكم} واختبار من الله ليظهر ما يعلمه منكم من الشر لغيره، لأن حالكم حال من يتوقع منه الشر والغفلة. وقد يكون متاعٌ لكم تتمتعون به {إلى حين} أي بلوغ مدة آجالكم التي ضربها لكم في الأزل، ثم يأخذكم بغتة أخذة يستأصلكم بها ويقطع دابركم.

ولما كان اللازم من هذه الآيات تجويز أمور تُهِمّ سامعيها وتقلقهم لأن العلم بأن الله تعالى له أن يفعل ما يشاء من عدل وفضل لله فقط لا لأحد، ولما كان من العدل جواز تعذيب الطائع وتنعيم العاصي، كان كأنه قيل: فما قال للرسول الشفوق على الأمة حين سمع هذا الخطاب؟ فقيل: قال مبتهلا إلى الله - تعالى - هذا على قراءة حفص. وعلى قراءة الجمهور: لما علم سبحانه أن ذلك مقلق، أمره - صلى الله عليه وسلم - بما يرجى من يقلق من أتباعه فقال: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ {قال رب} أي أيها المحسن إلي في نفسي واتباعي بامتثال أوامرك واجتناب نواهيك {احكم} أي أنجز الحكم الذي وعدتني به بيني وبين هؤلاء المخالفين {بالحق} أي بالأمر الذي يحق لكل منا من نصر وخذلان على ما أجريته من سنتك

---

١) أبو الحسن إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّباط - بضم الراء وتخفيف الباء - بن علي بن أبي بكر البقاعي، ولد سنة ٨٠٩هـ مؤرخ أديب. أصله من البقاع في سورية، وسكن دمشق ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة. أهم كتبه: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور و مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور, توفي بدمشق سنة ٨٨٥هـ. بتصرف: الأعلام للزركلي (٥٦/١). معجم المؤلفين, كحالة (٧١/١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

القديمة في أوليائك وأعدائك، أي الأمر الفصل الناجز، وفي الآية أعظم حثٍّ على لزوم الإنسان بالحق ليتأهل لهذه الدعوة[1].

ولما كان التقدير: فربنا المنتقم الجبار له أن يفعل ما يشاء وهو قادر على ما توعدون، عطف عليه قوله: {وربنا} أي المحسن إلينا أجمعين؛ ثم وصفه بقوله: {الرحمن} أي العام الرحمة لنا ولكم بإدرار النعم علينا، ولولا عموم رحمته لأهلكنا أجمعين وإن كنا نحن أطعناه، لأنا لا نقدره حق قدره والحاصل أنه لما سأل {الحق} المراد به الهلاك للعدو والنجاة للولي، أفرد الإضافة إشارة إلى تخصيصه بالفضل، وإفرادهم بالعدل، ولما سأل العون عم بالإضافة والصفة قنوعا بترجيح جانبه بالعون وإن شملتم الرحمة، ولأن من رحمتهم خليتهم عما هم عليه من الشر فقال: {المستعان} أي المطلوب منه العون وهو خبر المبتدأ موصوف {على ما تصفون} مما هو ناشئ عن غفلتكم الناشئة عن إعراضكم عن هذا الذكر من الاستهزاء والقذف بالسحر وغيره، والمناصبة بالعداوة والتوعد بكل شر، فقد انطبق آخر السورة على أولها بذكر الساعة ردا على قوله {اقترب للناس حسابهم} وذكر غفلتهم وإعراضهم وذكر القرآن الذي هو البلاغ، وذكر الرسالة بالرحمة لمن نسبوه إلى السحر وغيره، وتفصيل ما استعجلوا به من آيات الأولين وغير ذلك، وقام الدليل بالسمع بعد العقل على تحقق أمر الساعة بأنه سبحانه لا شريك له يمنعه من ذلك، وأنه يعلم السر وأخفى، وهو رحمن، فمن رحمته إيجاد يوم الدين ليجازي فيه المحسن بإحسانه[2].

---

١) بتصرف: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور, إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (٥١٣/١٢). الناشر: دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت – ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٢) بتصرف: نظم الدرر, البقاعي (٥١٥/١٢)

قلت: والقرآن يتكلم بلسان النبي - صلى الله عليه وسلم - كأن الرسول يقول وما أدري ما يريد الله فيكم بهذا التأخير. فلعله ربما يريد أن يكون هذا التأخير فتنة لكم وابتلاء، فيمتعكم ويؤخركم إلى أجل مسمّى، وبعد ذلك يأخذكم أخذ عزيز مقتدر.

«وبهذا التجهيل يلمس قلوبهم لمسة قوية، ويدعهم يتوقعون كل احتمال، ويتوجسون خيفة من المفاجأة التي تأخذهم بغتة. وتوقظ قلوبهم من غفلة المتاع فلعل وراءه الفتنة والبلاء. وتَوَقّع العذاب على غير موعد مضروب كفيل بأن يترك النفس متوجسة، والأعصاب متحفزة، ترتقب في كل لحظة أن يرفع الستار المسدل، عن الغيب المخبوء. وإن القلب البشري ليغفل عما ينتظره من غيب الله، وإن المتاع ليخدع، فينسى الإنسان أن وراء الستار المسدل ما وراءه مما لا يدريه ولا يكشف عنه إلا الله في موعده المغيب المجهول.

فهذا الإنذار يرد القلوب إلى اليقظة، ويعذر إليها بين يدي الله قبل فوات الأوان.

وهنا يتوجه الرسول- صلى الله عليه وسلم- إلى ربه. وقد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة. وآذنهم على سواء، وحذرهم بغتة البلاء.. يتوجه إلى ربه الرحمن يطلب حكمه الحق بينه وبين المستهزئين الغافلين، ويستعينه على كيدهم وتكذيبهم. وهو وحده المستعان:

«قال: رب احكم بالحق، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون»..

وصفة الرحمة الكبيرة هنا ذات مدلول. فهو الذي أرسله رحمة للعالمين، فكذب به المكذبون واستهزأ به المستهزئون. وهو الكفيل بأن يرحم رسوله

ويعينه على ما يصفون. وبهذا المقطع القوي تختم السورة كما بدأت بذلك المطلع القوي. فيتقابل طرفاها في إيقاع نافذ قوي مثير عميق[1].

موضع الالتفات في الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى: (قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ) حيث جاء السياق بصيغة الغيبة في قوله: (قال رب احكم..) حيث عدل عن الخطاب في قوله: (وَإِنۡ أَدۡرِي لَعَلَّهُۥ فِتۡنَةٞ لَّكُمۡ) في قوله: (لعله فتنة لكم..) وكان مقتضى الظاهر أن يقال:(أقول لكم إن ربي يحكم بالحق..) ليتوافق السياق ويكون كله بصيغة الخطاب، لكنه عدل عن ذلك بأسلوب الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة وذلك لبيان ما لقيه النبي – صلى الله عليه وسلم – من قومه في دعوته إياهم إلى الله وشدة إيذائهم له فناسب ذلك صيغة الغائب الذي يدل على لجوئه إلى ربه ودعائه إياه بعد ما لاقاه منه من أذىً وافتراء عليه.

سبب الالتفات في الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

قلت: إن المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب هذا العدول من الخطاب إلى الغيبة يجد أن الله هو الملجأ الوحيد لأنبيائه وأوليائه عندما يقابلهم أقوامهم بالسوء وشدة الأذى لهم وما ذلك إلا لأنهم يدعونهم إلى ما ينقعهم في الدنيا والآخرة، ومن ثم يعرضون عنهم ويسبونهم، ومن ثم يلجؤون إلى ربهم ويدعونه ويتضرعون إليه مباشرة فكان المناسب صيغة الغيبة التي تدل على استهانة الأنبياء والأولياء بما يقابلهم به أقوامهم لأن الله هو المستعان على هؤلاء الكفار.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أراء العلماء في الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:

قال الإمام الألوسي[1] - رحمه الله – قوله: « قال رب احكم بالحق حكاية لدعائه صلى الله عليه وسلم. وقرأ الأكثر «قل» على صيغة الأمر. والحكم القضاء. والحق العدل أي رب اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضي لتعجيل العذاب والتشديد عليهم فهو دعاء بالتعجيل والتشديد وإلا فكل قضائه تعالى عدل وحق. وقد استجيب ذلك حيث عذبوا ببدر أي تعذيب[2]. «قرئ فعل القول في الآية الأخيرة بصيغة الماضي{قال} كما قرئ بصيغة الأمر {قل}. وتضمنت الآية دعاء النبي لله بأن يحكم بينه وبين قومه بالحق والاستعانة به على ما يقوله الكفار افتراء على الله وزورا. وعلى قراءة فعل القول بصيغة الأمر يكون ذلك أمرا من الله بأن يدعو ويستعين. وعلى القراءة الثانية {قال رب} يكون ذلك بصيغة الغائب حكاية لدعائه واستعانته[3].

قال الإمام الشوكاني[4]. «ما أدري لعل الإمهال فتنة لكم واختبار ليرى كيف صنيعكم ومتاع إلى حين أي: وتمتيع إلى وقت مقدر تقتضيه حكمته. ثم حكى

---

١) شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، مفسر، محدث، أديب، من المجددين، ولد في بغداد سنة ١٢١٧هـ. كان سلفي الاعتقاد، مجتهدا. تقلد الإفتاء ببلده سنة ١٢٤٨ هـ وعزل، فانقطع للعلم. ثم سافر (سنة ١٢٦٢ هـ إلى الموصل، فالآستانة، وأكرمه السلطان عبد المجيد. وعاد إلى بغداد يدون رحلاته ويكمل ما كان قد بدأ به من مصنفاته، فاستمر الى أن توفي ببغداد سنة ١٢٧٠هـ. من كتبه «روح المعاني في التفسير، ونشوة الشمول في السفر إلى إسلامبول، ودقائق التفسير. الأعلام للزركلي (١٧٦/٧).

٢) بتصرف: تفسير الألوسي (١٠٢/٩).

٣) بتصرف: التفسير الحديث, محمد عزت دروزة (٢٩٩/٥) الناشر: دار إحياء الكتب العربية – القاهرة, الطبعة: ١٣٨٣هـ.

٤) محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني: فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء. ولد سنة ١١٧٣هـ. بهجرة شوكان (من بلاد خولان، باليمن) ونشأ بصنعاء. وولي قضاءها سنة ١٢٢٩هـ. ومات سنة ١٢٥٠هـ. حاكما بها. وكان يرى تحريم التقليد. له أكثر من (١١٤) مؤلفا، منها: نيل الأوطار, وفتح القدير في التفسير، إرشاد الفحول في أصول الفقه وغيرها. الأعلام للزركلي (٢٩٨/٦).

سبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سبحانه وتعالى دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: قال رب احكم بالحق أي: احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين بما هو الحق عندك، ففوض الأمر إليه سبحانه وذلك بصيغة الغيبة[1].

قال- صلى الله عليه وسلم-: وإن أدري بمعنى: ما أدري، انتهى. والضمير في قوله: لعله عائد على الإملاء لهم، وفتنة معناه: امتحان وابتلاء واختبار، والمتاع هنا هو ما يستمتع به مدة الحياة الدنيا، ثم أمره تعالى أن يقول على جهة الدعاء بصيغة الغيبة رب احكم بالحق وهذا دعاء فيه توعد[2].

يقول الامام ابن عاشور[3] «والاستئناف ابتدائي فبعد ما مضى من وصف رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - وإجمال أصلها وأمره بإنذارهم وتسجيل التبليغ. قصد من هذا الاستئناف التلويح إلى عاقبة أمر هذا الدين المرجوة المستقبلة لتكون قصة هذا الدين وصاحبه مستوفاة المبدأ والعاقبة على وزان ما ذكر قبلها من قصص الرسل السابقين والمعنى: قل ذلك بمسمع منهم إظهارا لتحديه إياهم بأنه فوض أمره إلى ربه ليحكم فيهم بالحق الذي هو خضد شوكتهم وإبطال دينهم، لأن الله يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق وقرأ الجمهور قل بصيغة الأمر. وقرأ حفص قال بصيغة الماضي، ولم يكتب في المصحف الكوفي بإثبات الألف. على أنه حكاية عن الرسول - صلى الله عليه وسلم -[4].

١) بتصرف: فتح القدير, محمد بن على الشوكاني (٥٠٩/٣). الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق بيروت, الطبعة: الأولى - ١٤١٤هـ.

٢) بتصرف: الجواهر الحسان في تفسير القرآن, أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (١٠٥/٤). تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود, الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت, الطبعة: الأولى - ١٤١٨هـ

٣) سبقت ترجمته.

٤) بتصرف: التحرير والتنوير (١٧٥/١٧).

«على طريق الاستعارة التمثيلية ومتاع إلى حين وتمتيع لكم إلى أجل مقدّر يقتضيه مشيئته المبنية على الحِكَم البالغة ليكون ذلك حجة عليكم وليقع الجزاء في وقت هو فيه حكمة الله، قال الرسول فهو هنا حكاية لدعائه - عليه الصلاة والسلام – بصيغة الغيبة، رب احكم بالحق أي اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضى لتعجيل العذاب والتشديد عليهم، ثم لما تمادى النزاع بين اهل مكة والرسول صلى الله عليه وسلم وتكثرت الوقائع والحادثات امر سبحانه حبيبه صلى الله عليه وسلم بالاستعانة منه والتفويض اليه بقوله قال يا أكمل الرسل بعد ما قد أصروا على إنكارك ملتجأ إلينا مناجيا معنا دعاء عليهم رب يا من رباني بكرامة الرسالة والتبليغ والإرشاد والتشريع احكم بالحق الصريح الصحيح المقرر الواقع عندك بيني وبين هؤلاء المعاندين معي وأنت تعلم انهم لا ينزجرون إلا بنزول العذاب الموعود عليهم أنزِل بمقتضى قهرك وجلالك عليهم ما ينزجرون به من العذاب[1].

قال الشوكاني[2]. – رحمه الله - في كتابه فتح القدير « إن ربي يعلم الجهر من القول الذي تقولونه ويعلم كذلك ما تكتمون فهو – سبحانه - يعلم ما تجاهرون به من الكفر والطعن على الإسلام وأهله وما تكتمونه من ذلك وتخفونه وإن أدري لعله يكون فتنة لكم. فما أدري لعل الإمهال فتنة لكم واختبار ليرى كيف صنيعكم ومتاع إلى حين أي: وتمتيع إلى وقت مقدر تقتضيه حكمته. ثم حكى سبحانه وتعالى دعاء نبيه - صلى الله عليه وسلم

١) بتصرف: روح البيان, أبو الفداء إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي (٥/٥٣٠). الناشر: دار الفكر – بيروت. والفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية, نعمة الله بن محمود النخجواني، المعروف بالشيخ علوان (١/٥٤٤). الناشر: دار ركابي للنشر - الغورية، مصر, الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢) سبقت ترجمته.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- بقوله: (قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ) أي: احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين بما هو الحق عندك، وهذه الحكاية بالغائب فيه تفويض الأمر إليه سبحانه. بصيغة الماضي أي: أحكم الأمور بالحق. ورب في موضع نصب لأنه منادى مضاف إلى الضمير وفيه امتنان من الله على نبيه والمؤمنين، حيث استجاب سبحانه دعاء نبيه - صلى الله عليه وسلم - فعذبهم ببدر، ثم جعل العاقبة والغلبة والنصر لعباده المؤمنين والحمد لله رب العالمين[1].

وقال أبو السعود[2] - رحمه الله – قوله تعالى: (قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّۗ) بصيغة الغيبة هو حكاية لدعائه - صلى الله عليه وسلم - وقرئ قل رب على صيغة الأمر أي اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضي لتعجيل العذاب والتشديد عليهم وقد استجيب دعاؤه - صلى الله عليه وسلم - حيث عُذّبوا بيد النبي وصحابته أي تعذيب. و (ٱلۡمُسۡتَعَانُ)أي المطلوب منه المعونة. وإضافة الرب فيما سبق إلى ضميره - صلى الله عليه وسلم - خاصة لِما أن الدعاء من الوظائف الخاصة به - صلى الله عليه وسلم - كما أن إضافته ههنا إلى ضمير الجمع المنتظم للمؤمنين أيضا لما أن الاستعانة من الوظائف العامة لهم. وقد استجاب الله - عز وجل - دعوة رسوله - صلى الله عليه وسلم - فخيب

---

١) بتصرف: فتح القدير, محمد بن على الشوكاني (٥٠٩/٣). الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٤هـ.

٢) أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي, مفسر شاعر، من علماء الترك المستعربين. ولد بقرب القسطنطينية سنة ٨٩٨هـ. ودرس ودرّس في بلاد متعددة، وتقلد القضاء في القسطنطينية وغيرها. وأضيف إليه الإفتاء سنة ٩٥٢هـ وكان حاضر الذهن سريع البديهة. من أهم كتبه: إرشاد العقل السليم إلى مرايا الكتاب الكريم. ورسالة في المسح على الخفين وقصة هاروت وماروت, وغيرها. وشعره جيد. وتوفي سنة ٩٨٢هـ. وهو مدفون في جوار قبر أبي أيوب الأنصاري الصحابي المعروف. بتصرف: الأعلام للزركلي (٥٩/٧).

آمالهم وغير أحوالهم ونصر أولياءه عليهم فأصابهم يوم بدر ما أصابهم»[1].

قلت: وهكذا نرى أن أغلب المفسرين أجمعوا على أن الغيبة أولى من اكتمال السياق القرآني بالخطاب الذي يعدّ فيه تشريف للمخاطبين من الكافرين. فلما دعا عليهم لما آذوه ومن آمن معه ناسب أن يُعرض عنهم بصيغة الغائب كأنهم ليسوا موجدين.

****

١) بتصرف: بتصرف: تفسير أبي السعود (٦/ ٩٠).

المبحث الثالث
من صور الالتفات في غير الضمائر في سورة الأنبياء

المطلب الأول: الالتفات عن الجمع للمفرد:

قال تعالى: (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾) [سورة الأنبياء: ٨].

معنى الآية الكريمة:

قلت: لما ذكر الله - سبحانه وتعالى - فيما سبق من إنكارهم أن يرسل الله بشراً من الرسل ليرسلهم إلى بشر مثلهم، وهذا إن دل فإنما يدل على أنهم لا يوجد عندهم قلوب تفقه هذا بل هي لاهية عما ينفعها في دنياها وآخرتها.

بقوله تعالى: (لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ **) [سورة الأنبياء: ٣].**

فهم يقولون بأن إرسال الرسل من البشر هذا ضربٌ من السحر. ومن ثم فقد أجاب الله عن هذه الشبهة التي تذرعون بها فيخبرهم بأن هذه سنة الله في إرسال الرسل السابقين قبل محمد - صلى الله عليه وسلم -، وأن محمد – صلى الله عليه وسلم - ليس بدعاً منهم. ثم يقول للفريقين المؤمنين وعلى رأسهم محمد – صلى الله عليه وسلم -، والكافرين وعلى رأسهم كفار مكة..

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾**) [سورة الأنبياء: ٧]. كأنه يقول وإن كنتم في شكٍّ من هذا النبي وغيره من إخوانه السابقين فاسألوا أهل الذكر والعلم من أهل الكتاب الذين سبقوكم فهم رأوا وعلموا أن الرسل إنما هم من البشر وكسائر البشر وهذه هي سنن الطبيعة البشرية، وأنهم مثل غيرهم يأكلون الطعام ولا يخلدون في الأرض،**

وكذلك يموتون مثلما يموت غيرهم من سائر البشر، وقد صدق الله وعده لرسله وأوليائه، فنجاهم ومن آمن بهم، وأهلك أعدائهم الذين كذبوهم وعادوهم. وكان أمر الله لهم أن يسألوا أهل الكتاب من اليهود والنصارى كان هذا من باب التبكيت لهم والتوبيخ، ومن ثم إزالة لما علق بأذهانهم من استبعاد إرسال الرسل من البشر بعد أن بين لهم وجه الحق، وبعد أن وضح أن محمد - صلى الله عليه وسلم - على سنة من مضى من الرسل في كونه رجلا من البشر، وبين أنه كذلك على سنتهم في سائر الأوصاف التي حكم بها على البشر سواء في معيشتهم من أكل وشرب وحتى الموت فهم مستوون في ذلك مع سائر البشر.

فقوله تعالى:(وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ)«أي وما جعلنا الرسل الذين أرسلناهم من قبلك إلى الأمم الماضية قبل أمتك أجسادا لا يأكلون ولا يشربون، أي أنهم ليسوا من الملائكة لا يأكلون الطعام، بل جعلناهم أجسادا مثلك يأكلون الطعام وتعرض لهم أطوار البشر جميعا من صحة ومرض وسرور وحزن ونوم ويقظة، وما كانوا مخلدين في الدنيا لا يموتون ولا يفنون، ولكنهم غبروا حينا من الدهر وهم أحياء ثم طواهم الثرى وضمتهم القبور.

والخلاصة من ذلك أن الله جعل للرسل أجساما تتغذى حين حياتها، ثم يصير أمرها إلى الفناء بعد استيفاء آجالها، ومن ثم يموتون كما مات الناس قبلهم وبعدهم، وإنما امتازوا عن غيرهم من سائر الناس بما يأتيهم عن الله من الوحي والزلفى عنده»[1].

١) بتصرف: تفسير المراغي (١٠/١٧).

وهذه الآيات هي جواب لقول كفار قريش: هل هذا إلا بشر مثلكم ولهذا جاء هذا البيان من الله، أن سنة الله تعالى في الرسل قبل محمد صلى الله عليه وسلم إرسال رجال من البشر أنبياء، فلا يكون الرسول إلا بشرا، خلافا لما ينكرون، فلا يصح اعتراضهم في كون محمد بشراً، وإنما أحالهم الله لسؤال أهل الكتاب لأن المشركين كانوا يشاورونهم في أمر النبي - صلى الله عليه وسلم – لأنهم عندهم علم، وكان الكفار يثقون بقولهم، ويلتقون معهم في معاداتهم للنبي وما أرسل به، فهم ينكرون أن يكون رسول الله بشرا مثلهم.. فعلى أية صورة يكون الرسول المبعوث من الله إليهم؟»[1].

: «فقد اقتضت حكمة الله أن يكون الرسل من البشر، يتلقون الوحي فيدعون به الناس إلى ربهم. فما كان الرسل من قبل إلا رجالا ذوي أجساد يأكلون الطعام. وذلك لأن أكل الطعام من مقتضيات الجسدية، والجسدية من مقتضيات البشرية. وهم بحكم أنهم بشر مخلوقون إذن فلم يكونوا خالدين..

وهذه هي سنة الله المطردة وعليهم أن يسألوا أهل الكتاب الذين عرفوا الأنبياء من قبل. إن كانوا هم لا يعلمون. ولماذا يكون الرسل بشر وليسوا ملائكة؟؟

١) بتصرف: التفسير المنير للزحيلي (١٩/١٧). التفسير القرآني للقرآن (٨٥٠/٩).

لقد كان الرسل السابقين من البشر ليعيشوا مثلهم فتكون حياتهم الواقعية مصداق شريعتهم. وسلوكهم العملي نموذجا حيا لما يدعون إليه الناس. فالكلمة الحية الواقعية هي التي تؤثر وتهدي، لأن الناس يرونها ممثلة في شخص مترجمة إلى حياة.

ولو كان الرسل من غير البشر لا يأكلون الطعام، ولا يمشون في الأسواق، ولا يعاشرون النساء. ولا تعتلج في صدورهم عواطف البشر وانفعالاتهم لما كانت هناك وشيجة بينهم وبين الناس. فلا هم يحسون دوافع البشر التي تحركهم، ولا البشر يتأسون بهم ويقتدون.

وأيما داعية لا يحس مشاعر الذين يدعوهم ولا يحسون مشاعره، فإنه يقف على هامش حياتهم، لا يتجاوب معهم ولا يتجاوبون معه. ومهما سمعوا من قوله فلن يحركهم للعمل بما يقول. لما بينه وبينهم من قطيعة في الحس والشعور.

وأيما داعية لا يصدق فعله قوله، فإن كلماته تقف على أبواب الآذان لا تتعداها إلى القلوب. مهما تكن كلماته بارعة وعباراته بليغة. فالكلمة البسيطة التي يصاحبها الانفعال، ويؤيدها العمل. هي الكلمة المثمرة التي تحرك الآخرين إلى العمل.

والذين كانوا يقترحون أن يكون الرسول من الملائكة، كالذين يقترحون اليوم أن يكون الرسول منزها عن انفعالات البشر.. كلهم يتعنتون ويغفلون عن هذه الحقيقة. وهي أن الملائكة لا يحيون حياة البشر بحكم تكوينهم ولا يمكن أن يحيوها.. لا يمكن أن يحسوا بدوافع الجسد ومقتضياته، ولا بمشاعر هذا المخلوق الآدمي ذي التكوين الخاص. وأن الرسول يجب أن

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يحس بهذه الدوافع والمشاعر، وأن يزاولها في حياته الواقعية ليرسم بحياته دستور الحياة العملي لمتبعيه من الناس.

وهنالك اعتبار آخر، وهو أن شعور الناس بأن الرسول ملك لا يثير في نفوسهم الرغبة في تقليده في جزئيات حياته لأنه من جنس غير جنسهم، وطبيعة غير طبيعتهم، فلا مطمع لهم في تقليد منهجه في حياته اليومية. وحياة الرسل أسوة دافعة لغيرهم من الناس. وهذا وذلك فوق ما في ذلك الاقتراح من غفلة عن تكريم الله للجنس البشري كله، باختيار الرسل منه، ليتصلوا بالملأ الأعلى ويتلقوا عنه.

لذلك كله اقتضت سنة الله الجارية اختيار الرسل من البشر وأجرت عليهم كل ما يجري على البشر من ولادة وموت، ومن عواطف وانفعالات، ومن آلام وآمال، ومن أكل للطعام ومعاشرة للنساء.. وجعلت أكبر الرسل وأكملهم وخاتمهم وصاحب الرسالة الباقية فيهم.. أكمل نموذج لحياة الإنسان على الأرض، بكل ما فيها من دوافع وتجارب وعمل وحياة.

تلك هي سنة الله في اختيار الرسل، ومثلها سنته في إنجائهم ومن معهم، وإهلاك المسرفين الظالمين المكذبين. وهكذا لما فرغ سبحانه من الجواب عن شبهتهم أكد كون الرسل من جنس البشر، وذلك لأن الرسل أسوة لسائر أفراد بني آدم في حكم الطبيعة، يأكلون كما يأكلون، ويشربون كما يشربون» .

موضع الالتفات في الالتفات عن الجمع للمفرد:

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى: (جَسَدًا) حيث جاء السياق بصيغة المفرد فى قوله: (جسداً..) حيث عدل عن صيغة الجمع في قوله:(وَمَاجَعَلْنَاهُمْ) في

قوله: (جعلناهم..) وكان مقتضى الظاهر أن يقال:(وما جعلناهم أجساداً..) ليتوافق السياق ويكون كله بصيغة الجمع، لكنه عدل عن ذلك بطريق الالتفات عن الجمع إلى المفرد وذلك لبيان بطلان عقيدة أن الرسل لا تكون من البشر مع قدرة الله على ذلك.

سبب الالتفات في الالتفات عن الجمع للمفرد:

قلت: إن المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب هذا العدول من الجمع إلى المفرد يجد أن هذا العدول هو فيه بيان أن الرسل الذين يرسلهم الله إلى البشر هم من البشر أيضاً، ولا ينبغي أن يكون من غير البشر، ومن ثم ذكر الله أنهم جسداً وهذا الجسد لابد له من احتياجات كالطعام والشراب وهذا يستدعي أن يكون بشراً. وهذه هي سنة الله في البشر.

أراء العلماء في الالتفات عن الجمع للمفرد:

«وما جعلناهم جسدا أي: أجسادا، فالإفراد لإرادة الجنس، أو ذوي جسد، لا يأكلون الطعام أي: وما جعلناهم أجسادا صمدانيين، أغنياء عن الطعام والشراب، بل محتاجين إلى ذلك لتحقيق العبودية التي اقتضت شرفهم. وما كانوا خالدين لأن كل من يفتقر إلى الغذاء لا بد يتحلل بدنه بسرعة، حسبما جرت العادة الإلهية، والمراد بالخلود: المكث المديد، كما هو شأن الملائكة أو الأبدية. وهم معتقدون أنهم كانوا يموتون. والمعنى: بل جعلناهم أجسادا مفتقرة صائرة إلى الموت عند انقضاء آجالهم، لا ملائكة ولا أجسادا صمدانية. والجسد جسم الإنسان. قال الزجاج: هو واحد، يعني الجسد ينبئ عن جماعة، أي: وما جعلناهم ذوي أجساد لا يأكلون الطعام، فجملة

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لا يأكلون الطعام صفة ل «جسدا»، أي: وما جعلناهم جسدا مستغنيا عن الأكل، بل هو محتاج إلى ذلك وما كانوا خالدين بل يموتون كما يموت غيرهم من البشر»[1].

قال الألوسي «وما جعلناهم جسدا أي جسم ذو تركيب وظاهره أنه أعم من الحيوان. وقال بعضهم: هو في الأصل مصدر جسد الدم يجسد أي التصق وأطلق على الجسم المركب لأنه ذو أجزاء ملتصق بعضها ببعض. وقيل: لإرادة الاستغراق الإفرادي في الضمير أي جعلنا كل واحد منهم وقيل: هو بتقدير مضاف أي ذوي جسد، وقيل: أنه يستغني بتثنية المضاف وجمعه عن تثنية المضاف إليه وجمعه في الإعلام وكذا ما ليس فيه لبس من أسماء الأجناس. وقوله تعالى لا يأكلون الطعام صفة جسدا أي وما جعلناهم جسدا مستغنيا عن الغذاء بل محتاجا إليه وما كانوا خالدين أي باقين أبداً، وحاصل المعنى جعلناهم أجسادا متغذية صائرة إلى الموت بالآخرة حسب آجالهم ولم نجعلهم ملائكة لا يتغذون ولا يموتون حسبما تزعمون. وفي إيثار وما كانوا على وما جعلناهم تنبيه على أن عدم الخلود والبقاء من توابع جبلتهم في هذه النشأة التي أشير إليها»[2].

« المعنى: وما خلقنا الرسل جسدا لا يأكلون ولا يشربون، ولكن جعلناهم أجسادا فيها أرواح يأكلون ويشربون. وقال جسدا ولم يقل أجسادا، لأن الواحد ينبئ عن الجماعة، ويقال: معناه وما جعلناهم ذوي أجساد لا يأكلون الطعام»[3].

١) بتصرف: فتح القدير للشوكاني (٤٧١/٣).

٢) بتصرف: تفسير الألوسي (١٤/٩).

٣) بتصرف: تفسير الزمخشري (١٠٤/٣). بحر العلوم, أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد السمرقندي (٤٢٠/٢) تحقيق د. محمود مطرجي, دار النشر: دار الفكر – بيروت. وطبعة أخرى دار الكتب العلمية, سنة النشر: ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م. تفسير الزمخشري (١٠٤/٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وقال البيضاوي - رحمه الله - [1] قوله تعالى: (وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا) «نفى لما اعتقدوا أنها من خواص الملائكة عن الرسل تحقيقا لأنهم بشراً مثلهم. وتوحيد الجسد لإرادة الجنس، أو لأنه مصدر في الأصل أو على حذف المضاف أو تأويل الضمير بكل واحد وهو جسم ذو لون فلذلك لا يطلق على الماء والهواء، ومنه الجساد للزعفران. وقيل جسم ذو تركيب لأن أصله لجمع الشيء واشتداده، وهكذا أبطل الله تعالى دعواهم أن الرسل لا يكونون من البشر، وأثبت سبحانه بالاستقراء والتتبع أن الرسل لا يمكن أن يكونوا إلا من البشر الذين يوحى إليهم. وإن الله تعالى إذ يرسل الرسل من البشر يحوطهم بعنايته؛ الضمير يعود إلى الرسل»[2].

وقال القرطبي - رحمه الله -[3] « جسدا» اسم جنس، ولهذا لم يقل أجسادا، وقيل: لم يقل أجسادا، لأنه أراد وما جعلنا كل واحد منهم جسدا. والجسد

---

١) أبو سعيد ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد بن علي الشيرازي، البيضاوي: قاض، مفسر، علامة. ولد في المدينة البيضاء (بفارس - قرب شيراز) وولي قضاء شيراز مدة. وصرف عن القضاء، فرحل إلى تبريز فتوفي فيها سنة ٦٨٥هـ من تصانيفه: أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ومنهاج الوصول إلى علم الأصول, والغاية القصوى في دراية الفتوى في فقه الشافعية. بتصرف: الأعلام للزركلي (١١٠/٤).

٢) بتصرف: أنوار التنزيل وأسرار التأويل, ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي(٤/ ٤٦)، تحقيق محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ. زهرة التفاسير (٤٨٣٤/٩). الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (١٣٥/٨). شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي, المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط, الناشر: دار القلم، دمشق.

٣) أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي: من كبار المفسرين. صالح متعبد. من أهل قرطبة. رحل إلى الشرق واستقر بمنية ابن خصيب (في شمالي أسيوط، بمصر) وتوفي فيها سنة ٦٧١هـ من أهم كتبه: الجامع لأحكام القرآن «بتفسير القرطبي»، والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى, والتقريب لكتاب التمهيد. وكان ورعا متعبدا، بعيداً عن التكلف. بتصرف: الأعلام للزركلي (٣٢٢/٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

البدن، تقول منه: تجسد كما تقول من الجسم تجسم»[1].

(وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا) إفراده لإرادة الجنس المنتظم للكثير أيضا وقيل بتقدير المضاف أي ذوي جسد. أي وما جعلناهم جسدا مستغنيا عن الأكل والشرب بل محتاجا إلى ذلك لتحصيل بدل ما يتحلل منه. وما جعلناهم فيه تنبيه على أن عدم الخلود مقتضي جبلتهم وسألوا أن يأتي بما أرسل به الأولون كان مقتضى أقوالهم أن الرسل الأولين كانوا في صور الآدميين لكنهم لا يأكلون الطعام وأكل الطعام من لوازم الحياة، فلزمهم لما قالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام أن يكونوا قائلين بأن شأن الرسل أن يكونوا أجسادا بلا أرواح، وهذا من السخافة بمكانة»[2].

وأما قوله: وما كانوا خالدين فهو زيادة استدلال لتحقيق بشريتهم استدلالا بما هو واقع من عدم كفاءة أولئك الرسل كما هو معلوم بالمشاهدة، لقطع معاذير الضالين.

****

١) بتصرف: الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي, أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي (٢٧٢/١١). تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش, الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة, الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٢) بتصرف: تفسير أبو السعود (٥٧/٦) التحرير والتنوير (١٩/١٧).

سبكة الألوكة - قسم الكتب

المطلب الثاني: الالتفات عن الماضي إلى المضارع:

قال تعالى: (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥) [الأنبياء:٢٥]

معنى الآية الكريمة:

قلت: بعد أن بين الله - سبحانه وتعالى - فيما سبق من الآيات من أن الكثير من الأمم السابقة التي كذبت رسلها كان مصيرها الفناء بالعذاب الدنيوي مع ما ينتظرها من العذاب الأخروي يوم القيامة، فقد أبيدت وجاء على إثرها أقوام آخرون، فقد استبدلهم الله بغيرهم، وأنهم عندما أحسوا بالبأس والانتقام مباشرة ندموا لكن حين لا ينفع الندم. ثم أعقب الله ذلك بذكر وتوضيح أن كل من في السموات والأرض هم عبيد لله، وبيان أن الملائكة الذين هم عند الله لا يستكبرون عن عبادته، وأنهم لا يكلّون ولا يَمَلّون من هذه العبادة لربهم. ثم ذكر السياق القرآني هنا أنه كان يجب على البشر وهم من خلق الله الذين يسكنون أرضه ويعيشون تحت سمائه، يجب عليهم أن يبادروا إلى عبادته وحده وتوحيده، لكنهم لم يفعلوا ذلك، بل قاموا بعبادة غيره ومن ثم كانوا جديرين بالتوبيخ والتبكيت والتعنيف، ثم وضح السياق وأقام البرهان الواضح على وحدانيته - سبحانه وتعالى - فلو كان إلهان في الكون لهلك كل من فيهما، تعالى الله وتنزه عما يقولوا المشركون علوا كبيراً، وبين أن جميع الرسل جاءوا بما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم – من الأمر بعبادة الله وحده دون سواه وهذا ما جاءت به جميع الأديان وهو إخلاص التوحيد له.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقال - الله -(وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ) أي وما أرسلنا رسولا إلى أي أمة إلا أوحينا إليه أنه لا معبود في السموات والأرض إلا أنا، فأخلصوا لي العبادة وأفردوا لي الألوهية والعبادة. وخلاصة ذلك إن الرسل جميعا أرسلوا بالإخلاص والتوحيد لا يقبل منهم سواه»[1].

«وهذا تقرير لما سبق من آي التوحيد لأن هذه الآية تشير إلى أن الله تعالى أخذ العهد على الأنبياء والرسل كافة بأنه لا إله في الكون غيره وأن يعبده من فيه وحده، فكل ما يقال بخلاف هذا كذب محض وبهت مفترى[2].

وقال الإمام ابن عاشور[3] «لما أظهر الله لرسوله أن المعاندين لا يعلمون الحق وذلك لإعراضهم عن تلقيه بالقبول، أقبل على رسوله - صلى الله عليه وسلم - بتأييد مقاله الذي لقنه أن يجيبهم به وهو قوله تعالى: (أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ ٱلۡخَٰلِدُونَ ٣٤ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۗ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٣٥) [سورة الأنبياء: 24] ، فأفاده تعميمه في شرائع سائر الرسل السابقين، سواء من أنزل عليه كتاب ومن لم ينزل عليه كتاب، وسواء من كان كتابه باقيا مثل موسى وعيسى وداود ومن لم يبق كتابه مثل إبراهيم»[4].

«فالتوحيد هو قاعدة العقيدة منذ أن بعث الله الرسل للناس. لا تبديل فيها ولا تحويل. توحيد الإله المعبود. فلا انفصال بين الألوهية والربوبية ولا مجال للشرك في الألوهية ولا في العبادة.. قاعدة ثابتة ثبوت النواميس

---

١) بتصرف: تفسير المراغي (٢١/١٧).

٢) بيان المعاني, عبد القادر بن ملّا حويش السيد محمود آل غازي العاني (٣٠٢/٤)., الناشر: مطبعة الترقي – دمشق, الطبعة: الأولى ١٣٨٢هـ - ١٩٦٥م.

٣) سبق ترجمته.

٤) بتصرف: التحرير والتنوير (٤٨/١٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الكونية، متصلة بهذه النواميس وهي واحدة منها. فقضية التوحيد واضحة منذ بداية الرسالات إلى خاتمتها، الكل جاء بقول لا إله إلا الله قضية مشتركة بين جميع رسالات السماء. وقوله تعالى: {من رسول..} (من) هنا تفيد الشمول والتعميم، يعني: كل أفراد الرسل.

وكل ما تقدم من أول السورة إلى هنا كان في النبوات، وما يتعلق بها سؤالا وجوابا، وأما هذه الآيات فإنها في بيان التوحيد، ونفي الشريك. فكأنه يقول لم نرسل رسولا سابقا من عهد آدم - عليه السلام - إلى قومه إلا أوحينا إليه ألا معبود إلا الله، فاعبدوه مخلصين له العبادة، وخصوه بالألوهية، فرسالات جميع الأنبياء قائمة على التوحيد، وكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له»[1].

وفي هذا تقرير لأمر التوحيد وتأكيد لما تقدم من قوله: هذا ذكر من معي وختم الآية بالأمر لعباده بعبادته، فقال فاعبدون فقد اتضح لكم دليل العقل، ودليل النقل، وقامت عليكم حجة الله»[2].

موضع الالتفات في الالتفات عن الماضي إلى المضارع:

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى:(إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ) حيث جاء السياق بصيغة الفعل المضارع في قوله: (نوحي..) حيث عدل عن صيغة الماضي في قوله: (وَمَا أَرْسَلْنَا) في قوله: (أرسلنا..) وكان مقتضى الظاهر أن يقال:(إلا أوحينا إليه..) ليتوافق السياق ويكون كله بصيغة الماضي، لكنه عدل عن ذلك بطريق الالتفات عن الماضي إلى المضارع وذلك لبيان حكاية الحال الماضية

١) بتصرف: تفسير الشعراوي (١٥/٩٥١١). التفسير المنير للزحيلي(١٧/٣٦).

٢) بتصرف: فتح القدير للشوكاني(٣/٤٧٦).

لاستحضار صورة الوحي العجيبة، وتبكيت وتقريع من يعبدون غير الله، وبقاء الوحي ما بقيت الدنيا ومن عليها.

سبب الالتفات في الالتفات عن الماضي إلى المضارع:

قلت: إن المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب هذا العدول من الفعل الماضي إلى الفعل المضارع يجد أن هذا الالتفات هو لبيان وتوضيح أن سنة الله في البشر من إرسال الرسل وإنزال الكتب هو عبادة الله وتوحيده. والاتيان بالفعل المضارع الذي يفيد الاستمرار والثبوت للدلالة على بقاء الوحي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وما يتبع هذا الوحي من عبادة الله وحده - سبحانه وتعالى - دون سواه.

أراء العلماء في الالتفات عن الماضي إلى المضارع:

يقول ابن عاشور قوله تعالى:(وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ) «وليس ذكر هذه الجملة لمجرد تقرير ما قبلها من آي التوحيد وإن أفادت التقرير تبعا لفائدتها المقصودة. وفيها إظهار لعناية الله تعالى بإزالة الشرك من نفوس البشر وقطع دابره إصلاحا لعقولهم بأن يزال منها أفظع خطل وأسخف رأي، ولم تقطع دابر الشرك شريعة كما قطعه الإسلام بحيث لم يحدث الإشراك في هذه الأمة. وحرف (من) في قوله: من رسول لتوكيد النفي. وفرع فيما أوحي إليهم أمره إياهم بعبادته على الإعلان بأنه لا إله غيره، فكان استحقاق العبادة خاصا به تعالى»[1].

ويقول الإمام الألوسي[2] - رحمه الله - «وما أرسلنا من قبلك من رسول

١) بتصرف: التحرير والتنوير (٤٩/١٧).

٢) سبق ترجمه.

إلا نوحي إليه. استئناف مقرر لما سبق من آي التوحيد وقد يقال إن فيه تعميما بعد تخصيص إذا أريد من ذكر من قبلي الكتب الثلاثة، ولما كان من رسول عاما معنى فكان هناك لفظ ومعنى أفرد على اللفظ في نوحي إليه ثم جمع على المعنى في فاعبدون ولم يأت التركيب فاعبدني وهذا بناء على أن فاعبدون داخل في الموحي وجوز عدم الدخول على الأمر له - صلى الله عليه وسلم -.»[1].

«وفيه إشارة إلى إن الحكمة في بعثة جميع الأنبياء والرسل مقصورة على هاتين المصلحتين وهما اثبات وحدانية الله تعالى وعبادته بالإخلاص لتكون فائدة هاتين المصلحتين راجعة إلى العباد لا إلى الله. وهذا السياق مقرر لما قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الإلهية، وأجمعت عليه الرسل- عليهم السلام- قاطبة. وصيغة المضارع في (يوحى) لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورة الوحي العجيبة»[2].

«لما كان الإرسال بالفعل غير مستغرق للزمان المتقدم لأنه كما أن الرسالة لا يقوم بها كل أحد، فكذلك الإرسال لا يصلح له كل زمن، أثبت الجار فقال: {من قبلك} وأعرق في النفي فقال: {من رسول} في شيع الأولين {إلا نوحي إليه} من عندنا {أنه لا إله إلا أنا} ولم يقل: نحن، لئلا يجعلوها وسيلة إلى شبهة، ولذا قال: {فاعبدون} بالإفراد، وترك التصريح بالأمر بالتخصيص بالعبادة لفهمه من المقام والحال، فإنهم كانوا قبل ذلك يعبدونه ولكنهم يشركون

١) بتصرف: تفسير الألوسي (٣١/٩).
٢) بتصرف: روح البيان (٤٦٧/٥). تفسير حدائق الروح والريحان, الأمين الهرري (٤١/١٨). البحر المديد, ابن عجيبة (٤٥٣/٣).

تنبيها على أن كل عبادة فيها شوب شرك عدم. وهذه الآية مقررة لما سبقها من آي التوحيد»[1].

قال الإمام أبو السعود – رحمه الله - «استئناف مقرر لما أجمل فيما قبله من كون التوحيد مما نطقت به الكتب الإلهية وأجمعت عليه الرسل عليهم السلام وقرئ (يُوحَى) على صيغة الغائب مبنيا للمفعول وأيا ما كان فصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية استحضارا لصورة الوحي»[2].

قلت: وبعد كلام المفسرين عن سر الالتفات من الماضي للمضارع يتبين أن الفعل المضارع يحكي حالة استحضار صورة الوحي الذي أوحاه الله إلى عباده عن طريق رسله، وأنه باقٍ ما بقيت السماء والأرض، وأنه هو الواحد الأحد لا معبود بحق سواه.

****

١) بتصرف: نظم الدرر, البقاعي (٤٠٧/١٢). تفسير الزمخشري (١١١/٣).
٢) بتصرف: تفسير أبي السعود (٦٣/٦).

المطلب الثالث: الالتفات عن التثنية إلى الجمع:

قال تعالى:(وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ **) [الأنبياء: ٧٨].**

معنى الآية إجمالاً:

قلت: بعد أن ذكر الله تعالى بعضاً مما أنعم به على نوح وإخوانه من الأنبياء- عليهم السلام – من الكثير من النعم الجليلة التي أهمها وأعلاها هي النبوة. أتبع ذلك بذكر الإحسان العظيم الذي أعطاه ومنّ به على النبِيَّين الكريمين داود وسليمان - عليهما السلام – قد أنعم عليهما بنِعَمٍ مشتركة بينهما وبين غيرهما من الأنبياء ألا وهى الفَهمِ والعلم بعد النبوة وهذا ما أشار إليه بقوله:(فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ**) [سورة الأنبياء: ٧٩]. كما أن هناك نِعَماً خاصة خص الله بها بعض أنبيائه واحد دون الآخر، وقد عرض النعم هذه مثنيا مبجلا إذ آتاهما الله الحكم بين العباد مع العلم الواسع الوفير. «والمعنى: أي واذكر أيها الرسول الكريم نبأ داود وسليمان - عليهما السلام- حين حكما في الزرع الذي رعته غنم لقوم آخرين غير صاحب الحرث ليلا فأفسدته، وكان ربك شاهدا عليما بما حكم به داود وسليمان بين القوم الذين أفسدت غنمهم الحرث وصاحب الحرث، لا يخفى عليه شيء منه ولا يغيب عنه علمه، ففهم الفُتيا في ذلك لسليمان دون داود وهذه خصوصية اختص الله بها أنبياء دون آخرين، وقد كان كل منهما فيصلا في الحكم في الخصومات، ذا علم بالدين والتشريع»[1].**

١) بتصرف: تفسير المراغي (٥٦/١٧).

«كان في قصة داوود وسليمان تنبيه على أصل الاجتهاد وعلى فقه القضاء فلذلك خص داوود وسليمان بشيء من تفصيل أخبارهما. أي وآتينا داوود وسليمان حكما وعلما وقت حكمهما في قضية الحرث لمظهرا من مظاهر حكمهما وعلمهما.

والحكم هو الحكمة أو النبوءة. والعلم: أصالة الفهم. فهذه القضية التي تضمنتها الآية تعتبر مظهراً من مظاهر العدل ومبلغ تدقيق فقه القضاء، والجمع بين المصالح والتفاضل بين مراتب الاجتهاد، واختلاف طرق القضاء بالحق مع كون الحق حاصلا للمحق، فمضمونها أنها الفقه في الدين الذي جاء به المرسلون من قبل»[1].

«يقول الله عز وجل اذكر يا محمد إخوانك من الأنبياء منهم داود وسليمان- عليهما السلام - إذ يحكمان في الحرث.. وذلك أن غنما لقوم وقعت في زرع رجل، فأفسدته. قال ابن عباس – رضي الله عنهما – «إن غنم قوم وقعت في كرم قوم آخرين ليلا، وذلك حين خرج عناقيده، فأفسدته، فاختصموا إلى داود النبي - صلى الله عليه وسلم - فقَوّمَ داود الكرم والغنم، فكانت القيمتان سواء، أي: قيمة الغنم وقيمة ما أفسدت من الكرم، فدفع الغنم إلى صاحب الكرم، فخرجوا من عنده، فمروا بسليمان فقال: بم قضى بينكم الملك؟ فأخبروه فقال: نِعمَ ما قضى به، وغير هذا كان أرفق للفريقين جميعا. فرجع أصحاب الكرم والغنم إلى داود، فأخبروه بما قال سليمان، فأرسل داود إلى سليمان - عليهما السلام - فقال: كيف رأيت قضائي بين هؤلاء فإني لم أقض بالوحي، إنما قضيت بالرأي؟ فقال: نِعمَ ما قضيت. فقال: عزمت عليك بحق

١) بتصرف: التحرير والتنوير (١١٥/١٧).

النبوة وبحق الوالد على ولده، إلا أخبرتني. فقال سليمان: غير هذا كان أرفق بالفريقين. فقال: وما هو؟ قال سليمان: يأخذ أهل الكرم الغنم، ينتفعون بألبانها وسمنها وصوفها ونسلها، ويعمل أهل الغنم لأهل الكرم في كرمهم، حتى إذا عاد الكرم كما كان ردوه. فقال داود: نعم ما قضيت به، فقضى داود بينهم بذلك.

وقال بعضهم: كان ذلك القضاء نافذا فلم ينقض ذلك. وكان سليمان في ذلك اليوم ابن إحدى عشرة سنة، فذلك قوله: إذ نفشت فيه غنم القوم يعني: دخلت فيه غنم القوم، ويقال: نفشت أي: دخلت فيه بالليل من غير حافظ لها. والنفش لا يكون إلا ليلا، والهَمَل بالنهار»[1].

«فذلك من القضاء بالاجتهاد. وهو جار على القول الصحيح من جواز الاجتهاد للأنبياء ولنبينا عليهم الصلاة والسلام ووقوعه في مختلف المسائل.

وقد كان قضاء داوود حقا لأنه مستند إلى غرم الأضرار على المتسببين في إهمال الغنم، وأصل الغرم أن يكون تعويضا ناجزا فكان ذلك القضاء حقا. وحسبك أنه موافق لما جاءت به السنة في إفساد المواشي.

وكان حكم سليمان حقا لأنه مستند إلى إعطاء الحق لذويه مع إرفاق المحقوقين باستيفاء مالهم إلى حين فهو يشبه الصلح. ولعل أصحاب الغنم لم يكن لهم سواها كما هو الغالب، وقد رضي الخصمان بحكم سليمان. والمعنى: وآتينا وأعطينا النبوة والحكم بين الناس داود وسليمان، ومن أنواع الأقضية المهمة التي حكم بها هذان النبيان الرسولان - عليهما السلام -، وكان الله عالما تام العلم بالقضاء والمقضي فيه، شاهدا بما حكم به داود

١) بتصرف: بحر العلوم (٤٣٣/٢). الهداية الى بلوغ النهاية (٤٧٨٦/٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وسليمان، لا تخفى عليه خافية. وكان القضاء صادرا من الأب داود، والابن سليمان، اللذين كان كل منهما ملكا عدلا، نبيا، يحكم بالحق بين الناس»[1].

«والمخاطب هنا هو النبي - صلى الله عليه وسلم - وذلك تسرية له في الشدائد والكروب التي كان فيها وهي تسرية فيها أخبار جدية تبين أحكاما لنظام الحق وإدراكه، فهي ليست تسرية بلهو، بل هي أخبار فيها طرافة، وفيها تنبيه لتنظيم العدالة والتفكير»[2].

موضع الالتفات في الالتفات عن التثنية إلى الجمع.

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى:(وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ) حيث جاء السياق بصيغة الجمع في قوله: (لحكمهم..) حيث عدل عن صيغة التثنية في قوله: (وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ) في قوله: (يحكمان..) وكان مقتضى الظاهر أن يقال:(وكنا لحكمهما..) ليتوافق السياق ويكون كله بصيغة الجمع، لكنه عدل عن ذلك بطريق الالتفات عن التثنية إلى الجمع وذلك لبيان علم الله تعالى علم الإحاطة ليشمل جميع الحضور في هذه القضية وهم الحَكَمَان داود وسليمان وكذلك أصحاب الحُكم.

سبب الالتفات في الالتفات عن التثنية إلى الجمع:

قلت: إن المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب العدول عن التثنية إلى الجمع هو اشتمال علم الله تعالى جميع الحضور في هذه القضية وهم الحَكَمَان داود وسليمان وكذلك أصحاب الغنم وأصحاب الحرث والزرع، وبيان أن هذا الحكم هو منّة من الله وحده - سبحانه وتعالى -.

١) بتصرف: التحرير والتنوير (١١٧/١٧). التفسير الوسيط للزحيلي (١٦٠٢/٢).

٢) بتصرف: زهرة التفاسير (٤٨٩٩/٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أراء العلماء في الالتفات عن التثنية إلى الجمع:

يقول الإمام الألوسي: «والمعنى إذ يحكمان في حق الحرث إذ نفشت، النفش رعي الماشية في الليل بغير راع كما أن الهمل رعيها في النهار كذلك، فرَعَتهُ وأفسدته وكنا لحكمهم شاهدين أي حاضرين علما، وضمير الجمع قيل: لداود وسليمان والمتخاصمين، الجمع للتعظيم. وقوله لحكمهم يريد داود وسليمان والخصمين لأن الحكم يضاف إلى جميعهم وإن اختلفت جهات الإضافة»[1].

«وقيل المراد الحاكمان والمحكوم عليه فهؤلاء جماعة وفيه الجمع بين الحقيقة والمجاز، فإن الحقيقة إضافة المصدر لفاعله، والمجاز إضافته لمفعوله، ومعنى (شاهدين) حاضرين، والجملة اعتراضية»[2].

«وقيل: وكنا لحكمهم وفي المشار إليهم قولان: أحدهما: داود وسليمان، فذكرهما بلفظ الجمع، لأن الاثنين جمع، هذا قول الفراء. والثاني: أنهم داود وسليمان والخصوم. وإضافة (حكم) إلى ضمير الجمع باعتبار اجتماع الحاكمين والمتحاكمين. (وكنا لحكمهم شاهدين) دليل على أن أقل الجمع اثنان وقيل: المراد الحاكمان والمحكوم عليه، فلذلك قال» لحكمهم»[3].

قوله:(وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ) يقول: وكنا لحكم داود وسليمان والقوم الذين حكما بينهم فيما أفسدت غنم أهل الغنم من حرث أهل الحرث. جمع اثنين، فقال لحكمهم وهو يريد داود وسليمان لأن الاثنين جمع. وجمع الضمير لأنه أرادهما والمتحاكمين إليهما»[4].

١) بتصرف: تفسير الألوسي (٧١/٩). تفسير ابن عطية (٩٣/٤).

٢) بتصرف: فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان (٣٥٢/٨) تفسير البيضاوي (٥٧/٤).

٣) بتصرف: زاد المسير في علم التفسير، ابن الجوزي (٢٠٢/٣). التحرير والتنوير (١١٨/١٧). تفسير القرطبي (٣٠٧/١١). تفسير النسفي (٤١٤/٢).

٤) بتصرف: تفسير الطبري (٤٧٥/١٨). تفسير البغوي (٢٩٨/٣). تفسير الزمخشري (١٢٨/٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

كما يقول الإمام أبو السعود «(وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ) أي لحكم الحاكمين والمتحاكمين إليهما فإن الإضافة لمجرد الاختصاص المنتظم لاختصاص القيام واختصاص الوقوع وقرئ لحكمهما {شاهدين} حاضرين علما والجملة اعتراض مقرر للحكم ومفيد لمزيد الاعتناء بشأنه»[1].

****

١) بتصرف: تفسير أبي السعود (٧٨/٦).

المطلب الرابع: الالتفات عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية:

قال تعالى: (قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾) [الأنبياء: ٥٥].

معنى الآية الكريمة:

قلت: تحدثت الآيات السابقة لهذه الآية الكريمة عن مدى إعطاء الله لنبيه إبراهيم – عليه السلام – الرشاد والهداية والنبوة التي هي أعظم منّة من الله عليه، كما وضحت الآيات أن الله هو الذي أيده بما فيه صلاحه وهداه من قبل موسى وهرون – عليهما السلام -، ووفقه – سبحانه - للحق، وأضاء له سبيل الرشاد، كما أنقذه ربه من بين أيدي قومه الكفرة من عُبّاد الأصنام، وهذا كان تحت علم الله وعنايته له، ثم وصف الله لإبراهيم بأنه صاحب يقين لا يتزعزع، وإيمان بالله وتوحيد له لا منتهى له، فهو لا يشرك بربه شيئا، فهو هو الذي جمع الله له أحسن الفضائل ومكارم الأخلاق وجميل الصفات وأحسنها، وكان هذا حتى قبل البلوغ والنبوة.

فقد قال لأبيه الكافر وكذلك قومه الذين كانوا عاكفين على عبادة التماثيل والأصنام وهم مجتمعون عليها، ويسألهم سؤال تهكم وتبكيت، ما هذه الأصنام التي تقيمون على عبادتها وتعظمونها؟. لكن إبراهيم - عليه السلام- أراد من هذا السؤال هو تنبيه أذهانهم ودعوتهم إلى التأمل في شأن هذه الأصنام، وتحقير أمرها، متجاهلا حقيقتها، وكأنه – عليه السلام – في حواره معهم يشير بذلك إلى أنهم لو تأملوا قليلا لأدركوا تمام الإدراك أن مثل هذه الأحجار والأصنام لا تغنى أبداً عنهم لا قليل ولا كثير.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لكن لما لم يجدوا ما يعول عليه في تعرف حقيقتها لجئوا إلى التشبث بالتقليد الأعمى، وذلك دون حُجَّةٍ أو برهان، فبادروه بالرد أنهم وجدوا آباءهم عابدين لها عاكفين عليها فسرنا على طريقتهم واقتفينا أثرهم ولا يوجد عندنا حجة غير تقليدهم.

«وخلاصة مقالهم: ليس لنا برهان على صحة ما نفعل، وإنما نحن مقلدون للآباء والأجداد، وكفى بهذا سُبّة لهم، فإن الشيطان قد استدرجهم وكاد لهم حتى عفّروا لها جباههم وجدّوا في نصرتها، وجادلوا أهل الحق فيها، وما كان أجدرهم أن يتواروا خجلا وحياء ولا يقولوا مثل هذا.

والتقليد هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجز، والحبل الذي يتشبث به كل غريق وهكذا يجيب المقلدة دائما من أهل الملة الإسلامية إذا أنكر عليهم العالِم بالكتاب والسنة العمل بالرأي الذي يدفعه الدليل.

وقد أجابهم إبراهيم ببيان قبح ما يصنعون، وبَكّتَهم على سوء ما يفعلون. لقد كنتم أيها القوم أنتم وآباؤكم بعبادتكم إياها في ضلال بين، وجور واضح عن سبيل الحق وذلك لمن تأمله بلبه، وفكر فيه بعقله.

فردوا عليه بقولهم يا إبراهيم أجئتنا بالحق الذي يجب علينا أن نتبعه أم أنت من الهازلين؟ فهم بذلك مستبعدين أنهم في ضلال ووهم، ومتعجبين من تضليله إياهم.

وهكذا لما سمعوا منه ما يدل على تحقير آلهتهم، وتضليله إياهم، وشاهدوا منه الجد في القول والغلظة فيه، طلبوا منه الدليل على صدق ما يقول إن كان جادا، ثم ارتقوا من هذا إلى بيان أنه هازل لاعب، كما هو دأبه وعادته من قبل، ولا يقصد بذلك إظهار حق البتة. وقيل إن هذا الرشد الذي أوتيه

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من صغره، الإنكار على قومه في عبادة الأصنام من دون الله، عز وجل»[1].

(قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ) وهو سؤال المزعزع العقيدة، الذي لا يطمئن إلى ما هو عليه، لأنه لم يتدبره ولم يتحقق منه. ولكنه كذلك معطل الفكر والروح بتأثير الوهم والتقليد. فهو لا يدري أي الأقوال حق. والعبادة تقوم على اليقين لا على الوهم المزعزع الذي لا يستند إلى دليل! وهذا هو التيه الذي يخبط فيه من لا يدينون بعقيدة التوحيد الناصعة الواضحة المستقيمة في العقل والضمير. فأما إبراهيم فهو مستيقن واثق عارف بربه، متمثل له في خاطره وفكره»[2].

موضع الالتفات في الالتفات عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية:

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى: (أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ) حيث جاء السياق بالجملة الإسمية في قوله: (أم أنت من اللاعبين..) حيث عدل عن الجملة الفعلية في قوله: (قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ) في قوله: (قالوا أجئتنا..) وكان مقتضى الظاهر أن يقال:(أم أنت تلعب..) ليتوافق السياق، لكنه عدل عن ذلك بطريق الالتفات عن الجملة الفعلية إلى الجملة الإسمية وذلك ليثبتوا له ولمن يسمعهم من أقوامهم الذين هم على الكفر مثلهم، أن إبراهيم ليس صادقاً بل هو يمزح لا يتكلم جاد فهو على الباطل ونحن على الحق - كما يزعمون-.

---

١) بتصرف: تفسير المراغي (٤٤/١٧). تفسير ابن كثير (٣٤٨/٥). تفسير ابن كثير «تفسير القرآن العظيم» أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي. تحقيق: سامي بن محمد سلامة, الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع, الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م. الدر المنثور في التفسير بالمأثور, جلال الدين السيوطي (٦٣٥/٥). الناشر: دار الفكر – بيروت. سنة النشر ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م.

٢) بتصرف: في ظلال القرآن (٢٣٨٥/٤).

سبب الالتفات في الالتفات عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية:

قلت: إن المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات عن الجملة الفعلية إلى الجملة الإسمية حتى يثبتوا لمن على طريقتهم من أقوامهم بأن إبراهيم ليس صادقاً بل هو من جملة الهازلين الكاذبين علينا وعلى آلهتنا فلا تصدقوه فهو على الباطل ونحن على الحق – بزعمهم -.

أراء العلماء في الالتفات عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية:

قال أبو حيان النحوي الأندلسي - رحمه الله -[1] «ولما جرى هذا السؤال وهذا الجواب تعجبوا من تضليله إياهم إذ كان قد نشأ بينهم وجوزوا أن ما قاله هو على سبيل المزاح لا الجد، فاستفهموه أهذا جد منه أم لعب والضمير في قالوا عائد على أبيه وقومه وبالحق متعلق بقولهم أجئتنا ولم يريدوا حقيقة المجيء لأنه لم يكن عنهم غائبا، والحق هنا ضد الباطل وهو الجد، ولذلك قابلوه باللعب، وجاءت الجملة اسمية لكونها أثبت كأنهم حكموا عليه بأنه لاعب هازل في مقالته لهم ولكونها فاصلة»[2].

في قوله:(قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا) استفهام والاستفهام هنا بمعنى النفي، فهو لإنكار الوقوع، ومعناه: ما جئتنا بالحق، بل أنت من اللاعبين، واستأنفوا كلاما جديدا، وحكموا بأنه من اللاعبين أي أنه يهزل بهذا الكلام، ولا يجد، ووصفوه

---

١) أبو حيان أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حيان الغرناطي الأندلسي الجياني، النفزي: من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات. ولد في غرناطة سنة ٦٥٤هـ. ورحل إلى مالقة. وتنقل إلى أن أقام بالقاهرة. وتوفي فيها سنة ٧٤٥هـ بعد أن كف بصره. واشتهرت تصانيفه في حياته وقرئت عليه. من كتبه: البحر المحيط في تفسير القرآن، و منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك والحلل الحالية في أسانيد القرآن العالية وغيرها. بتصرف: الأعلام للزركلي (١٥٢/٧).

٢) بتصرف: البحر المحيط في التفسير (٤٤٣/٧).

بوصف مستمر وهو أنه من اللاعبين، وقد أكدوا لعبه بالجملة الاسمية، وبـ «أنت» ، وبإدخاله في صفوف الهازلين؛ لأنهم لا يعيرون كلامه التفاتا، ولا يجعلون له غاية. وانظر كيف عبر عن الحق بالفعل، وعن اللعب بالجملة الاسمية، لأنه أثبت عندهم»[1].

وقال البيضاوي - رحمه الله - « كأنهم لاستبعادهم تضليله إياهم ظنوا أن ما قاله إنما قاله على وجه الملاعبة، فقالوا أبجدٍّ تقوله أم تلعب به، وذلك استعظاما منهم إنكاره عليهم واستبعادا لأن يكون ما هم عليه ضلالا. وفي إيراد الشق الثاني بالجملة الاسمية الدالة على الثبات إيذان برجحانه عندهم»[2].

وقال الإمام ابن عاشور – رحمه الله - «قالوا أجئتنا بالحق، عبروا عنه بالحق المقابل للّعب وذلك مسمّى الجد. فالمعنى: بالحق في اعتقادك أم أردت به المزح، فاستفهموا وسألوه أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين. والباء هنا للمصاحبة.

والمراد باللعب هنا لعب القول وهو المسمى مزحا، وأرادوا بتأويل كلامه بالمزح التلطف معه وتجنب نسبته إلى الباطل استجلابا لخاطره لما رأوا من قوة حجته، وقد عدل عن الإخبار عنه بوصف لاعب إلى الإخبار بأنه من زمرة اللاعبين مبالغة في توغل كلامه ذلك في باب المزح بحيث يكون قائله متمكنا في اللعب ومعدودا من الفريق الموصوف باللعب»[3].

---

١) بتصرف: تفسير ابن جزي (٢٤/٢). زهرة التفاسير, محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة (٤٨٨٣/٩). دار النشر: دار الفكر العربي.

٢) بتصرف: تفسير البيضاوي (٥٤/٤). تفسير النسفي (٤٠٨/٢). فتح البيان في مقاصد القرآن (٣٤٠/٨).

٣) ()بتصرف: التحرير والتنوير (٩٥/١٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال الإمام محمد أبو زهرة [1]. وغيره «وقد أكدوا لعبه بالجملة الاسمية، وبـ « أنت» ، وبإدخاله في صفوف الهازلين؛ لأنهم لا يعيرون كلامه التفاتا، ولا يجعلون له غاية. وقالوا ذلك استعظاما منهم لإنكاره، واستبعادا لكون ما هم عليه ضلال، وتعجيبا من تضليله إياهم»[2].

« ثم أضربوا عن ذلك وجاؤوا بأم المتضمنة لمعنى بل الإضرابية والهمزة التقديرية فاضربوا ببل عما أثبتوا له وقرروا خلافه على سبيل التوكيد والبت، وذلك أنهم قطعوا أنه لاعب وليس بمُحِقّ البتة لأن إدخالهم إياه في زمرة اللاعبين أي أنت غرق في اللعب داخل في زمرة الذين قصارى أمرهم في إثبات الدعاوى اللعب واللهو على سبيل الكناية. والاستفهام فيه استفهام تعجب واستبعاد؛ أي: قالوا له حين سمعوا مقالته، مستبعدين أنهم في ضلال. كأنهم يقولون إنا لم نسمع بمثل ما قلت من قبل. وقالوا هذا الكلام لما سمعوا مقالته استبعادا لكون ما هم عليه ضلالا وتعجبا من تضليله لهم بطريق التوكيد القسمي وترددا في كون ذلك منه عليه السلام على وجه الجد. وفي إيراد الجملة الاسمية الدالة على الثبات إيذان برجحانه عندهم»[3].

---

١) محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة, ولد سنة ١٣١٥ في المحلة الكبرى التابعة لمحافظة الغربية بمصر, وقد حفظ القرآن الكريم وهو صغير, ثم اختير سنة ١٣٥٢هـ للتدريس في كلية أصول الدين وكلف بتدريس مادة الخطابة والجدل، ثم تدرج أبو زهرة في كلية الحقوق التي شهدت أخصب حياته الفكرية حتى ترأس قسم الشريعة، وشغل منصب الوكالة فيها، اختير الشيخ أبو زهرة عضوًا في مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٣٨٢هـ، وإلى جانب هذا كان الشيخ الجليل من مؤسسي معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة. ألّف ما يزيد عن ٣٠ كتابًا من أهمها «المعجزة الكبرى, وزهرة التفاسير, وغيرها وتوفي رحمه الله ١٣٩٤هـ ترجمته من المكتبة الشاملة.

٢) بتصرف: زهرة التفاسير (٤٨٨٣/٩). البحر المديد (٤٧٠/٣).

٣) بتصرف: تفسير الألوسي (٥٧/٩). تفسير حدائق الروح والريحان (١٢١/١٨). تفسير أبي السعود (٧٣/٦).

قلت: وبعد هذه الإطلالة في كتب المفسرين القدماء أو المحدثين نجد أن هناك شبه إجماع على أن الإتيان بالجملة الإسمية هنا من باب الالتفات وذلك لدفع تهمة الضلال عن أنفسهم مع أنهم متأكدون أنهم على الباطل لكنهم يجادلون عن أنفسهم بقولهم للنبي إبراهيم – عليه السلام – أنت لست جادّ بل أنت ضمن الهازلين الذين يتكلمون بغير الحق.

****

الفصل الثاني

الالتفات في سورة الحج

المبحث الأول
حول سورة الحج

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المطلب الأول: السورة وعدد آياتها ومكيتها وترتيبها:

سورة الحج ليس لها اسم غير هذا الاسم (الحج). وسميت بسورة الحج وذلك لإعلان فريضة الحج فيها على الناس، على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام: وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ بعد بناء البيت العتيق، فأذّن حتى بلغ صوته أنحاء الأرض - بإذن الله -، وأسمع حتى النُطف التي في الأصلاب والأجنة التي في الأرحام إلى يوم القيامة، وأجابوا النداء: (لبيك اللهم لبيك).

وقد اختلف أهل العلم: في عدد آياتها فقيل: عدد آياتها أربع وسبعون في العدّ الشامي، وخمس في العدّ البصري، وست في العدّ المدنيين، وسبع في العدّ المكي، وثمان في العدّ الكوفي[1].

أما عن مكيتها فالسورة مكية سوى ثلاث آيات قوله (هَـٰذَانِ خَصْمَانِ)[سورة الحج: ١٩]. إلى تمام ثلاث آيات قاله ابن عباس وآياتها ثمان وسبعون آية وقيل: مكية، غير ست آيات، وهي: هذان خصمان ... إلى قوله ... إلى صراط الحميد وهي ثمان وسبعون آية فقد نزلت بالمدينة في الذين تبارزوا يوم بدر. هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، إلا أن ابن عباس رضي الله عنهما لم يذكر إلى أين ينتهين، وذكره عطاء[2].

١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي (١٤٨/١٧)، الناشر: دار الفكر المعاصر - دمشق، الطبعة: الثانية ١٤١٨هـ. مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور, ويسمى: «المقصد الأسمى في مطابقة اسم كل سورة للمسمّى»، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي (٢٩٣/٢)، دار النشر: مكتبة المعارف - الرياض الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م. فتح القدير, الشوكاني (٥١٣/٣).

٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز, عبد الحق بن غالب المعروف بابن عطية (١٠٥/٤)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت طبعة: أولى- ١٤٢٢هـ تفسير الزمخشري (١٤١/٣). تفسير البيضاوي (٦٤/٤)، فنون الأفنان في عيون علوم القرآن, أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (ص: ٢٩٥). دار النشر: دار البشائر - بيروت – لبنان, الطبعة الأولى. ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من حيث الترتيب جاءت سورة الحج في ترتيب المصحف بعد سورة الأنبياء وقبل سورة المؤمنون. وفي ترتيب النزول فقد نزلت بعد النور [1]، وقيل بعد سورة الرعد وقبل سورة الرحمن[2].

قلت: إن سورة الحج هي السورة الوحيدة التي سميت باسم ركن من أركان الإسلام الخمسة المعروفة والمعلومة بالضرورة والتي يكفر جاحدها. ومن هنا تبرز قيمة الحج فالحج هو مفتاح معانيها. لكننا إذا قرأنا سورة الحج بتمعن وتدبر من أولها لوجدنا أنها تتكلم عن يوم القيامة، والبعث والنشور وهي الأمور الغيبية التي يكذب بها الكفار ويصدق بها المؤمنون بالله، ولذا فهي الحد الفاصل بين الإيمان والكفر وهذا ما أكدت عليه الآيات الأولى في السورة الكريمة.

ثم تنتقل الآيات إلى الجهاد في سبيل الله، ثم العبودية والخضوع والانقياد لله تبارك وتعالى، وأن الله تعالى يسجد له من في السماوات والأرض...

كما أن في السورة تذكِرة عملية هامة أرادت السورة بيانه بل والتأكيد عليه، حيث بدأت السورة بداية شديدة في تذكيرها بيوم القيامة ففي الآية الأولى منها الحديث عن الحج ومشاهد الآخرة وقُرب ما في الحج من مناسك ومشاهد بما يتناسب مع يوم القيامة وما فيه. ثم تبدأ الآيات بعد ذلك في وصف أهوال ذلك اليوم – يوم القيامة - كأنك تراها أمام عينيك.

ثم تنتقل الآيات إلى البعث، والخروج من القبور، عندما يخرج الناس من قبورهم والتراب يعلو وجوههم وأجسادهم، فهي بهذا تذكرنا أن أصل الناس

---

١) التسهيل لعلوم التنزيل, أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد المعروف بابن جزي الكلبي (٢/٣٢). تحقيق: الدكتور عبد الله الخالدي, الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم – بيروت, الطبعة: الأولى-١٤١٦هـ

٢) التفسير الحديث, محمد عزت دروزة (٦/٧). الناشر: دار إحياء الكتب العربية – القاهرة, الطبعة: ١٣٨٣هـ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

كلهم إنما هو من التراب الذي خُلقوا منه فلا يصح منهم التكبر على الخلق.

كما أن في الحج عندما تنظر لنفسك بعد يومين من ارتداء ملابس الإحرام، ترى أنك أصبحت كتلة من التراب. فإذا نويت المبيت في مزدلفة، ترى الكثير من الناس تعباً شديدا يراه الجميع وواضح على الجميع، تشبيه له كأنه ميت فعلاً. فإذا أتى وقت الفجر يستيقظ الناس كأنهم يبعثون من القبور، الكل يلبس الثياب البيض ويتحرك لرمي الجمرات... لذلك تأتي الآيات لتذكر الناس بالبعث من القبور. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [سورة الحج: ٧].

ثم يأتي الحديث المستفيض عن مناسك الحج وبيان أنه غاية مهمة في طاعة الإنسان المسلم لله تعالى. ثم تنتقل الآيات بعد ذلك إلى ذكر مناسك الحج المختلفة، لتأتي خلالها الآية المحورية قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [سورة الحج: ٣٢].

ثم الحج والجهاد فتأتي بعد آيات الحج مباشرة آيات الجهاد في سبيل الله: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الحج: ٣٨]. ثم الإذن بالقتال للذين ظُلموا من الكفار قوله تعالى:﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[سورة الحج: ٣٩].وكأن المعنى: الذي تُشير إليه الآيات تعليم الناس أن الحج تدريب أساسي على الجهاد في سبيل الله.

ثم الحديث عن الحج والخضوع والاستسلام لله. وإن من أهم معاني الحج وروعته أنه يجعلك تستشعر أن الكون كله عبد لله. تشعر كل شيء من حولك يسجد لله. وهذا ما نراه بوضوح في قوله تعالى: ﴿تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ)[سورة الحج: ١٨].

ثم الحديث الروحاني التعبديّ وبيان أن حياة الأمة... بين سجدتين. والتي ترى فيها قوله تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ)[سورة الحج: ٧٧]. **وهذه الآية كانت موجهة للأمة كلها.**

****

المطلب الثاني: علاقة سورة الحج بسورة الأنبياء قبلها:

أما عن مناسبة سورة الحج لما قبلها سورة الأنبياء أنه تعالى لما ذكر في السابقة عليها حال الأشقياء والسعداء وذكر الفزع الأكبر وهو ما يهول يوم القيامة وكان مشركو مكة قد أنكروا المعاد وكذبوه بسبب تأخر العذاب عنهم فنزلت هذه السورة تحذيراً لهم وتخويفاً لما انطوت عليه من ذكر زلزلة الساعة وشدة هولها وذكر ما أعد لمنكريها وتنبيههم على البعث بتطويرهم في خلقهم وبهمود الأرض واهتزازها بعد بالنبات والظاهر أن قوله: يا أيها الناس عام ونبه تعالى على سبب اتقائه وهو ما يؤول إليه من أهوال الساعة»[1].

وقال السيوطي – رحمه الله -: «وجه اتصالها بسورة الأنبياء أنه ختمها بوصف الساعة في قوله: (وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟)[2]، وافتتح سورة الحج بقوله: (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ)[3].

وقال البقاعي: «لما افتتحت سورة الأنبياء بقوله تعالى: (ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١)[4]، وكان واردا في معرض التهديد، وتكرر في مواضع منها كقوله تعالى: (وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝٤٧)[5].

---

١) النهر الماد من البحر المحيط , أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الأندلسي (٣/٢٢). تحقيق عمر الأسعد, طبعة دار الجيل, الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية – دار الجنان – بيروت – لبنان, الطبعة: الأولى ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م.

٢) سورة الأنبياء, الآية (٩٧).

٣) سورة الحج, الآيات (١: ٢).

٤) سورة الأنبياء, الآية (١).

٥) سورة الأنبياء, الآية (٤٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقوله تعالى: (وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ)[1] وقوله تعالى: (يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ)[2]. إلى ما تخلل هذه الآي من التهديد، وشديد الوعيد، حتى لا تكاد تجد أمثال هذه الآي في الوعيد والإنذار بما في الساعة وما بعدها وما بين يديها في نظائر هذه السورة، وقد ختمت من ذلك بمثل ما به ابتدأت، اتصل بذلك ما يناسبه من الإعلام بهول الساعة وعظيم أمرها، فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ)[3].

إلى قوله: (وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾)[4]. ثم اتبع ببسط الدلالات على البعث الأخير وإقامة البرهان (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ)[5] الآيات، ثم قال (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ)[6]. أي اطرد هذا الحكم العجيب ووضح من تقلبكم من حالة إلى حالة في الأرحام وبعد خروجكم إلى الدنيا وأنتم تعلمون ذلك من أنفسكم، وتشاهدون الأرض على صفة من الهمود والموت إلى حين نزول الماء فنحيي ونخرج أنواع النبات وضروب الثمرات وكل هذا بيان ودلالة على أن الله هو الخالق الحق - سبحانه وتعالى - (ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ)[7] وأن الله كما أحياكم أولا وأخرجكم من العدم إلى الوجود وأحيا الأرض بعد موتها وهمودها، كذلك تأتي الساعة من غير ريب ولا شك، ويبعثكم لما وعدكم من حسابكم وجزائكم[8].

****

١) سورة الأنبياء، الآية (٤٩).
٢) سورة الأنبياء الآية (١٠٤).
٣) سورة الحج الآية (١).
٤) سورة الحج الآية (٢).
٥) سورة الحج الآية (٥).
٦) سورة الحج الآية (٦).
٧) سورة الحج الآية (٦).
٨) بتصرف: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي (٢/١٣). الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت – ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المطلب الثالث: ما تحدثت عنه السورة إجمالا:

إن سورة الحج تعتبر من أعاجيب السور، نزلت ليلا ونهارا، سفرا وحضرا، مكيا ومدنيا، سلميا وحربيا، محكما ومتشابها، وحربي وسلمي، وناسخ ومنسوخ.

فالمكي من رأس الثلاثين إلى آخرها، والمدني من رأس خمس عشرة إلى رأس الثلاثين، والليلي خمس آيات من أولها، والنهاري من رأس تسع آيات إلى رأس اثنتي عشرة آية.. والحضري إلى رأس العشرين. والسفري أولها. والناسخ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ ﴿٣٩﴾﴾ والمنسوخ: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ ﴿٦٩﴾﴾ نسختها آية السيف. وقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ ﴿٥٢﴾﴾ نسختها آية ﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ ﴾[1].

وقد افتتحت سورة الحج كما هو شأن السور المكية افتتحت بما يهز المشاعر، وينشر الرعب والخوف في القلوب من أهوال يوم القيامة وما فيه من شدائد وكُرُبات. ومن ثم انتقلت السورة إلى بيان أدلة واقعية يعيشها كفار مكة للبعث والنشور وإتيان القيامة، وبيان بعض مشاهدها من جعل الأبرار في دار النعيم، وزجّ الكفار في نار الجحيم، وإعلان خسارة المنافقين المضطربين الذين لا يعرف لهم قرار ولا اتجاه.

ثم أبانت حرمة المسجد الحرام، وفرضية الحج ومنافعه، وحرماته وشعائره، ومناسكه وذبائحه، وأردفت ذلك بالحديث المقنع عن أسباب فرضية القتال، ومقومات النصر على الأعداء، مع تسلية الرسول صلّى الله عليه وسلم عما ناله من أذى قومه، وتكذيبهم له، والتعريف بحال أهل القرى

١) بتصرف: معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي (١/٣٦٤).

الظالمة التي أهلكها الله، وجعل العاقبة للمتقين، وتحديد مهمة النبي صلّى الله عليه وسلم وهي إنذار مكذبي القرآن بالنار، وتبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات بالجنة والنعيم، وإظهار مدى فضل الله على المهاجرين وإثابتهم.

ثم أردف ذلك بالتذكير بسماحة الإسلام، وأن الدين يسر لا عسر، ثم أمرهم بالاعتصام بدين الله والقرآن والإسلام، وبيان أن الرسول شهيد على أمته يوم القيامة، وأن أمته تشهد على الأمم المتقدمة بتبليغ أنبيائهم لهم دعوة الله وتشريعه، وتلك مزية سامية لهذه الأمة[1].

والذي يغلب على السورة هو موضوعات السور المكية، وجو السور المكية. فموضوعات التوحيد والتخويف من الساعة، وإثبات البعث، وإنكار الشرك. ومشاهد القيامة، وآيات الله المبثوثة في صفحات الكون.. بارزة في السورة وإلى جوارها الموضوعات المدنية من الإذن بالقتال، وحماية الشعائر، والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغي وهو يرد العدوان، والأمر بالجهاد في سبيل الله. والظلال الواضحة في جو السورة كلها هي ظلال القوة والشدة والعنف والرهبة. والتحذير والترهيب واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والاستسلام والإذن للمسلمين بالقتال وضمان النصر والتمكين في الأرض لهم، وختمت السورة بتذكير الناس بنعم الله عليهم وأن الله اصطفى خلقا من الملائكة ومن الناس فأقبل على المؤمنين بالإرشاد إلى ما يقربهم إلى الله وأن الله هو مولاهم وناصرهم.

وفي السورة إنذار بالقيامة وهولها، وتدليل على قدرة الله على بعث الناس

١) بتصرف: التفسير المنير للزحيلي (١٤٩/١٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومحاسبتهم. وتنديد بفئات من الكفار وذوي القلوب المريضة وتنويه بالمؤمنين.

وإنذار رهيب وتوبيخ للكفار على صدهم عن المسجد الحرام. وبيان عن صلة إبراهيم بالكعبة والحج. وتقرير ما يمكن أن يكون من سعادة المجتمع إذا تمكنوا في الأرض حيث

يقيمونه على أساس قويم من صلاة وزكاة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر[1].

ومن هنا يتبين أن السورة بحسب موضوعاتها أقسام ثلاثة:

(1) البعث والدليل عليه وما يتبع ذلك.

(2) الحج والمسجد الحرام.

(3) أمور عامة كالقتال وهلاك الظالمين والاستدلال بنظام الدنيا على وجود الخالق وضرب المثل بعجز الأصنام وعدم استطاعتها خلق الذباب وخلاصة مقصود السورة: الحث على تقوى الله تعالى[2].

****

١) التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور (١٨٥/١٧).
الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس سنة النشر: ١٩٨٤هـ والتفسير الحديث، دروزة (٧/٦).

٢) تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (٨٣/١٧). الناشر: شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر الطبعة: الأولى، ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م. مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، ويسمى: «المقصد الأسمى في مطابقة اسم كل سورة للمسمى» برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي الشافعي (٢٩٤/٢). دار النشر: مكتبة المعارف - الرياض الطبعة الأولى: ٨ - ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المبحث الثاني
الالتفات في الضمائر في سورة الحج

المطلب الأول: في الالتفات من الغيبة إلى التكلم:

قال تعالى:(ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾**)**[1]**.**

المعنى العام للآية الكريمة:

بعد أن ذكر سبحانه أن تعظيم الشعائر من أعظم دعائم التقوى، وأن محل نحرها هو البيت العتيق- قفّى على ذلك ببيان أن الذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى ليس بخاص بهذه الأمة، بل لكل أمة مناسك وذبائح تذكر بالله حين ذبحها والشكر له على توفيقه لإقامة هذه الشعائر، فالإله واحد والتكاليف تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والمصالح، وبعدئذ أمر رسوله أن يبشر المتواضعين الخاشعين لله الذين يقيمون الصلاة وينفقون مما رزقناهم بجنات تجرى من تحتها الأنهار[2]**.**

قلت: وصف اللَّه – سبحانه وتعالى - المخبتين الذين بشرهم بالجنة وأنه عباد الله بصفات أربع هذه هي جماع خصال المؤمن الذي هذبت نفسه، وتجمل بالصبر، وأقام الصلاة، وأنفق مما رزقه اللَّه تعالى.

الخلة الأولى: (إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ**)، (الوجل) الخوف والخشية من اللَّه، لَا لأنهم كثيرو الذنوب، إنما هو لاستصغار حسناتهم، واستكثار سيئاتهم وتصورها، فهم من اللَّه تعالى القوي القهار في وجل، ومن خاف اللَّه حذر مخالفته، وحاول طاعته، وسعى في مرضاته، والوجل صفة أهل الإيمان كما**

١) سورة الحج, الآية (٣٥).

٢) بتصرف: تفسير المراغي (١١٢/١٧).

قال تعالى: (إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ)[1]، وقال تعالى: (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ)[2] وهذه حال الذين يعرفون الله ويتقونه حق تقاته. الخلة الثانية من أوصاف المخبتين الصبر؛ ولذا قال تعالى: (وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ) [سورة الحج: ٣٥]. والصبر ضبط النفس، وسيطرة العقل، فإذا أصابهم أمر من أمور الدنيا المزعجة لا يهلعون ولا يفزعون، ويضبطون أنفسهم، فلا يكون عليهم شهوة جامحة، فلا يكون الهوى سيدا مطاعا، بل تكون الشهوة أمة لَا سيطرة لها، وإن كل شيء من مصائب الدنيا يهون أمام الصابر. والخلة الثالثة: إقامة الصلاة، أي أداؤها مقومة كاملة في ظاهرها وباطنها، فتكون النفس خاشعة خاضعة قانتة تحس النفس بروعتها، وأنها في حضرة ذي الجلال والإكرام وتمتلئ النفس بهيبته، وتخشع لعظمته؛ ولذا قال تعالى: (وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ) عبر باسم الفاعل لبيان أن الصلاة صارت شأنا من شئونه لا يتخلف عنها، والصلاة والصبر فيهما عون للمؤمن على الطاعة، قال تعالى: (وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ) [سورة البقرة: ٤٥].

والخلة الرابعة: الاتجاه إلى التعاون الاجتماعي، وذلك بمعونة الفقير، وسد الحاجات الاجتماعية والحربية، وهذا قوله تعالى: (وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ) [سورة البقرة: ٣]. والإنفاق يشمل الزكاة المفروضة، والصدقات المنثورة، والصدقات تكفر الذنوب، ويشمل الذنوب والكفارات، ويشمل الإنفاق في الجهاد كما قال

١) سورة الأنفال, الآية (٢).
٢) سورة الزمر, الآية (٢٢).

تعالى:(وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ)[1]؛ لأن ترك الإنفاق في الجهاد يؤدي إلى التهلكة والانهزام.

يقول الشيخ أبو زهرة – رحمه الله - وقد تقدم قوله تعالى: (وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ) على الفعل؛ لبيان أن الإنفاق مما رزقهم الله وحده فليس من جهودهم ولا أعمالهم ولكن من توفيق الله تعالى، ومن رزقه الذي رزقه إياهم. وإن الإنفاق بكل أنواعه التي أشرنا إليها هو من باب التعاون الاجتماعي في السلم والحرب[2].

موضع الالتفات في الالتفات من الغيبة إلى التكلم:

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى:(ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ) بصيغة الغيبة حيث التفت من الغيبة إلى التكلم في قوله تعالى:(رَزَقْنَٰهُمْ) التي جاءت بصيغة التكلم، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: { ومما رزقهم الله ينفقون } ليتوافق مع قوله تعالى: (ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ) لكن السياق القرآن يعدل عن ذلك لسبب بلاغي، هو مدح الله تعالى للمخبتين وإظهار منّته تعالى على عباده.

سبب الالتفات في الالتفات من الغيبة إلى التكلم:

والمتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات هو المدح للمخبتين لربهم وإظهار منة الله على عباده، وبيان جليل عظمة الله لذا جاء الاسلوب إلى المتكلم.

وبمطالعة كتب التفسير يتبين أن التعبير بصيغة الغائب عن هؤلاء المخبتين

---

١) سورة البقرة, الآية (١٩٥).

٢) بتصرف: زهرة التفاسير, محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة (٤٩٨٦/٩). دار النشر: دار الفكر العربي.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مدح لهم وتعظيم وإجلال لفعلهم هذا وحصول الوجل منهم عند الذكر له سبحانه دليل على كمال يقينهم وقوة إيمانهم، فوصفهم –سبحانه- بقوله: (ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ) أي: خافت وحذرت مخالفة ربها، وحصول الوجل منهم عند الذكر له ووصفهم بالصبر على ما أصابهم من البلايا والمحن في طاعة الله ثم وصفهم بإقامة الصلاة أي: الإتيان بها في أوقاتها على وجه الكمال»[1].

ومن إشارات المعنى في الغيبة في مدح هؤلاء الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، أي: خافت منه هيبةً منه – سبحانه وتعالى - لإشراق أشعة جلاله عليها. والصابرين على ما أصابهم من مشاق التكاليف ومصائب الزمان والنوائب، والمقيمي الصلاة في أوقاتها، ومما رزقناهم ينفقون في وجوه الخيرات[2].

وفي التعبير بالغائب عن هؤلاء المؤمنين سر عجيب لطيف قل من تنبه إليه؛ وهو أنه قد أتبع صفة المخبتين بأربع صفات وهي: وجل القلوب عند ذكر الله، والصبر على الأذى في سبيله، وإقامة الصلاة، والإنفاق. وكل هذه الصفات الأربع مظاهر للتواضع[3].

فمن كانت هذه صفته كان حضوره في الذكر أو غيبته متساويين ، فالمناسبة بين هذه الصفات التي جاءت في صيغة الغائب الدلالة على أنهم أهل غيبة عن شهود حظ لأنفسهم، وهو سر عجيب فتأمله ، وهو مصوغ بلغة القوم سقا الله مرابعهم وديارهم غيث الخير.

ويقال أيضا: وجلت وخشيت قلوبهم خوفا من قهره وغضبه ومن حول

١) فتح القدير, الشوكاني (٥٣٥/٣).

٢) بتصرف: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد, أحمد بن محمد بن عجيبة (٣/ ٥٣٣). تحقيق: أحمد القرشي رسلان الناشر: الدكتور حسن عباس زكي, القاهرة, طبعة:١٤١٩هـ

٣) بتصرف: التحرير والتنوير, ابن عاشور (٢٦١/١٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صفات جلاله وسطوة سلطنته وكبريائه وأيضا الصابرين على ما أصابهم من المصيبات والبليات التي قد جرى حكم الله عليها في سابق قضائه والمقيمي الصلاة المفروضة بأوقاتها المحفوظة مع شرائطها وأركانها المخصوصة وآدابها المسنونة تقربا اليه وتوجها نحوه بكمال الخضوع والخشوع والتذلل والانكسار[1].

وقد صرح بهذا بعض العلماء بالالتفات فقال:» جاء الالتفات في(ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ) إلى(رَزَقْنَٰهُمْ) التفات عن الغيبة إلى التكلم»[2].

وقد جاء تقديم المفعول(رَزَقْنَٰهُمْ) في قوله تعالى:(وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ) على الفعل ينفقون؛ للاهتمام به، وللدلالة على كونه أهم، ولإفادة الاختصاص، ولتناسب رؤوس الآي[3].

وفيه نكتة بديعة وهو أن الرزق منه – سبحانه - ثم نسبه إليهم إنفاقا ووجه تمدحه لهم أنهم ينفقون على الوجه الذي قد أمرهم به وعلى المصارف المذكورة المأمورة لهم في قوله سبحانه انما الصدقات للفقراء الآية متقربين بها الى الله ناوين الوصول الى جنة وحدته، وفي التعبير بـ (من) التي للتبعيض إشعار بسهولة ما أمر الله به ورغب فيه، وأنه جزء يسير مما رزق الله، ليس للعبد في تحصيله قدرة، لولا تيسير الله له ورزقه إياه فيا أيها المرزوق من

---

١) بتصرف: الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية, نعمة الله بن محمود النخجواني، المعروف بالشيخ علوان (٥٥٤/١). الناشر: دار ركابي للنشر - الغورية، مصر, الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢) بتصرف: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية د. حسن طبل (ص: ١٩٩).

٣) بتصرف: الكشاف, الزمخشري (٤٠/١)، السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير, شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (١٨/١), الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية) – القاهرة, سنة النشر: ١٢٨٥هـ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فضل الله، أنفق مما رزقك الله، ينفق الله عليك، ويزدك من فضله[1].

فإن الأمر زيادة النفقة ربما كان مقعدا عنه، فرغب فيه بقوله: (وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ) فهم لكونه نعمة منا لا يبخلون به، ولأجل عظمتنا يحسنون ظن الخلف ﴿ينفقون﴾ أي يجددون بذله على الاستمرار، بالهدايا التي يغالون في أثمانها وغير ذلك، إحسانا إلى خلق الله، امتثالا لأمره كالخبت الباذل لما يودعه تعالى فيه من الماء والمرعى[2].

في ضوء ما سبق يتضح سر هذا الالتفات إلى التكلم، أنه لما تعلق الأمر بالنفقة، وطبيعة الإنسان مائلة إلى الحرص على المال، حتى عبر القرآن عن ذلك بقوله: (وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾) [سورة الفجر: ٢٠]. فناسب ذلك الانتقال إلى المتكلم بما يعود إليه – جل وعلا – إظهارا لمنته، ولجليل عظمته، فهو الذي يرزقك، وكفى به رزاقا، وإن العبد إذ يعلم أنه ينفق لوجه الكريم العظيم الرزاق، فإنه ينفق عن طيب نفس، لاسيما وأنه يعلم أن الصادق المصدوق الذي لا يحتاج إلى قسم؛ قد أقسم على أن مال العبد لا ينقص من صدقة، ولا صدقة تنقص من مال، بل تنميه وتربيه وتزيده (وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ) [سورة البقرة: ٢٧٦]. فكان في الالتفات إلى المتكلم تذكير للعبد بأن الرزق من الله، وأن المال مال الله، تذكير بنعمة الله ومنته وعظمته على عباده ، وأن الخير منه وإليه، هو استخلفك واسترعاك فيه، ومن كان هذا حاله ذلا وخضوعا وانكسارا وتذللا ناسب الحديث عنه بصيغة الغائب، وأعظم هذه الأعمال أثرا وذكرًا ما كان حاصلا عن غيبة عن شهود العمل.

****

١) بتصرف: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان, عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ص: ٥٣٨). تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق, الناشر: مؤسسة الرسالة, الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٢) بتصرف: نظم الدرر, البقاعي (٤٩/١٣).

المطلب الثاني: في الالتفات من الغيبة إلى التكلم:

قال تعالى:(ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ٤١ **)**[1]

المعنى العام للآية:

بعد أن ذكر – سبحانه - سبب الإذن فقال: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ **)**[2]**. والمعنى: أنه قد وقع ظلم الظالمين من كفار مكة، على المؤمنين الموحدين بالإخراج من الديار، والأذى لهم وكل هذا كان بغير حق.**

ولما أراد الله إظهار دينه بهم، عطف عليه قوله: (وَإِنَّ ٱللَّهَ **) أي الذي هو الملك الأعلى، وكل شيء في قبضته قال تعالى: (** إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ٣٨ **) [سورة الحج: ٣٨]. (**وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ**) أي بإذنه لهم في القتال، وأبلغ في التأكيد لاستبعاد النصرة إذ ذاك بالكفار من الكثرة والقوة، وللمؤمنين من الضعف والقلة، ثم وصفهم بما يبين مظلوميتهم على وجه يجمعهم ويوثقهم بالله فقال: (**ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ **) إلى الشِّعب والحبشة**

١) سورة الحج, الآيتان (٤٠: ٤١).
٢) سورة الحج, الآية (٣٩).

والمدينة وبغير حق يوجب عليهم ذلك، إلا أنهم يقولوا ربنا الله المحيط بصفات الكمال، الموجب لإقرارهم في ديارهم، وحبهم ومدحهم واقتفاء آثارهم. ثم لما ذكر مدافعته وذكر أنها تكون بالمؤمنين، بيّن سرها عموما ليفهم منها هذا الخاص، وصورها تقريبا لفهمها، فقال عاطفا على ما تقديره: فلولا إذن الله لهم بالقتال لاستمر الشرك ظاهرا، والباطل قاهرا:(وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا) أي المحيط بكل شيء علما وقدرة في كل شريعة، وفي زمن كل نبي أرسله لجميع الناس عموما ودفع بعضهم ببعض وذلك بتسليط بعضهم على بعض ومدافعة بعضهم لبعض لتهدمت صوامع وهي معابد صغار مرتفعة للرهبان وبيعٌ للنصارى وكذلك صلوات أي كنائس لليهود، ومساجد للمسلمين، أخرها لتكون بعيدة من الهدم قريبة من الذكر يذكر فيها اسم الله – سبحانه - أي الملك الذي لا ملك غيره، ولعل العدول عن الإضمار إلى الإظهار للإشارة إلى اختلاف ذكره تعالى في الأماكن المذكورة بالإخلاص وغيره، ونظراً لأن كل فرقة تريد هدم ما للأخرى، بل ربما أراد بعض أهل ملة إخراب بعض معابد أهل ملته هو، فيدفعه الله بمن يريد من عباده، وإذا تأملت ذلك وجدت فيه من الأسرار، ما يدق عن الأفكار، فإنه تعالى لما أراد بأكثر الناس الفساد، نصب لهم من الأضداد، ما يخفف كثيرا من العناد. ولكن لم تهدم هذه المذكورات، لأن الله دفع بعضهم ببعض، وجعل بعضهم في نحور بعض،(وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ) أي الملك الأعظم، وأظهر ولم يضمر تعميما وتعليقا للحكم بالوصف لذا قال من ينصره كائنا كم كان منهم ومن غيرهم، بما يهيئ له من الأسباب، إجراء له على الأمر

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المعتاد، وبغير أسباب خرقا للعادة، كما وقع في كثير من الفتوحات[1].

فالله يدفع الشرّ عن عباده المصدّقين بوجوده ووحدانيته، وبما أنزل على رسوله الكريم بالذين توكلوا عليه حق التوكل، وإن الله – سبحانه - يسخط على خائن العهد والأمانة، وجاحد النعمة والفضل. وكلمه سبحانه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]. في مواجهة من يتعرض للمؤمنين بالأذى، فيكون فعل الله مدافعة عنهم.

وقد أبيح أو رُخّص للمؤمنين المعتدى عليهم بممارسة القتال، ضد ظلم المشركين إياهم، بإخراجهم من ديارهم وأموالهم، واستمرار إيذائهم، واضطهادهم، ومبادرتهم بكل أنواع التعذيب والمضايقة، وإن الله وحده قادر على نصر أهل الإيمان، إذا ما التزموا سبيل الطاعة، وإن هؤلاء المؤمنين بالله ورسوله المعتدى عليهم إنما هم الذين أخرجهم المشركون من مكة إلى المدينة بغير حق، وهم محمد صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه، ولم يكن منهم إساءة إلى قومهم، ولا ذنب إلا أنهم عبدوا الله وحده لا شريك له، فيكون أول أسباب مشروعية الجهاد أو القتال في الإسلام، هو الطرد من الأوطان بغير حق، ثم الدفاع عن حرية العبادة في الأرض، وحماية المقدسات، ثم ذكر الله تعالى السّنة الثابتة للإله وهي سنة التدافع، من أجل الحفاظ على مبدأ التوازن بين البشر، فلولا أنه تعالى يدفع بقوم عن قوم، ويكف شرور جماعة بآخرين، ولولا تشريع القتال دفاعا عن الوجود المؤمن والحرمات الإلهية، لهدّمت مواطن العبادة، سواء أكانت معابد لليهود أم النصارى أم للمسلمين، ثم أكد الله تعالى صنعه أنه ليؤيدن بنصره الذين يقاتلون في سبيل

١) بتصرف: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (٥٦/١٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إعلاء كلمة التوحيد، ورفع لواء الدين الحق، إن الله سبحانه هو القوي القادر على نصر أهل طاعته، المجاهدين في سبيله، العزيز المنيع الذي لا يقهر ولا يغالب، فمن غالبة غلبه، ومن عاداه خذله وقهره، كما أن الجديرين بالنصر هم الذين إن مكنّهم الله في الأرض، وحقق لهم السلطة على الناس، ومنحهم النفوذ والهيمنة، قاموا بأمور أربعة: هي إقامة الصلاة المفروضة على الوجه الأكمل، وإيتاء الزكاة الواجبة، والأمر بالمعروف (وهو فعل كل ما أمر به الله شرعا، وحسن عقلا) والنهي عن المنكر (وهو اجتناب كل ما حظر شرعا، وقبح عقلا) فدعوا إلى توحيد الله وإطاعته، ونهوا عن الشرك وقاوموا أهله، والمرجع في الأمور كلها إلى حكم الله العلي القدير، وإلى تقديره في منح الثواب، وتنفيذ العقاب على ما عملوا، وفي هذا تأكيد لوعد الله تعالى بنصر أوليائه، وإعلاء كلمته، وخذلان أعدائه[1].

موضع الالتفات في الالتفات من الغيبة إلى التكلم:

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى: (وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ) بصيغة الغيبة إلى قوله تعالى:(ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ) بصيغة التكلم، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (الذين إن مكنهم الله) ليتوافق مع قوله تعالى: (وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ) فيكون السياق كاملا بأسلوب الغائب، لكنه عدل عن ذلك وتحول إلى أسلوب المتكلم فقال مكناهم. وهذا لسرّ بلاغي هو ضعف المهاجرين بأنفسهم وقوتهم بالله القوي العزيز - سبحانه وتعالى-وحده.

١) بتصرف: التفسير الوسيط للزحيلي, د. وهبة بن مصطفى الزحيلي, (١٦٥٢/٢). الناشر: دار الفكر– دمشق, الطبعة: الأولى - ١٤٢٢هـ

سبب الالتفات في الالتفات من الغيبة إلى التكلم:

والمتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات هو بيان ضعف وعجز الذين أخرجوا من ديارهم في بداية أمرهم.

وبالبحث في كتب التفسير يتبين أن التعبير بصيغة الغائب عن هؤلاء الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله فيه دلالة على ضعفهم وقهر المشركين لهم، فالتعبير بالغيبة عنهم أدخل في بيان ضعفهم وعجزهم بادئ الأمر[1].

والمعنى: (ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ) أي أولئك المظلومون هم الذين أخرجهم المشركون من مكة إلى المدينة وعذبوا بعضهم وسبوا بعضا آخر، وما كان لهم من إساءة إليهم ولا ذنب جنوه إلا أنهم عبدوا الله وحده لا شريك له.

والخلاصة إنه لولا ما شرعه الله للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء، وإقامة حدود الأديان، لاستولى أهل الشرك على مواضع العبادة وهدموها، وقد يكون المراد لولا هذا الدفع لهدمت في زمن موسى الكنائس، وفى زمن عيسى الصوامع والبيع، وفى زمن محمد - صلى الله عليه وسلم - المساجد، أي هؤلاء الذين أخرجوا من ديارهم هم الذين إن مكنا لهم في البلاد، فقهروا المشركين وغلبوهم عليها- أطاعوا الله فأقاموا الصلاة على النحو الذي طلبه، وأعطوا زكاة أموالهم التي حباها لهم، ودعوا الناس إلى توحيده، والعمل بطاعته، وأمروا بما حثت عليه الشريعة، ونهوا عن الشرك[2].

فبين الله هنا حال قوم مكنوا تمكينًا لا يتوخى فيه استعلاء ولا استغلال ولا

١) بتصرف: تفسير المراغي (١١٦/١٧).

٢) بتصرف: تفسير المراغي (١١٨/١٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ابتزاز ولا استكبار، ولا يكون فيه ظلم وبغي وتحكم واستعباد وإنما يتوخى فيه إقامة الدين والصلاة لله وحده، وإعطاء الزكاة للفقراء والمحتاجين والمحرومين مما يتحقق به العدل الاجتماعي، ثم الأمر بكل ما هو معروف فيه الخير والبر والصلاح والحق والعدل والمساواة، والنهي عن كل ما هو منكر فيه الشر والفساد والبغي والبطالة والجور والهوان والظلم والفجور والرجس، وبكلمة أخرى تمكينا يقوم في ظله المجتمع الإنساني الفاضل. فكأن فحوى الآية الأخيرة وروحها تقرير كون ما يفعله المسلمون حينما يمكنهم الله في الأرض هو من الخصائص التي أهلهم دين الله لها[1].

في ضوء ما سبق يتبين أن الالتفات من الغيبة إلى التكلم ورد في الآية الكريمة لبيان ضعف المسلمين وعجزهم في بادئ الأمر ومع هذا الضعف البشر إلا أنهم كانوا في كنف ربهم القوي الذي لا يُغلب العزيز الذي لا يُقهر.

وفي الآية التفات آخر وهو الالتفات من المضمر إلى الاسم الظاهر:

في قوله تعالى: (يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ) وكان مقتضى السياق أن يقال: (يذكر فيها اسمه) وقد ذكر بعض المفسرين السر في الالتفات فقال: « (وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ) أي: المحيط بكل شيء علما وقدرة في كل شريعة، وفي زمن كل نبي أرسله {الناس} أي عموما (بَعْضَهُم بِبَعْضٍ)أي بتسليط بعضهم على (لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ) وهي معابد صغار مرتفعة للرهبان(وَبِيَعٌ)للنصارى (وَصَلَوَٰتٌ) أي كنائس اليهود (ومساجد) أي للمسلمين، أخرها لتكون بعيدة من الهدم قريبة من الذكر (يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ)أي الملك الذي لا ملك غيره، ولعل العدول عن الإضمار إلى الإظهار للإشارة إلى اختلاف ذكره تعالى في الأماكن المذكورة بالإخلاص

١) بتصرف: التفسير الحديث, محمد دروزة (٥٩/٦).

وغيره(كَثِيرًا) لأن كل فرقة تريد هدم ما للأخرى، بل ربما أراد بعض أهل ملة إخراب بعض معابد أهل ملته، لا فبدفعه الله بمن يريد من عباده، وإذا تأملت ذلك وجدت فيه من الأسرار، ما يدق عن الأفكار، فإنه تعالى لما أراد بأكثر الناس الفساد، نصب لهم من الأضداد، ما يخفف كثيرا من العناد»[1].

****

١) نظم الدرر، البقاعي (٥٧/١٣).

المطلب الثالث: في الالتفات من الغيبة إلى التكلم:

قال تعالى:

(ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧) [الحج: ٥٦- ٥٧].

المعنى العام للآية.

قلت: لما تحدثت الآيات السابقة عن الكافرين وأنهم طُبعوا على الكفر ولا يزالوا في شكٍّ ومرية وذلك بسبب إغواء الشيطان لهم، وسيظلون هكذا في هذه الغواية إلى أن تأتيهم الساعة أي الموت أو القيامة فجأة بموتهم حتف أنوفهم، أو يأتيهم عذاب شديد وذلك يوم يقتل فيه جميع أبنائهم منهم ولا يكون لهم فيه شيء مما يترجونه من نصر أو غيره في بدر أو يوم القيامة كما سعوا بجدلهم وإلقاء الضلالات حول القرآن والبعث، فإذا انكشف لهم الغطاء بالساعة أو العذاب الموصل إلى حد الغرغرة يؤمنوا، لكن لا ينفعهم هذا الإيمان لفوات شرطه وهو أن يؤمنوا بالله في الدنيا، لما كانوا من الكثرة والقوة.

ثم تأتي إجابة لسؤال كأن سائل يسأل: كيف يغلبون؟ فجاء الجواب عن ذلك بقوله تعالى: (ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ) أي يوم إذ يأتيهم ذلك إما في القيامة أو في الدنيا والمعنى: أن يوم القيامة هو لله وحده لا منازع له فيه ولا مدافع عنهم غير أعمالهم الصالحة وإيمانهم بربهم. والملك هو اتساع

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المقدر ولمن له تدبير الأمور المحيط بجميع صفات الكمال وجاء بالاسم الظاهر (لله)، بأن يجري أمره فيه على غير الأسباب التي تعرفونها.

ولما كان كأنه قيل: ما معنى اختصاصه به وكل الأيام له؟ قيل: (لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) أي بين المؤمنين والكافرين بالأمر الفيصل، لا حكم فيه ظاهرا ولا باطنا لغيره، كما ترونه الآن، بل يمشي فيه الأمر على أتم قوانين العدل، ولذلك سبب ظهور العدل عنه قوله مفصلا بادئا. إظهارا لتفرده بالحكم بإكرام من كانوا قاطعين بهوانهم في الدارين مع أن تقديمهم أوفق لمقصود السورة: (فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ) أي الذين آمنوا بالله وصدقوا دعواهم الإيمان بأن عملوا الأعمال الصالحات وهي ما أمرهم الله به.

ولما كانت إثابته – سبحانه وتعالى - لأهل طاعته تفضلا منه، نبه على ذلك بخلاف ما يأتي في حق الكفار فبين أنهم في جنات النعيم في الدنيا مجازا وذلك لما يجدونه من لذة المناجاة واستشعار القرب وفي الآخرة حقيقة بما رحمهم الله به من توفيقهم للأعمال الصالحة وأيضا هذا التوفيق للعبادة يجعل نعيم القلب والروح والبدن، مما لا يستطيع وصفه الواصفون، ولا تدركه العقول»[1].

ثم أعقب - سبحانه وتعالى – بمصير الصنف الثاني وهم الذين كفروا بالله فقال: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) فالكفار غطوا ما أعطاهم الله من المعرفة بالأدلة على وحدانيته - سبحانه-

١) بتصرف: نظم الدرر، البقاعي (٧٤/١٣). الجامع لأحكام القرآن، «تفسير القرطبي»، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (٨٨/١٢)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ومن ثم كذبوا بآيات الله، وقد سعى هؤلاء بما أعطاهم ربهم من الفهم والعقل في ترك عبادة ربهم بالمجادلة بما يوحي إليهم أولياؤهم من الشياطين من الشبه، وقرَن الخبر بالفاء وذلك إيذانا بأنه مسبب عن كفرهم في قوله: (فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ) أي هؤلاء البعداء عن أسباب الكرم لهم بسبب كفرهم عذاب مهين لما سعوا في إهانة آياتنا مريدين إعزاز أنفسهم بمغالبتها والتكبر عن اتباعها. من شدته، وألمه، وبلوغه للأفئدة كما استهانوا برسله وآياته، أهانهم الله بالعذاب الشديد بسبب كفرهم.

ولما كان المشركون يمنعون بهذا الشبه وغيرها كثيرا من الناس الإيمان، وكانوا لا يتمكنون بها إلا ممن يخالطهم، رغب سبحانه في الهجرة فقال: (وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ) أي أوقعوا هجرة ديارهم وأهليهم في طريق الله ذي الجلال والإكرام التي شرعها، فكانت ظرفا لمهاجرتهم، فلم يكن لهم بها غرض آخر. ولما كان أكثر ما يخاف من الهجرة القتل.

لقصد الأعداء للمهاجر بالمصادمة، عند تحقق المصارمة، قال معبرا بأداة التراخي إشارة إلى طول العمر وعلو الرتبة بسبب الهجرة: (ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ) أي بعد الهجرة في المعارك مع الكفار، وألحق به مطلق الموت من غير قتل فضلا منه، (ٱللَّهُ رِزۡقٗا حَسَنٗا) ليرزقنهم الله الملك الأعلى رزقا حسنا، من حين تفارق أرواحهم أجسادهم لأنهم أحياء عند ربهم، وذلك لأنهم أرضوا الله بما انخلعوا منه مما أثلوه طول أعمارهم. وأثله آباؤهم من قبلهم، وأموالهم وأهليهم وديارهم.

ولما كان التقدير: فإن الله فعال ما يريد من إحيائهم ورزقهم وغيره، عطف عليه قوله:(وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ) الله الجامع لصفات الكمال

بعظمته وقدرته على الإحياء كما قدر على الإماتة، هو خير الرازقين، يرزق الخلق عامة البَرّ منهم والفاجر، فكيف بمن هاجر إليه!

يقول تعالى مخبرا عن الكفار: أنهم لا يزالون في مرية، أي: في شك وريب من هذا القرآن. (فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ)، أي: آمنت قلوبهم، وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم، فهؤلاء في الجنات منعمين ولهم النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول ولا يبيد[1].

وضح بعض المفسرين المعنى في الآية فقال:(ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) في يوم القيامة لله وحده، فليس لأحد في ذلك سلطان ولو صوريا كسلطان أهل الدنيا، ولا حكم، ولو تحكميا، كحال الملوك المستبدين، ولا رقابة لأحد غير الله تعالى، كل الملك لله وحده فلا طاغوت ولا طغيان، ولا حكم لغير الله، والتنوين في (يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ) ينبئ عن مضاف إليه يناسب المقام، وهو يوم القيامة والجزاء والحساب، والمعنى على ذلك يكون المُلك المطلق لله يوم تقوم القيامة، وينصب الميزان، ويكون الحساب ومن بعد الثواب والعقاب، وذلك فيه إنذار شديد بأن المؤمنين ومخالفيهم يلاقون ربهم، ويواجهون أعمالهم، ويفصل بينهم سبحانه بالحق والقسطاس المستقيم (فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ) « الفاء» للإفصاح عن شرط مقدر، والمعنى إذا كان الله تعالى هو الحكم وحده وهؤلاء المؤمنون العاملون للصالحات، من عبادات، وطاعات للأوامر والنواهي، وعمل صالح

---

١) بتصرف: تفسير ابن كثير (٤٤٦/٥). تفسير الجلالين, جلال الدين محمد بن أحمد المحلي, وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي, (ص: ٤٤١), الناشر: دار الحديث – القاهرة, الطبعة: الأولى, تفسير السعدي (ص: ٥٤٣).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نافع للناس لا يقصدون به إلا وجه الله، سيكونون في جنات الخلد منعمين عند ربهم، والإضافة هنا بيانية، أي في جنات النعيم الدائم الخالد المقيم، وهذا هو جزاء المؤمنين عندما يلاقون ربهم في الآخرة. أما الذين كفروا من المشركين وأهل الكتاب الذين لم يُؤمنوا برسالة الإسلام فهم الذين قال الله فيهم (وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) جمعوا مع الكفر بالله التكذيب بآيات الله، وعبر بالموصول في الكفر والتكذيب بآيات الله؛ للإشارة إلى أن سبب الجزاء هو كفرهم برسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - وتكذيبهم لآيات الله، وتكذيب آيات الله تسجل تكذيبهم للقرآن مع عجزهم عن أن يأتوا بمثله، وتكذيبهم لدلالة الآيات الكونية الدالة على وحدانيته وإبداعه في خلقه، وأضاف سبحانه وتعالى الآيات لذاته العلية لبيان عظيم افترائهم، وأنهم فعلوا ذلك استعلاء واستكبارًا، ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى العذاب النازل بهم بأنه عذاب مهين مذل ملقٍ بهم في الهوان؛ لاستعلائهم على الحق»[1].

المعنى العام للآية.

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى: (ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ) بصيغة الغيبة إلى قوله تعالى: (وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا) بصيغة التكلم، وكان مقتضى الظاهر أن يقال:(بآيات الله) ليتوافق السياق ويكون كله بصيغة الغيبة، لكنه انتقل إلى التكلم عن طريق الالتفات وذلك لسرٍّ بلاغي وهو بيان عظمة وهول ما فعلوه من كفرهم بآيات الله وهو خالقهم، واستكبارهم عن الحق.

سبب الالتفات في الالتفات من الغيبة إلى التكلم.

١) بتصرف: زهرة التفاسير, أبو زهرة (٥٠١١/٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات هو بيان عظيم افترائهم على ربهم وهو خالقهم وكفرهم بآياته، وأنهم ما فعلوا ذلك إلا استعلاء واستكبارًا وحسدا من عند أنفسهم.

أراء العلماء في الالتفات في هذا الموضع في الالتفات:

وبالرجوع إلى كتب التفسير يتبين أن السر في الالتفات في الآية الكريمة من الغيبة إلى التكلم قد وضحه بعض المفسرين بقوله: «والمراد هنا المبالغة في تهويل أمر الكفار حيث أخبر سبحانه أن للمتصف به دون عمل السيئات عذابا مهينا ولو تعرض لذلك لأفاد أن ذلك العذاب للمتصف بالمجموع فيضعف التهويل، فيكون الكفر في حد ذاته موجب للعذاب فما بالك بمن يزيد عليه تكذيب الرسل والكتب المنزّلة من الخالق جلا وعلا»[1].

«وأضاف سبحانه وتعالى الآيات لذاته العلية لبيان عظيم افترائهم، وأنهم فعلوا ذلك استعلاء واستكبارا، ولذلك وصف الله سبحانه وتعالى العذاب النازل بهم بأنه عذاب مهين مذل ملق بهم في الهوان؛ لاستعلائهم على الحق وآيات الله»[2].

وعليه فالمراد بهذا الالتفات التهويل في شأن هؤلاء الكفار، وبيان عظيم كذبهم وافترائهم على الله، فكأنه يقول: ما أجرأهم علينا إذ كفروا بنا وكذبوا بآياتنا؟!.

والكلام بصيغة المتكلم فيه إشعار بعظمة الجُرم الذي فعله الكفار وقبحه ممن كذبوا بآياته، فلو أنهم نظروا إلى عظمة الله الذي كذبوه وهو الملك الجليل القادر القوي لما قدِموا على فعلتهم الشنيعة.

١) بتصرف: تفسير الألوسي (١٧٨/٩).

٢) بتصرف: زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة (٥٠١١/٩).

وجاء عطف التكذيب على الكفر وهو نوع منه، في قوله: (وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ)؛ لأنه أشد، فالذي يكفر ولم يكذب أهون من الذي يكفر ويكذب؛ فعطف وكذبوا بآياتنا على كفروا من باب عطف الخاص على العام، كعطف الروح على الملائكة، وهو منهم، قال الله تعالى: تنزل الملائكة والروح فيها القدر، والروح جبريل عليه السلام، وهو من الملائكة[1].

قوله: (وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) أي أصروا على ذلك واستمروا على الكفر حتى الممات (فَأُوْلَٰٓئِكَ) إشارة إلى الموصول باعتبار اتصافه بما في حيز الصلة من الكفر والتكذيب وما فيه من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم في الشر والفساد أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الكفر والتكذيب[2].

وافتتح الخبر عن الذين كفروا باسم الإشارة في قوله (فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) وذلك للتنبيه على أنهم استحقوا العذاب المهين لأجل ما تقدم من صفتهم بالكفر والتكذيب بالآيات، وقرن كلمة أولئك لهم عذاب مهين بالفاء لما تضمنه التقسيم من معنى حرف التفصيل وهو (أما)، كأنه قيل: وأما الذين كفروا، لأنه لما تقدم ثواب الذين آمنوا كان المقام مثيرا لسؤال من يترقب مقابلة ثواب المؤمنين بعقاب الكافرين وتلك المقابلة من مواقع حرف التفصيل[3].

قلت: في ضوء ما سبق يتضح أن الالتفات جاء لبيان عظيم افتراء المكذبين،

١) بتصرف: تفسير الحجرات – الحديد, العثيمين (ص: ٤٠١). محمد بن صالح بن محمد العثيمين, الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض, الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٢) بتصرف: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم, أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (١١٥/٦)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٣) بتصرف: التحرير والتنوير, ابن عاشور (٣١٠/١٧).

وأنهم فعلوا ذلك استعلاء واستكبارا وأصروا على ذلك الاستكبار واستمروا عليه، وإدخال الفاء في خبر الثاني دون الأول تنبيه على أن إثابة المؤمنين بطريق التفضل لا لإيجاب الأعمال الصالحة إياها وان عقاب الكافرين بسبب أعمالهم السيئة[1].

****

١) بتصرف: روح البيان, أبو الفداء إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي (٥١/٦). الناشر: دار الفكر – بيروت.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المطلب الرابع: الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:

قال تعالى: (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾)[1].

المعنى العام للآية الكريمة:

{ شعائر الله} أي معالم دين المَلِك - سبحانه وتعالى – والشعائر جمع شعيرة وهي المنسك والعلامة التي تكون في الحج، ويطلق على الشعيرة أيضا البدنة المهداة إلى البيت الحرام، قال البغوي[2]: وأصلها من الإشعار وهو إعلامها ليعرف أنها هَدي. ولعله مأخوذ من الشعر لأنها إذا جرحت قطع شيء من شعرها أو أزيل عن محل الجرح، فيكون من الإزالة، وتعظيمها استحسانها، فتعظيمها خير له لدلالته على تقوى قلبه لأن تعظيمها (تَقْوَى الْقُلُوبِ) التي من شأنها الشعور بما هو أهل لأن يُعظم، فمعظمها متقٍ ربه، فقوله: (لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ) معناه: البدن أو النعم المهداة أو مطلقا بالدَّر والنسل فكلما كانت سمينة حسنة كانت منافعها أكثر ديناً ودنيا والأجل المسمى هو الموت الذي قدّره الله على كل نفس، أو يقصد به النحر إن كانت هذه النعم مهداة في أيام الحج، وهذا تعليل للجملة التي قبله، فإن المنافع حاملة لذوي البصائر

---

١) سورة الحج, الآية (٣٤).

٢) أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد، البغوي. المعروف بالفراء، ويلقب بمحيي السنة وظهير الدين، نسبته إلى (بغا) من قرى خراسان، ولد سنة ٤٣٦هـ. فقيه شافعي محدث مفسر؛ كان بحراً في العلوم, وكان لا يلقي الدرس إلا على الطهارة، وصنف كتباً كثيرة، منها: التهذيب في الفقه، وكتاب شرح السنة» في الحديث، ولباب التأويل في معالم التنزيل في التفسير. وتوفي توفي بمرو الروذ سنة ٥١٠هـ. بتصرف: الأعلام للزركلي (٢/٢٥٩). وفيات الأعيان, ابن خلكان (٢/١٣٦).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

على التفكر فيها لا سيما مع تفاوتها، والتفكر فيها موصل إلى التقوى بمعرفة أنها من الله، وأنه قادر على ما يريد. وأنه لا شريك له.

ولما كانت هذه المنافع دنيوية، وكانت منفعة نحرها إذا أهديت دينية، أشار إلى تعظيم الثاني بأداة التراخي فقال: (ثُمَّ مَحِلُّهَآ) أي وقت حلول نحرها بانتهائكم بها (إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ) أي إلى فِناء وساحة الحرم[1].

ثم بين أن تشريع العبادات لله كان في الأمم السابقة حيث جعل الله منسكا أي عبادة خاصة أو موضع للعبادة أو قرابين خاصة يتقربون بها لربهم، وقال ابن كثير: ولم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعا في جميع الملل.

{ليذكروا اسم الله } لما كان الدين سمحا ذا يسر، رضي بالدخول فيه بالظاهر فيما يبدو للناس وبما يؤاخذون به في الظاهر فلابد أن يذكروا الله الملك الأعلى وحده، على ذبائحهم وقرابينهم وعبادتهم كلها، لأنه وحده الرزاق الخالق لهم؛ ثم علل الذكر بالنعمة تنبيها على التفكر فيها فقال: {على ما رزقهم} لذا وجب شكره به عليهم.

والخطاب في قوله تعالى {فإلهكم إله واحد} للكل تغليبا والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها فإن جعْلِه تعالى لكل أمة من الأمم منسكا مما يدل على وحدانيته تعالى وقيل إله واحد ولم يقل واحد لما أن المراد بيان أنه تعالى واحد في ذاته كما أنه واحد في إلهيته. والفاء في قوله تعالى {فله أسلموا} لترتيب ما بعدها من الأمر بالإسلام على وحدانيته تعالى وتقديم الجار والمجرور على الأمر للقصر. والمعنى فإذا كان إلهكم إلها واحدا فأخلصوا له

١) بتصرف: نظم الدرر, البقاعي (١٣/٤٥).

التقرب أو الذكر واجعلوه لوجهه خاصة ولا تشوبوه بالشرك (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) تجريد للخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أي المتواضعين أو المخلصين فإن الإخبات من الوظائف الخاصة بهم[1].

(وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) هو استدعاء، وإغراء للذين لم يمتثلوا بعد هذا الأمر أن يسلموا لله وجوههم، وأن يدخلوا في دينه، ليكونوا ممن لهم البشرى في الدنيا والآخرة..

والمراد: أن المسلمين لهم منسك واحد وهو البيت العتيق. والمقصود من هذا الرد على المشركين أنهم جعلوا لأصنامهم مناسك تشابه مناسك الحج وجعلوا لها مواقيت ومذابح، فذكرهم الله تعالى بأنه ما جعل لكل أمة إلا منسكا واحدا للقربان إلى الله تعالى الذي رزق الناس الأنعام التي يتقربون إليه منها فلا يحق أن يجعل لغير الله منسك لأن ما لا يخلق الأنعام المقرب بها ولا يرزقها الناس لا يستحق أن يجعل له منسك لقربانها فلا تتعدد المناسك[2].

بعد أن ذكر سبحانه أن تعظيم الشعائر من أعظم دعائم التقوى، وأن محل نحرها هو البيت العتيق- قفى على ذلك ببيان أن الذبح وإراقة الدماء على وجه التقرب إليه تعالى ليس بخاص بهذه الأمة، بل لكل أمة مناسك وذبائح تذكر بالله حين ذبحها والشكر له على توفيقه لإقامة هذه الشعائر، فالإله واحد والتكاليف تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والمصالح، وإلهكم هذا الذي تعبدوه إنما هو إله واحد فلا تذكروا على ذبائحكم غير اسمه وأخلصوا

١) بتصرف: مختصر تفسير ابن كثير, محمد على الصابوني (٥٤٣/٢). الناشر: دار القرآن الكريم، بيروت – لبنان الطبعة: السابعة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م . إرشاد العقل السليم, أبو السعود (١٠٦/٦).
٢) بتصرف: التفسير القرآني للقرآن, عبد الكريم يونس الخطيب (١٠٣٧/٩). الخطيب التحرير والتنوير (٢٥٩/١٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

له الذكر خاصة بحيث لا يشوبه إشراك البتة، وأسلموا وانقادوا لله تعالى في جميع تكاليفه، ومن انقاد له كان مخبتا فلذلك قال بعده وبشر المخبتين والمخبت المتواضع الخاشع[1].

موضع الالتفات:

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى: (جَعَلْنَا) بصيغة التكلم إلى قوله تعالى: (لِّيَذْكُرُواْ)بصيغة الغيبة، وكان مقتضى الظاهر أن يقال:(ليذكرونا) ليتوافق مع قوله تعالى: (جَعَلْنَا) وقد عدل السياق عن ذلك لسبب بلاغي هو زيادة بيان قدرة الله على خلقه وأنه هو وحده الواجب ذكره وعبادته.

سبب الالتفات من التكلم إلى الغيبة:

قلت: المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات هو إعلام المشركين بأن الله هو الخالق الرازق فيجب أن يُعبد وحده ويُذكر عند كل شيء - تبارك وتعالى- ، وفي قوله تعالى: (فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ) إشارة إلى أن المناسك، والشعائر، والعبادات التي تَعبّد الله بها عباده على لسان رسله- وإن اختلفت صورا وأشكالا- هي من دين الله، وهي طريق عباده إلى طاعته ورضاه.. وأن هذا الاختلاف في صورها وأشكالها، لا يجعل منها سببا إلى الاختلاف بين المؤمنين بالله.. فكلهم يعبدون إلها واحدا، ومن شأنهم، أن يكونوا أمة واحدة.

ولما عُلم أن الشارع لجميع الشرائع واحد، إذن فلابد من ذكره وحده، تسبب عنه قوله:(فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ) أي الله وحده الذي شرع هذه المناسك كلها. وإن اختلفت فروع شرائعه ونسخ بعضها بعضا، والتفت إلى الخطاب لأنه أصرح وأجدر بالقبول.

١) بتصرف: تفسير المراغي (١٧/ ١١٢) مفاتيح الغيب «التفسير الكبير» محمد بن عمر فخر الدين الرازي (٢٢٥/٢٣). الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠هـ

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وفي قوله: (ولكل أمة جعلنا منسكا) فيه تقديم الجار والمجرور ولكل أمة على الفعل جعلنا؛ للتخصيص»[1].

قلت: ومن أسرار الالتفات عن التكلم للغائب أن الله أخبرهم سبحانه بتفرده بالإلهية وأنه لا شريك له. ثم ذكّر جميع المخلوقين بأن الإله إله واحد فله أسلموا، فإذ كان قد جعل لكم منسكا واحدا فقد نبهكم بذلك أنه إله واحد، ولو كانت آلهة كثيرة لكانت شرائعها مختلفة.

ينبغي أن يتجه الذابح إلى الله الذي سخر للإنسان هذه المواشي، والله المقصود هو المعبود الواحد، وإن تنوعت الشرائع، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهذه هي العلة في تخصيص الذبح باسم الله، وإفراده بالذكر، لأن تفرد الله بالألوهية يقتضي ألا يذكر على الذبائح غير اسمه تعالى، وفيه تنبيه على أن القربان يجب أن يكون نعما، وتنبيه كذلك على أن المقصود الأصلي من المناسك هو تذكر المعبود – سبحانه وتعالى-[2].

ومن يتبين لنا أن الإسلام يوحد المشاعر والاتجاهات، ويجعلها كلها إلى الله. ومن ثم يعنى بتوجيه الشعور والعمل، والنشاط والعبادة، والحركة والعادة إلى تلك الوجهة الواحدة. وبذلك تصطبغ الحياة كلها بصبغة العقيدة.

وعلى هذا الأساس حرم من الذبائح ما أهل لغير الله به وتحتم ذكر اسم الله عليها، حتى ليجعل ذكر اسم الله هو الغرض البارز، وكأنما تذبح الذبيحة بقصد ذكر اسم الله. ثم يعقب بتقرير الوحدانية:(فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ) وبالأمر

---

١) بتصرف: إرشاد العقل السليم, ابو السعود (١٠٦/٦). التفسير القرآني للقرآن (١٠٣٧/٩). فتح القدير للشوكاني (٥٣٥/٣).

٢) بتصرف: أنوار التنزيل, البيضاوي (٧١/٤). التفسير الوسيط للزحيلي (١٦٤٥/٢). التحرير والتنوير, ابن عاشور (٢٦٠/١٧).

بالإسلام له وحده: فلله أسلموا وانقادوا وليس هو إسلام الإجبار والاضطرار، إنما هو إسلام التسليم والاطمئنان.

وهكذا يربط السياق القرآني بين العقيدة والشعائر. فهي منبثقة من العقيدة وقائمة عليها. والشعائر تعبير عن هذه العقيدة ورمز لها. والمهم أن تصطبغ الحياة كلها ويصطبغ نشاطها كله بتلك الصبغة، فتتوحد الطاقة ويتوحد الاتجاه، ولا تتمزق النفس الإنسانية في شتى الاتجاهات[1].

وعليه ففي قوله: [جعلنا] تخصيص يفيد حصر العبادة له، إذا علمت أنه - سبحانه - وحده هو من جعل لك هذه المناسك، فانفراده بالجعل مؤذن بوجوب انفراده بالعبودية، وفيها العظمة والقدرة والاستطاعة التامة بالجعل والخلق، بما لا ينازعه في ذلك أحد، فهل يجوز أن تشرك في عبادتك أحد معه؟!.

وبهذا يكون التعبير بصيغة التكلم فيه زيادة بيان لقدرته - جل جلاله – فهو الذي يتكلم بنفسه عما اختص به من الجعل والخلق إيذانا باختصاصه بذلك وانفراده بهذه القدرة المطلقة، وفي الانتقال إلى الغيبة بيان لأهمية الذكر في جانب العباد ، فما جعل هذه المناسك إلا ليذكر - جل في علاه - ، وفائدة الانتقال تنبه الذهن على أهميته.

قلت: وفيه فائدة أخرى عزيزة، وهو أن الوصف الأول كان في جانب الخلق القادر على الجعل والتسخير، فناسب أن يكون شكر هذه النعمة في جانب المخلوق بذكر من جعل له هذه المناسك، فأفاد الالتفات دلالة تذكير المخلوق بما للخالق من النعمة والمنة الموجبة لذكره وشكره.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المطلب الخامس: الالتفات من التكلم إلى الغيبة:

قال تعالى: (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢)[1].

المعنى العام للآية الكريمة:

قلت: جاءت هذه الآية تسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -،(وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)عليم بما أوحى إلى رسله من شرع، وبما يلقى الشيطان في قلوب بعض الخلق ممن يتبعون غوايته؛ فهو ذو حكمة بالغة في تمكينه من ذلك الإلقاء، ليميز به الثابت على الإيمان من المتزلزل فيه؛ والله عليم بكل شيء، ومن ذلك ما يصدر عن الشيطان وأوليائه، فيجازيهم عليه أشد الجزاء. وهو - سبحانه - حكيم في أفعاله، ومن ذلك أن يمكن الشيطان من إلقاء الشبهات، ليحاج أولياءه بها، فيتمكن المؤمنون من ردها، ودحض المفتريات التي يتشدقون بها، ويرجع الحق إلى نصابه، فتظهر الحقيقة ناصعة بيضاء، فتمحُ الظلام الذي كان عالقا بنفوس الذين في قلوبهم مرض، وتضيء آفاق العقول السليمة، وتهديهم إلى طريق الحق[2].

من شدة حرص الرسول الله صلى الله عليه وسلم لما أعرض عنه قومه وشاقوه وخالفه عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به أنه تمنى لفرط ضجره من إعراضهم ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفرهم،

١) سورة الحج, الآية (٥٢).

٢) بتصرف: الكشاف, الزمخشري (١٦٤/٣). تفسير حدائق الروح والريحان, محمد الأمين بن عبد الله العلوي الهرري (٣٧٤/١٨). إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي, الناشر: دار طوق النجاة، بيروت – لبنان, الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م. روح المعاني الألوسي (١٦٥/٩).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم.

قلت: هذه الآية الكريمة، هي التي ولّد منها بعض المفسّرون وأصحاب السّير، قصة «الغرانيق» هذه.. ولكنا سنترك هذه القصة لأنها لا أصل لها عند جمهور المفسرين فلا داعي للكلام فيها، لكن سننظر في الآية الكريمة نظرا غير مرتبط بما يقال من روايات عن أسباب النزول- ننظر إليها على أنها قرآن يتلى، ويتعبّد بتلاوته، دون أن يكون لسبب النزول- أيّا كان- أثر في موقعه من قلوبنا، أو عقولنا! - فقوله تعالى:(وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ) هو خبر يتضمن حكما عاما، لا انفكاك منه.. يقع على رسل الله وأنبيائه جميعا.. وهذا الحكم، هو: أنه ما من رسول من رسل الله، ولا نبي من أنبيائه، إلا والشيطان راصد له، وأنه كلّما تمنّى ألقى الشيطان في أمنيّته! هذا صريح ما تنطق به كلمات الله، في وضوح وجلاء.. وإن كان هناك ما يسأل عنه، فهو كلمة التمني.. فما معنى التّمنّي، وماذا كان يتمنّى الرسول، أو النبي؟ ثم ماذا يلقى الشيطان فيما يتمناه الرسول أو النبي؟ والتمني في اللغة معروف، وهو طلب النّفس لرغيبة من الرغائب المحبوبة، البعيدة عن أن تنال، بعدا يكاد يبلغ حدّ الاستحالة.

إن أمنية كلّ رسول، ورغيبة كلّ نبي، هي أن يرى قومه على الهدى الذي يدعوهم إليه، وأن يصبحوا جميعا في عِداد المؤمنين بالله.. فتلك هي رسالته الأولى في الناس، يعيش لها، ويعمل من أجل تحقيقها، وأن سعادته كلها هي أن يرى نجاح مسعاه، وثمرة جهاده، في هذه الأعداد التي استجابت له واتبعته، وأنه كلما كثرت هذه الأعداد، تضاعفت سعادته، وعظمت غبطته.

هذه هي أمنية كل رسول، وكل نبي.. لا أمنية لأحد منهم غير هذه الأمنية!،

وأن إلقاء الشيطان في هذه الأمنية، هو ما يوسوس به للسفهاء، والحمقى، والجهلاء من القوم، ليقفوا في وجه الدعوة التي يُدعون إليها من أنبيائهم، وليرهقوا رسلهم وأنبياءهم.. فالشيطان لا يظهر عيانا، ولا يلقى الرسول أو النبي مواجهة، وإنما يلقاهما في أتباعه وأوليائه، هؤلاء الذين استذلّهم الشيطان، وأمسك بهم من مقاودهم، فكانوا له جنودا يسلطهم على أنبياء الله، ورسل الله، وأولياء الله[1].

وهذه الآية جاءت تسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وتزييل الآية بقوله:(وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) سبحانه وتعالى عليم بما أوحى إلى رسله من شرع، وبما يلقى الشيطان في قلوب بعض الخلق ممن يتبعون غوايته؛ أي: ذو الحكمة البالغة في تمكينه من ذلك الإلقاء، يفعل ما يشاء ليميز به الثابت على الإيمان من المتزلزل فيه؛ أي: والله عليم بكل شيء، ومن ذلك ما يصدر عن الشيطان وأوليائه، فيجازيهم عليه أشد الجزاء. وهو - سبحانه - حكيم في أفعاله، ومن ذلك أن يمكن الشيطان من إلقاء الشبهات، ليحاج أولياءه بها، فيتمكن المؤمنون من ردها، ودحض المفتريات التي يتشدقون بها، ويرجع الحق إلى نصابه، فتظهر الحقيقة ناصعة بيضاء، من بين تلك الظلمات، فتمحو الظلام الذي كان عالقا بنفوس الذين في قلوبهم مرض، وتضيء آفاق العقول السليمة، وتهديهم إلى طريق الرشاد[2].

ومن شدة حرص الرسول الله صلى الله عليه وسلم لما أعرض عنه قومه وشاقوه وخالفه عشيرته ولم يشايعوه على ما جاء به أنه تمنى لفرط ضجره

١) بتصرف: التفسير القرآني للقرآن, لعبد الكريم الخطيب (٩/ ١٠٦٥). التفسير الواضح, محمد محمود حجازي (٢/ ٥٩٨), الناشر: دار الجيل الجديد – بيروت, الطبعة: العاشرة - ١٤١٣هـ.
٢) بتصرف: الكشاف, الزمخشري (١٦٤/٣). حدائق الروح والريحان, الأمين الهرري (٣٧٤/١٨). روح المعاني الألوسي (١٦٥/٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من إعراضهم ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفرهم، لعله يتخذ ذلك طريقا إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم.

موضع الالتفات من التكلم إلى الغيبة.

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى: (أَرۡسَلۡنَا) بصيغة التكلم إلى قوله تعالى:(فَيَنسَخُ - ثُمَّ يُحۡكِمُ) بصيغة الغيبة، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (فنسخنا - ثم حكمنا آياتنا) أو (فننسخ – ثم نُحكم آياتنا) ليتوافق مع السياق السابق قوله تعالى: (أَرۡسَلۡنَا) ويكون جميع السياق بصيغة التكلم، لكن السياق القرآني عدل عن هذا بطريق الالتفات عن التكلم إلى أسلوب الغيبة لسرٍّ بلاغي زيادة تقرير الآية لبيان حكمة الله وقدرته على نسخ ما يلقيه الشيطان.

سبب الالتفات من التكلم إلى الغيبة:

قلت: المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات هو زيادة التقرير، والإيذان بأن الألوهية من موجبات إحكام آياته الباهرة.

والالتفات في قوله: ثم يحكم الله آياته إظهار للفظ الجلالة في موقع الإضمار؛ لزيادة التقرير، والإيذان بأن الألوهية من موجبات إحكام آياته الباهرة[1].

فكأن دلالة التكلم دلالة حفظ ورعاية وعناية، تبطل ما ذهبوا إليه من القول بأن الشيطان أدخل في قوله ما ليس منه، وفي الالتفات إلى الغائب دلالة على الهيمنة الإلهية بالنسخ والتبديل وغيره مما يشرع بحفظ الشرع من الزيادة أو النقصان.

قلت: والمتأمل في قوله: (أَرۡسَلۡنَا) يجد فيه دلالة على الحماية الربانية

١) بتصرف: إرشاد العقل السليم, أبو السعود (١١٣/٦).

لشرائعه وحاملوها من الأنبياء والمرسلين، إذ من أرسله تكفل برعايته وحفظه، وناسب ذلك أنه تبع هذه اللفظة ذكر حال الشيطان مع النبي أو الرسول، فلما جاء بالغيبة دلّ ذلك على حفظ الله ورعايته للأنبياء والرسل من غواية الشيطان لهم.

****

المطلب السادس: الالتفات من التكلم إلى الغيبة:

قال تعالى: (لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾)[1].

المعنى العام للآية:

قلت: بعد أن قدّم الله - عز اسمه - ذكر نِعَمه وأنه رءوف بعباده رحيم بهم، وأن الإنسان كفور بطبعه، ومن ثم جحد هذه النعم، فناسب السياق القرآني أن يتبع هذا الكلام بزجر معاصري النبي محمد - عليه السلام - من أهل الأديان السماوية عن منازعته، وذلك بذكر خطئهم فيما تمسكوا به من الشرائع التي انتهت بوجود الإسلام ونبيّ الإسلام والقرآن، وبيان أن لكل أمة شريعة خاصة ولو أنهم اتبعوا شريعتهم الحقّة لدخلوا الإسلام، ثم أمر النبي بالثبات على ما هو عليه من الحق، وأنه لا يضره عناد الجاحدين، فالله هو الحكم بينهم وبينه يوم القيامة فقوله تعالى: (لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ) أي إنا أنزلنا لأهل كل دين من الأديان السماوية شريعة خاصة يعملون بها، ويسيرون على نهجها، فالأمة التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى منسكها وشريعتها ما في التوراة، والأمة التي من مبعث عيسى إلى مبعث محمد صلّى الله عليه وسلّم منسكها وشريعتها ما في الإنجيل، وأمة محمد - صلى الله عليه وسلّم - وهم من وجد حين مبعثه إلى يوم القيامة منسكهم ما في القرآن، لأن لكل زمان ما يليق به من الشرائع التي تناسب من فيه في تلك الحقبة.(فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ) أي فلا ينبغي لهم أن ينازعوك في أمر

١) سورة الحج, الآية (٦٧).

هذا الدين، فإن تعيينه تعالى لكل أمة شريعة خاصة موجب لطاعة هؤلاء لك وعدم منازعتهم إياك في أمر هذه الشريعة زعما منهم أن شريعتهم هي ما عيّن لآبائهم من التوراة والإنجيل، فذلك خطأ منهم، فإن ذلك إنما كان شريعة لمن مضى قبل نسخه بالقرآن. فاثبت أيها الرسول على دينك ثباتا حتى لا يطمعوا أن يخرجوك منه أو يزيلوك عنه، والمراد بذلك تهييج حميّته عليه السلام، وإلهاب غضبه لله ولدينه، ومثل هذا كثير في كتاب الله، وكأنه قد قيل له: تأسّ واقتد بالأنبياء قبلك في متاركة القوم الظالمين، والإمساك عن مجادلتهم بعد اليأس من إيمانهم[1].

وهذه الآية الكريمة تبين أن لكل أمة منهجا وطريقة ليس في شيء معين بل حتى في الحياة العامة وأسلوب التفكير والسلوك والاعتقاد، وهذا المنهج والطريق إنما هو خاضع لسنن الله في تصريف الطبائع والقلوب وفق المؤثرات والاستجابات. وهذه سنن ثابتة مطردة دقيقة. فالأمة التي تفتح قلوبها لدواعي الهدى ودلائله في الكون والنفس هي أمة مهتدية إلى الله بالاهتداء إلى نواميسه المؤدية إلى معرفته وطاعته.

والأمة إذا أضلها الله فهي التي تغلق قلوبها دون تلك الدواعي والدلائل إنما هي أمة ضالة تزداد ضلالا كلما زادت إعراضا عن الهدى ودواعيه.

وهكذا جعل الله لكل أمة منسكا هم ناسكوه، ومنهجا هم سالكوه.. فلا داعي إذن لأن يشغل الرسول- صلى الله عليه وسلم- نفسه بمجادلة المشركين، وهم يصدون أنفسهم عن منسك الهدى وشريعة الله، ويمعنون في منسك الضلال. والله يأمر نبيّه ألا يدع لهم فرصة لينازعوه أمره، ويجادلوه في منهجه.

---

١) بتصرف: تفسير المراغي (١٣٩/١٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كما يأمره أن يمضي على منهجه لا يتلفت ولا ينشغل بجدل المجادلين. فهو منهج مستقيم:(وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ) إذن فليطمئن النبي وكل من سار في طريقه على استقامة منهجه. واستقامته هو على الهدى في الطريق.. فإن تعرض القوم لجداله فليختصر القول. فلا ضرورة لإضاعة الوقت والجهد[1].

جعل الله لكل أمة من الأمم منسكا وشريعة تعبد بها ربها، وهذه الشريعة تكون مناسبة لهذه الأمة، فكانت التوراة منسك أمة اليهود التي كانت من مبعث موسى إلى مبعث عيسى، والإنجيل منسك أمة النصارى من مبعث عيسى إلى مبعث محمد- عليهم جميعا الصلاة والسلام-، وكان القرآن وما فيه من تشريع وحكم شامل لكل مناحي الحياة الدنيا والأخرى منسك وشريعة لهذه الأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ولقد أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم ونزل عليه القرآن هدى للناس جميعا وبينات من الهدى والفرقان، وقد بُعث النبي والعالم في أشد الحاجة إليه، فكان رحمة للعالمين، ومنقذا للإنسانية المعذبة الضالة بين المادية القاسية، والوثنية الضالة، وإذا كان الأمر كذلك فلا ينازعنك يا محمد هؤلاء الضالون في الأمر الذي بُعثت به، فهذا هو الدستور الذي نسخ جمع الدساتير السالفة، وهذا نهى لهم عن النزاع، وأنت يا محمد لا تلتف لنزاعهم وجدالهم واثبت في دينك ثباتا لا يطمعون معه أن يخدعوك ليزيلوك عنه، وادع كل الناس إلى سبيل ربك دين الحق، وتوحيده الخالص، فإنك على الحجة البيضاء ليلها كنهارها، وأنت على الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه، فادع الناس جميعا إلى الإسلام وإن أبوا إلا جدالك بعد ظهور الحجة عليهم فأمرهم إلى الله»[2].

(1) بتصرف: التفسير الواضح، حجازي (٢/٦٠٤).

ومن ثم يخبر الله – تعالى - أنه جعل لكل قوم منسكا هم عاملون به، أي شريعة، ومتعبدا، ومنهاجا صالحا، يتلاءم مع مقتضيات الزمان والمكان، ومع سنة التدريج والتطور ونضوج العقل البشري، فأنزل التوراة على موسى بنحو من الشدة، لعلاج التمسك بالمادة، ثم أنزل الإنجيل متمما لحكم التوراة مع علاج الروح وإشاعة المحبة، والعناية بجوهر الدين، لا بمجرد المظاهر والشكليات والطقوس، ثم أنزل القرآن حينما نضج العقل البشري، لإرساء معالم دستور الحق، والجمع بين العناية بالمادة والروح، والتركيز على معايير العلم، واستخدام العقل، فكان أول دين يضع أسس الحضارة الإنسانية الشاملة، وكان تشريعه وسطا بين الشرائع، وكانت هذه الأديان صالحة للزمان الذي جاءت فيه[1].

موضع الالتفات من التكلم إلى الغيبة:

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى: (جَعَلْنَا) بصيغة التكلم إلى قوله تعالى:(وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ) بصيغة الغيبة، وكان مقتضى الظاهر أن يقال:(وادعنا) ليتوافق مع قوله تعالى: (جَعَلْنَا)، لكنه عدل عن ذلك بأسلوب الالتفات عن التكلم إلى ضمير الغيبة لسرٍّ بلاغي هو شدة توبيخ والإنكار على الكفار المعارضين للنبي - صلى الله عليه وسلم -؛ وبيان حكمة الله في وضع الشرائع للعباد.

سبب الالتفات من التكلم إلى الغيبة:

قلت: المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات هو شدة توبيخ والإنكار على الكفار المعارضين للنبي - صلى الله عليه وسلم -؛ وبيان حكمة الله في وضع الشرائع للعباد.

١) بتصرف: التفسير المنير للزحيلي (٢٦٩/١٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقوله تعالى (لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ) كلام مستأنف؛ جيء به لزجر معاصريه - صلى الله عليه وسلم - من أهل الأديان الأخرى عن منازعته- صلى الله عليه وسلم - ببيان حال ما تمسكوا به من الشرائع والتي بطلت ببعثة النبي محمد، وإظهار خطئهم في النظر. وقوله: هم ناسكوه صفة لـ منسكا، مؤكدة للقصر المستفاد من تقديم الجار والمجرور على الفعل[1].

وقيل إن الفاء في قوله: {فلا ينازعنك في الأمر} لترتيب النهي أو موجبه على ما قبلها؛ فإن تعيينه تعالى لكل أمة من الأمم التي من جملتهم هذه الأمة شريعة مستقلة، بحيث لا تتخطى أمة منهم شريعتها المعينة لها وهذا يكون موجب لطاعة هؤلاء لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وعدم منازعتهم إياه في أمر الدين. والنهي إما على حقيقته، أو كناية عن نهيه - صلى الله عليه وسلم - عن الالتفات إلى نزاعهم للنبي على زعمهم المذكور، وإنما أسند الفعل هنا لضمير المشركين ينازعنك -على قول في التفسير-؛ وذلك مبالغة في نهي النبي - صلى الله عليه وسلم - عن منازعته إياهم التي تفضي إلى منازعتهم إياه؛ فيكون النهي عن منازعته إياهم كإثبات الشيء بدليله»[2].

وقوله: (وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ) عطف على جملة فلا ينازعنك في الأمر؛ عطف على انتهاء المنازعة في الدين أمر بالدوام على الدعوة، وعدم الاكتفاء بظهور الحجة؛ لأن المكابرة تجافي الاقتناع، ولأن في الدوام على الدعوة فوائد للناس أجمعين. وفي حذف مفعول (وَادْعُ) إيذان بالتعميم[3].

١) بتصرف: إرشاد العقل السليم, أبو السعود (١١٨/٦).

٢) بتصرف: الكشاف, الزمخشري (١٦٩/٣). أنوار التنزيل, البيضاوي (٧٨/٤). و البحر المحيط في التفسير, أبو حيان الأندلسي (٥٣٤/٧)، وإرشاد العقل السليم (١١٨/٦)، والتحرير والتنوير (٣٢٨/١٧، ٣٢٩).

٣) بتصرف: التحرير والتنوير, ابن عاشور (٣٢٩/١٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والنهي إما على حقيقته، أو كليته عن نهيه عن الالتفات إلى نزاعهم للنبي على زعمهم المذكور. وأما جعله عبارة عن نهيه عن منازعتهم فلا يساعده المقام. وقرئ «فلا ينزعنك» على تهييجه، والمبالغة في تثبيته[1].

ففي هذه الآية زجر لمعارضي النبي - عليه الصلاة والسلام - عن معارضته والتأكيد على أن لكل أمة منسكا لتربية هؤلاء القوم[2].

ولما كان النهي عن المنازعة في الحقيقة له إلهابا وتهييجا إلى الإعراض عنهم لأنهم أهل لذلك، لأن كيدهم في تضليل، والإقبال على شأنه، وكان التعبير بما تقدم من تحويله إليهم لتأكيد الأمر مع دلالته على إجلاله عن المواجهة بالنهي، عطف عليه قوله: (وَٱدۡعُ) أي أوقع الدعوة لجميع الخلق (إِلَىٰ رَبِّكَ)، أي المحسن إليك بإرسالك، بالحمل لهم على كل ما أمرك به متى ما أمرك، ولا يهولنك قولهم، فإنهم مغلوبون لا محالة، ولا تتأمل عاقبة من العواقب، بل أقدم على الأمر وإن ظن أن فيه الهلاك، فإنه ليس عليك إلا ذلك[3].

في ضوء ما سبق يتبين أن الالتفات ورد في الآية الكريمة لزجر معارضي النبي . صلى الله عليه وسلم عن معارضته.

****

١) بتصرف: إرشاد العقل السليم, أبو السعود (١١٨/٦).
٢) بتصرف: المصدر السابق (٤١/٥).
٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور, البقاعي (٩٠/١٣).

المبحث الثالث
الالتفات في غير الضمائر
في سورة الحج

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المطلب الأول: التفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع:

قال تعالى: (حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ٣١) [سورة الحج: ٣١].

المعنى العام للآية الكريمة:

في الآيات السابقة لهذه الآية يبين الله ذلك الذي أمر الله به من قضاء التفث والوفاء بالنذور والطواف بالبيت، هو ما أوجبه الله على عباده فيجب عليهم أن يعظّموه، فإن من يعظم حرمات الله وشرائعه، ومنها مناسكه فلابد أن يأتي بها كاملة خالصة لله، فهو خير له في الدنيا والآخرة. وأحل الله لكم أكل الأنعام إلا ما حرمه فيما يتلى عليكم في القرآن من الميتة وغيرها فاجتنبوه فأنه ضرر لكم في الدنيا والآخرة، وفي هذا دليل على إبطال ما كانت العرب تحرمه من بعض الأنعام افتراء على ربهم. فيناديهم ربهم أن ابتعدوا عن القذارة التي هي الأوثان، وعن الكذب الذي هو الافتراء على الله والشرك به غيره. وكونوا مستقيمين لله على إخلاص العمل له، مقبلين عليه بعبادته وحده وإفراده بالطاعة، معرضين عما سواه بنبذ الشرك، فإنه من يشرك بالله شيئا، فمثله -في بُعده عن الهُدى، وفي هلاكه وسقوطه من رفيع الإيمان إلى حضيض الكفر، وتخطف الشياطين له من كل جانب- كمثل من سقط من السماء: فإما أن تخطفه الطير فتقطع أعضاءه، وإما أن تأخذه عاصفة شديدة من الريح، فتقذفه في مكان بعيد أشد البعد[1].

---

١) بتصرف: التفسير الميسر (١/ ٣٣٥)، المؤلف: نخبة من أساتذة التفسير، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف – السعودية، الطبعة: الثانية، مزيدة ومنقحة، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

قلت: في قوله تعالى: (حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ) يبين لنا ربنا - سبحانه وتعالى- أن الحنفاء لله هم المخلصون له وحده ولا يشركون معه غيره في أي عمل من أعمالهم، هم المسلمون المستسلمون المنقادون له، العادلون عن كل دين سوى دين الإسلام.

ولفظ حنفاء جمع حنيف: والحنيف هو المائل عن الباطل إلى الحق في الدين وغيره. وقوله: غير مشركين هذا الكلام جاء مؤكداً لما قبله من السياق القرآني.

قوله تعالى:(وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١) ويكمل القرآن مصير من يشرك بربه خالقه ورازقه، وكل من ينكر وجود الله او يترك دينه رغبة عنه لغيره شبهه بمن يسقط من السماء اعلى مكان تتخيله ثم إذا هو يسقط بنفسه لجهله بربه، أو هو من يتعمد إسقاط نفسه بإشراكه مع الله إلها آخر ممن لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً. ومن كان هذا فعله فهو كمثل الذي سقط وبعد سقوطه مباشرة تخطفه الطير تأخذه بسرعة خاطفة لتلقيه في مكان سحيق في المعنى والحس، «والخطف هو الاختلاس بسرعة. وتهوي به الريح وتسقطه في مكان سحيق وبعيد جدا.

والمعنى: من كان هذا شأنه فهو لا يرجى خلاصه، فإن الشيطان قد طرح به في الضلالة. وأو: للتخيير، أو للتنويع، فإن من المشركين من لا خلاص له أصلا، ومنهم من يمكن خلاصه بالتوبة، والكلام هنا مرتبط بما قبله بنحو واضح، فبعد أن أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بالنداء للحج، أبان ثواب تعظيم أحكام الله وشرعه ومنها مناسك الحج، وإباحة ذبح الأنعام وأكلها إلا ما استثني تحريمه، ثم أتبعه بالنهي عن تعظيم الأوثان، والافتراء على الله،

والكذب في أداء الشهادات، وهلاك من يشرك بالله، ثم أوضح كون تعظيم الشعائر من علائم التقوى ودعائمها، وأن محل نحرها هو الحرم المكي، كما أن لكل أمة أو جماعة مؤمنة ذبائح يتقربون بها إلى الله تعالى. وهذا هو مشهد الهويّ من شاهق فمثله مثل من يخر من السماء. وفي مثل لمح البصر يتمزق أشلاء فتخطفه الطير خطفا سريعا، أو تقذف به الريح بعيدا عن الأنظار، أو تهوي به الريح وتقذفه في مكان سحيق وبعيد، في هوّة ليس لها قرار! والملحوظ هنا في السياق هو سرعة الحركة مع عنفها وتعاقب خطواتها في اللفظ « بالفاء » وفي المنظر بسرعة الاختفاء.. هذه هي طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير. وهي صورة صادقة لحال من يشرك بالله، فيهوي من أفق الإيمان السامق إلى حيث الفناء والانطواء. إذ يفقد القاعدة الثابتة التي يطمئن إليها، وهي قاعدة التوحيد، ويفقد المستقر الآمن الذي يثوب إليه فتتخطفه الأهواء فتخطف الجوارح، وتتقاذفه الأوهام تقاذف الرياح. وهو لا يمسك بالعروة الوثقى وهي الإيمان بالله وحده، ولا يستقر على القاعدة الثابتة، التي تربطه بهذا الوجود الذي يعيش فيه»[1].

فكأنه – سبحان – يشبه الإيمان في علوّ مقامه وبعده عن الشبهات بمنزلة السماء، فهي محفوظة مرفوعة. كما شبه من ترك الإيمان بالله واتبع شهواته، بمنزلة الساقط من السماء، فهو عرضة للآفات والبليات، وأن تخطفه الطير فتقطع أعضاءه جزاء فعله، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، ومن ثم أذهبوا عليه دينه ودنياه. فشبه حال المشرك بحال الهاوي من السماء لأنه لا يملك لنفسه حيلة حتى يقع حيث تسقطه الريح، فهو هالك لا محالة، إما باستلاب الطير لحمه أو

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بسقوطه في المكان السحيق[1].

وقوله حُنَفَاءَ: جمعُ حَنيفٍ، وهو المُقبلُ على اللهِ، المُعرضُ عمَّا سِواه، وقيل: الحنيفُ: هو المسلمُ المستقيمُ وهذا هو المقصود، وقيل الحنيف: المائلُ عن الشركِ والدِّينِ الباطلِ إلى التوحيدِ، والدِّينِ الحقِّ المستقيمِ، وأصلُ الحنفِ: الميلُ عن الشيءِ بالإقبالِ على آخَرَ، فالحنفُ ميلٌ عن الضلالةِ إلى الاستقامةِ، وأصلُه ميلٌ في إبهامي القدمينِ، كل واحدةٍ على صاحبتِها).

وذلك بِناءً على قولِ مَن قال: إنَّ الحنيفَ هو المستقيمُ مِن كلِّ شيءٍ، والحنفَ الاستقامةُ، وجعلوا الرَّجلَ الَّذي تُقبلُ إحدَى قَدَميه على الأُخرى، إنَّما قِيل له: أحنفُ، على جهة التفاؤلِ، كما قِيل للمَهْلَكةِ مِن البلادِ: المفازَةُ، بمعنَى الفوزِ بالنَّجاةِ منها والسَّلامةِ؛ وكما قِيل لِلَّديغِ: السَّليمُ؛ تفاؤلًا له بالسَّلامةِ مِن الهلاكِ، وما أشبهَ.

والمعنى اجتنبوا أيها الناس عبادة الأوثان، وقول الشرك، وكونوا مستقيمين لله على إخلاص التوحيد له، وإفراد الطاعة والعبادة له خالصا دون الأوثان والأصنام، غير مشركين به شيئا من دونه، فإنه من يشرك بالله شيئا، فمثله في بعده من الهدى وإصابة الحق وهلاكه وذهابه عن ربه، مثل من خرّ من السماء فتخطفه الطير، أو هوت به الريح في مكان سحيق، يعني من بعيد، من قولهم: أبعده الله وأسحقه. ومعنى خَرَّ من السماء: أي: سَقَط على وَجهِه، وأصلُه يدُلُّ على اضطرابٍ وسُقوطٍ مع صَوتٍ. والسَحِيق: البَعيدِ، ويدُلُّ لفظ سحق على البُعد مكان ومكانة[2].

١) بتصرف: تفسير السعدي (ص: ٥٣٨)، فتح البيان في مقاصد القرآن، محمد صديق خان بن حسن الحسيني البخاري القِنَّوجي (٩/ ٤٧). عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، الناشر: المكتبة العصريَّة للطبَاعة والنَّشْر، صَيدَا – بَيروت، عام النشر: ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٢) بتصرف: تفسير ابن جرير (٥٣٨/١٦)، تفسير الماوردي (٣٥٣/٢)، تفسير ابن عطية (١٤٦/٣). قال القرطبي: (ولفظةُ حُنَفَاءَ مِن الأضدادِ؛ تقعُ على الاستقامةِ، وتقعُ على الميلِ). تفسير القرطبي (٥٥/١٢).

سبكة الألوكة - قسم الكتب

ولفظ حنفاء، معناه مستقيمين أو مائلين إلى الحق بحسب أن لفظة الحنف من الأضداد تقع على الاستقامة وتقع على الميل، والمراد في هذا الموضع ما قيل من أنه الإخلاص فكأنه قال تمسكوا بهذه الأمور التي أمرت ونهيت على وجه العبادة لله وحده لا على وجه إشراك غير الله به. ولذلك قال غير مشركين به وهذا يدل على أن الواجب على المكلف أن ينوي بما يأتيه من العبادة الإخلاص فبين تعالى مثلين للكفر لا مزيد عليهما في بيان أن الكافر ضار بنفسه غير منتفع بها. (فتخطفه الطير) أي تقطعه بمخالبها[1].

موضع الالتفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع.

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى : (فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ) في كلمة (فَتَخْطَفُهُ.. وتهوي) بصيغة الفعل المضارع، حيث عدل بأسلوب الالتفات من صيغة الماضي قبله في قوله تعالى: (فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ) في كلمة (خَرَّ) بصيغة الماضي فنجد أن السياق القرآني هناعدل من الفعل الماضي للفعل المضارع وكان مقتضى السياق أن يقال: (فخطفته الطير أو هوت به الريح). ليتوافق مع ما قبله من الفعل الماضي (خرّ من السماء) الذي هو للفعل الماضي بمعنى سقط. لكنه عدل عن ذلك بطريق الالتفات من الماضي للمضارع وذلك لسبب بلاغي بديع وهو التفخيم والتهويل مما يفعله المشركون بتصوير المشهد في صورة المضارعة التي تفيد التجدد والاستمرار وكذلك على سبيل الإيحاء لمن يشركون بالله بالهيبة والخوف الذي يحصل من بطش الله - جل جلاله – إذا هم أشركوا به غيره.

١) بتصرف: مفاتيح الغيب الرازي (٢٢٣/٢٣)، تفسير ابن كثير (٤٢٠/٥)، التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٥٤/١٧).

سبب الالتفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع:

قلت: جاء سبب الالتفات هنا في هذه الآية الكريمة لبيان الترهيب والتفخيم والتهويل بشأن هذا الفعل القبيح الذي قام به المشركون من ترك الدين الحنيف للشرك به، فناسب أن يأتي بصيغة المضارع وذلك بتصوير المشهد في صورة المضارعة التي تفيد التجديد والاستمرار، فالآية تصور مشهد تخطف الطير له متجددا متكررا كأنما تراه رأي العين، وهذا ليس خاص بزمان النبي فقط بل دائم ومتجدد ومستمر لكل من يفعل مثل فعلهم.

أراء العلماء في الالتفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع:

يقول الزمخشري: يجوز في هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق، فإن كان تشبيها مركبا فكأنه - سبحانه وتعالى - يقول: إن كل من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكا ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء فاختطفته الطير، فتفرق مُزَعا في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هَوتْ به في بعض الأماكن البعيدة جدا ومن ثم طرحته بلا هوادة ولا رفق. وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان في علوه بالسماء، والذي ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء، والأهواء التي تتوزع أفكاره بالطير المختطفة، والشيطان الذي يطوح به في وادى الضلالة بالريح التي تهوى بما عصفت به في بعض المهاوي المتلفة[1].

وقال أبو السعود في قوله: (وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ) جملة مبتدأة مُؤكِّدةٌ لِمَا قبلها مِن الاجتناب عن الإشراك، وإظهار الاسم الجليلِ (الله) في مَقام الإضمار؛ جاء لإظهارِ حالِ قُبْحِ الإشراكِ به»[2].

١) بتصرف: الكشاف, الزمخشري (١٥٥/٣).
٢) بتصرف: تفسير أبي السعود (١٠٥/٦).

وجاء الالتفات في كلمة (خَرَّ) إلى كلمة (فَتَخْطَفُهُ) التفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع وفي إيثار المضارع فتخطفه إشعار باستحضار تلك الحالة العجيبة في مشاهدة المخاطب؛ تعجيبا له.

ويقول ابن القيم[1] فتأمل هذا المثل ومطابقته لحال من أشرك بالله. وتعلق بغيره، فيقابل كل واحد من أجزاء الممثل بالممثل به. وعلى هذا فيكون قد شبه الايمان والتوحيد في علوه وسعته وشرفه بالسماء التي هي مصعده ومهبطه. فمنها هبط إلى الأرض وإليها يصعد منها.

وشبّه تارك الايمان والتوحيد بالساقط من السماء إلى أسفل سافلين، من حيث التضييق الشديد والآلام المتراكمة. والطير التي تتخطف أعضاءه وتمزقه كل ممزق بالشياطين التي يرسلها سبحانه وتعالى عليه تؤزه أزا وتزعجه وتدفعه إلى مظان هلاكه. فكل شيطان له قطعة من دينه وقلبه، كما أن لكل طير قطعة من لحمه وأعضائه ومن ثم فالريح تهوى به في مكان سحيق[2].

وفي هذا إيماء إلى أن من المشركين مَن شِرْكُه لا يرجى منه خلاص كالذي تخطفته الطير، ومنهم مَن شِرْكُه قد يخلص منه بالتوبة إلا أن توبته أمر بعيد عسير الحصول.

---

١) أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي, المعروف بابن قيم الجوزية: من أركان الإصلاح الإسلامي، وأحد كبار العلماء. مولده سنة ٦٩١هـ. تتلمذ على الشيخ الصفي الهندي, وشيخ الإسلام ابن تيمية وهو من أجلّ شيوخه, لازمه كثيرا حتى كان لا يخرج عن شيء من أقواله، وهو الذي هذب كتبه ونشر علمه، وسجن معه في قلعة دمشق، وأهين وعذب بسببه، وكان حسن الخلق محبوبا عند الناس، أغرم بحب الكتب، فجمع منها عددا عظيما، وكتب بخطه شيئا كثيرا. وألف تصانيف كثيرة منها: إعلام الموقعين, التفسير القيم, والتبيان في أقسام القرآن. وغيرها. وكانت وفاته في دمشق سنة ٧٥١هـ. الأعلام للزركلي (٥٦/٦). الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة, ابن حجر العسقلاني (١٣٧/٥).

٢) بتصرف: التفسير القيم «تفسير القرآن الكريم» لابن القيم (ص: ٣٨٤), محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية, تحقيق: مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان, الناشر: دار ومكتبة الهلال – بيروت, الطبعة: الأولى - ١٤١٠هـ. تفسير ابن عاشور (٢٥٥/١٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفتخطفه مضاعف خطف للمبالغة، الخطف والخطف: أخذ شيء بسرعة سواء كان في الأرض أم كان في الجو ومنه تخطف الكرة. والهوي: نزول شيء من علو إلى الأرض. والباء في تهوي به للتعدية فالتَّشبيه هنا مركَّب تمثيليّ. والالتفات إلى لفظ المضارع: وسياق الكلام يقتضي أن يعطف فتخطفه على مضارع مع أنه في الآية معطوف على خر وهو ماض، وإنما عدل عن ذلك لتصوير الواقع والتقدير فهي تخطفه فيكون من عطف الجملة على الجملة ولكنه آثر المخالفة لاستحضار الصورة الغريبة التي تصوره مزعا في حواصل الطير[1].

****

١) بتصرف: التحرير والتنوير, ابن عاشور (٢٥٥/١٧)، إعراب القرآن وبيانه, محيي الدين بن أحمد درويش (٤٢٨/٦), الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص - سورية، (دار ابن كثير - دمشق - بيروت), الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥هـ. الجدول في إعراب القرآن الكريم, محمود بن عبد الرحيم صافي (١١١/١٧), الناشر: دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت, الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المطلب الثاني: التفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [سورة الحج: ٦٣].

معنى الآية الكريمة:

تستكمل الآية الكريمة ما بدأته الآيات السابقة في بيان قدرة الله على عباده ورحمته بهم، وأن من كمال قدرته - سبحانه وتعالى - إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل بمعنى زيادة أحدهما على حساب الآخر فالقادر على ذلك قادر بلا شك على نصرة المظلوم، وإثابة الطائع ومجازاة العاصي، وذلك لأن الله سميع لكل دعاء، بصير بكل عمل فلا يعزب عنه شيء.

وكل ما تقدم من أوصاف تدل على اتصافه- سبحانه وتعالى- بكمال القدرة، وتمام العلم لأنه هو الحق، الموصوف بكل كمال يليق به، المنزّه عن كل نقص، وهو صاحب الدين الحق، فعبادته حق، ونصره لأوليائه حق، ووعده حق، وهو الحق لا شك فيه، وأن كل ما يدعونه هؤلاء الكفار ويعبدونه من دونه هو الباطل الذي لا ثبوت له، ولا وجود، والحال أن الله هو العلي المتعالي على الكل بقدرته، وقدسيته تنزهه عن الأشباه والأنداد والنظائر.

ثم أخذ القرآن يلفت نظرنا إلى الأدلة الكونية التي تثبت ذلك ألم تعلموا أيها المشركون بالله غيره - ممن لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضراً - أن الله ينزل ماء المطر من السماء فتصبح الأرض مخضرة؟ بقدرة الله وحده، فالله - سبحانه- هو الذي أنزل من السماء هذا الماء فأصاب الأرض الميتة

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فأحياها بالخضرة والنبات، أو سلكه ينابيع في الأرض ثم يرفع بالآلات الرافعة فأصبحت به مخضرة ذات خضرة وبهجة.

وهذا من لطف الله بخلقه، إن الله لطيف بعباده يدبر لهم أمر المعاش ونظام الدنيا خبير بهم، وبحالهم، وبنظام معاشهم ولا غرابة في ذلك كله إذ له ما في السموات وما في الأرض ملكا وخلقا وعبيدا وتصريفا ولفظ (أَلَمْ تَرَ)الاستفهام هنا للتنبيه، وقد جاء على صيغة الاستفهام الإنكاري الدال على نفي الوقوع، وهو داخل على « لم « النافية ونفي النفي إثبات، والمعنى لقد رأيت بنظرك وعلمك (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً)[1].

في قوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) وجهان من الاستدلال على منكري البعث:

أحدهما: أن الله يخبر عن قدرته وسلطانه، والمعنى أن من قدر على إنزال الماء من السماء، وشق الأرض، وأخرج النبات منها مع لينه وضعفه وصلابة الأرض وشدتها هو القادر على إحياء الخلق بعد الموت، ومن ثم فلن يعجزه شيء.

والثاني: إن من قدر على إحياء الأرض بعد مواتها ويبسها، لقادر على البعث والإحياء، وقد عرفوا أن إعادة الشيء أهون من ابتدائه، أو يقدر على الإعادة من لا يملك على الابتداء إذا عرف الابتداء»[2].

وهكذا يستطرد السياق القرآني في استعراض دلائل القدرة الإلهية في مشاهد الكون المعروضة للناس في كل حين: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) فنزول الماء من السماء، ورؤية الأرض بعده مخضرة بين

١) بتصرف: التفسير الواضح (٦٠٢/٢)، زهرة التفاسير (٥٠١٧/٩).

٢) بتصرف: تفسير الماتريدي (٤٣٧/٧).

عشية وضحاها.. ظاهرة واقعة متكررة. قد تذهب الألفة بجدتها في النفوس، فإن هذا المشهد في الأرض يستجيش في القلب شتى المشاعر والأحاسيس. وإن القلب ليشعر أحيانا أن هذا النبت الصغير الطالع من سواد الطين، بخضرته ونضارته، كأطفال صغار مبتسمين! والذي يحس على هذا النحو يستطيع أن يدرك ما في التعقيب بقوله: (إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ). من لطف وعمق ومشاكلة للون هذا الإحساس، ولحقيقة ذلك المشهد وطبيعته. دبيب النبتة الصغيرة من جوف الثرى، وهي نحيلة ضئيلة، وبهذه القدرة الإلهية يتم تدبير الأمر في إنزال الماء بقدَرٍ وفي الوقت المناسب وبالقدْر المطلوب ويتم امتزاج الماء بالتربة، وبخلايا النبات الحية المتطلعة إلى الانطلاق والنور! والماء ينزل من سماء الله إلى أرضه، فيُنشئ فيها الحياة، ويوفر فيها الغذاء والثراء[1].

موضع الالتفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع:

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى (مَآءً فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ) في كلمة (فَتُصۡبِحُ) بصيغة الفعل المضارع، حيث عدل بطريق الالتفات من صيغة الماضي قبله في قوله تعالى: (أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً) في كلمة (أَنزَلَ) بصيغة الماضي فنجد أن السياق القرآني هنا عدل من الفعل الماضي للفعل المضارع وكان مقتضى السياق أن يقال: (فأصبحت). ليتوافق مع ما قبله من الفعل الماضي (أنزل) الذي هو للفعل الماضي. لكنه عدل عن ذلك بطريق الالتفات من الماضي للمضارع وذلك لسبب بلاغي بديع وهو استحضار نعمة الله المتجددة الدائمة والتي نراها بأعيننا، وهذا مما يساعد على دوام التذكير بهذه النعمة التي من الله وحده.

كما أن الترهيب والتفخيم والتهويل بشأن هذا الفعل القبيح الذي قام به المشركون من ترك الدين الحنيف للشرك به، فناسب أن يأتي بصيغة المضارع وذلك بتصوير المشهد في صورة المضارعة التي تفيد التجديد والاستمرار، فالآية تصور مشهد تخطف الطير له متجددا متكررا كأنما تراه رأي العين، وهذا ليس خاص بزمان النبي فقط بل دائم ومتجدد ومستمر لكل من يفعل مثل فعلهم.

سبب الالتفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع:

قلت: جاء سبب الالتفات هنا في هذه الآية الكريمة لدوام استحضار نعمة الله على عباده، هذه النعم المتجددة بمشاهدة ثمرات الأرض ونتاجها النامي بفضل الله ومنّه، وهذا الاستذكار لنِعم الله يساعد في هذا دوام عبادتنا لربنا بسبب هذه النعمة الدائمة.

أراء العلماء في الالتفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع:

قال ابن عطية الأندلسي[1] قوله: ﴿مَآءً فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ بمنزلة قوله فتضحى الأرض أو فتصير الأرض وهذا عبارة عن استعجالها إثر نزول الماء واستمرارها كذلك عادة[2].

وقال الزمخشري: فإن قلت: هلّا قيل: فأصبحَتْ بالماضي بدل من فتصبح؟

١) هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي، من محارب قيس، الغرناطي: مفسر فقيه، أندلسي، ولد سنة ٤٨١هـ. بغرناطة. عارف بالأحكام والحديث، له شعر. ولي قضاء المرية، وكان يكثر الغزوات في جيوش الملثمين. وتوفي بلورقة. من أهم كتبه: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز, والمجموع في ذكر مروياته وأسماء شيوخه. قيل في تاريخ وفاته سنة ٥٤١ و ٥٤٦هـ. بتصرف: الأعلام للزركلي (٢٨٢/٣). كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون, مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي المعروف باسم حاجي خليفة (١٦١٣/٢) الناشر: مكتبة المثنى – بغداد, تاريخ النشر: ١٩٤١م.

٢) بتصرف: تفسير ابن عطية (١٣١/٤).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ولم صرف إلى لفظ المضارع؟ قلت: لنكتة فيه، وهي إفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان، كما تقول: أنعم عليّ فلان عام كذا، فأروح وأغدو شاكرا له. ولو قلت: فرحت وغدوت، لم يقع ذلك الموقع. فإن قلت: فما له رفع ولم ينصب جوابا للاستفهام؟ قلت: لو نصب لأعطى ما هو عكس الغرض، لأن معناه إثبات الاخضرار، فينقلب بالنصب إلى نفي الاخضرار، مثاله أن تقول لصاحبك: ألم تر أني أنعمت عليك فتشكر: إن نصبته فأنت ناف لشكره شاكٍ تفريطه فيه، وإن رفعته فأنت مثبت للشكر. وهذا وأمثاله مما يجب أن يرغب له من اتسم بالعلم في علم الإعراب وتوقير أهله. لطيف واصل علمه أو فضله إلى كل شيء خبير بمصالح الخلق ومنافعهم - سبحانه وتعالى -

في قوله تعالى: «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة» عطف المضارع المستقبل على الماضي ولم يقل فأصبحت عطفا على أنزل وذلك لإفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان فانزال الماء مضى وجوده واخضرار الأرض باق لم يمض.

«وانما عبر بالمضارع لأن فيه تصويرا للهيئة التي الأرض عليها والحالة التي لابست الأرض والماضي يفيد انقطاع الشيء[1].

وعلى هذا فأقوال غالب المفسرين في قوله: ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ فيه التعبير عن مصير الأرض خضراء بصيغة (تصبح مخضرة) مع أن ذلك مفرع على فعل أنزل من السماء ماء الذي هو بصيغة الماضي؛ لأنه قصد من المضارع استحضار تلك الصورة العجيبة الحسنة، ولإفادة بقاء أثر إنزال المطر زمانا بعد زمان. ودلل العلماء على أن الفعل المضارع يدل على أن

١) بتصرف: تفسير الزمخشري (٣/ ١٦٨). إعراب القرآن وبيانه (ص٤٧٢)، تفسير الرازي (٢٣/ ٢٤٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

استعجالها أثر نزول الماء بالنبات واستمرارها كذلك عادة، وصيغة الاستقبال لاستحضار صورة الاخضرار مع الإشعار بتجدد الإنزال واستمراره، وهذا المعنى لا يحصل إلا بالمستقبل، والرفع هنا متعين لأنه لو نصب لانعكس المعنى المقصود فينقلب إلى نفي الاخضرار، والمقصود إثباته.

وقالوا: إن الاستفهام إنكاري، لأنه نزلت غفلة كثير من الناس عن الاعتبار بهذه النعمة والاعتداد بها منزلة عدم العلم بها، فأنكر ذلك العدم على الناس الذين أهملوا الشكر والاعتبار.

وإنما حكيَ الفعل المستفهم عنه الإنكاري مقترنا بحرف (لم) الذي يخلصه إلى المضي، وحكي متعلقه بصيغة الماضي في قوله: أنزل من السماء ماء وهو الإنزال بصيغة الماضي كذلك ولم يراع فيهما معنى تجدد ذلك لأن موقع إنكار عدم العلم بذلك هو كونه أمرا متقرراً ماضيا لا يدعى جهله. وقال المفسرون إن قوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً) هو استفهام تقريري كما يدلّ عليه الرفع في قوله تعالى(فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً) بالعطف على أنزل. وإيثار صيغة الاستقبال هو للإشعار بتجدد أثر الإنزال واستمراره، أو لاستحضار صورة الاخضرار ثم أعقب تزييل الآية الكريمة بقوله: (إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾) لطيف يصل لطفه أو علمه إلى كل ما جل ودق. وخبير بما يليق من التدابير الحسنة ظاهرا وباطنا[1].

****

١) بتصرف: تفسير أبي حيان (٥٣١/٧، ٥٣٢)، تفسير أبي السعود (١١٧/٦)، تفسير ابن عاشور (٣١٨/١٧)، فتح القدير للشوكاني (٥٥١/٣).

المطلب الثالث: التفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع:

قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾) [سورة الحج: ٦٥].

معنى الآية إجمالاً:

قلت: هذه الآية تعد امتداد للآية السابقة، فما في السماء وما في الأرض هو ملك له - سبحانه - لكنه سخره لمنفعة خلقه، فإن سأل سائل: فلماذا لا يجعلها الله لنا ويملكنا إياها؟ نقول: لأن ربك يريد أن يطمئنك أنه لن يعطيها لأحد أبدا، وستظل ملكا لله وأنت أيها المخلوق لك حق الانتفاع بها، ثم هل تأمن إن ملكها الله لغيره أن يتغير لك ويحرمك منها؟ فأمنك الحقيقي في أن يظل الملك لله وحده؛ لأنه ربك ومتوليك، ولن يتنكر في منفعتك.

وتأمل دقة الأداء القرآني من الله الذي يعلم ما كان، ويعلم ما يكون، ويعلم ما سيكون، فلقائل الآن أن يقول: لم نعد في حاجة إلى الريح لتسيير السفن، أو توجهها؛ كما كان سابقا لأنها أصبحت تسير الآن بآلات ومحركات، نعم السفن الآن تسير بالمحركات، لكن للريح معنى أوسع من ذلك، فالريح ليست هذه القوة الذاتية التي تدفع السفن على صفحة الماء، إنما الريح تعني القوة في ذاتها، أيا كانت، فقد جعلها الله عذابا لبعض الأمم السابقة.

(وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ) أي وإن الله يمسك أجرام الكواكب من شموس وأقمار وكواكب نيرات بنظام الجاذبية، إذ جعل لكل منها مدارا خاصا بها لا تعدوه بحال، ولا تزال كذلك ما بقيت الحياة الدنيا، حتى إذا اقتربت الساعة اختل نظامها وانتثرت في الفضاء.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قوله: (إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ) فمن صفاته تعالى الرأفة والرحمة، والفهم السطحي لهاتين الصفتين يرى أنهما واحد، لكن هما صفتان مختلفتان، فالرأفة تزيل الآلام، والرحمة تزيد الإنعام، والقاعدة أن درء المفسدة مقدم دائما على جلب المصلحة، فربك يرأف بك فيزيل عنك أسباب الألم قبل أن يجلب لك نفعا برحمته[1].

فبعد أن ذكر الله - تعالى - عظيم قدرته على تحقيق النصر للمؤمنين، أتى بأنواع من الدلائل على قدرته البالغة، من إيلاج الليل في النهار وبالعكس وخلقه لهما وتصرفه فيهما وعلمه بما يجري فيهما، وإنزال المطر لإنبات النبات، وخلقه السموات والأرض وملكه لهما، وتسخيره ما في الأرض والفلك، وإمساك السماء من الوقوع على الأرض، والإحياء والإماتة ثم الإحياء مرة أخرى. ألم تر أن الله تعالى ذلل لكم ما في الأرض من الدواب والبهائم والزروع والثمار وغيرها، لركوبكم وطعامكم وكل منافعكم، كما ذلل لكم السفن العملاقة تجري في البحر بقدرته وأمره فتحملكم مع أمتعتكم إلى حيث تشاؤون من البلاد والأماكن، وهو الذي يمسك السماء فيحفظها من الوقوع على الأرض فيهلك من عليها إلا بإذنه - سبحانه وتعالى - بذلك؟ فإن الله ليرحم الناس رحمة واسعة في عاجلهم وآجلهم ومن رحمته به ما سخره لهم من هذه الأشياء وغيرها؛ تفضلا منه عليهم[2].

ويعتبر هذا من نسق التذكير بنعم الله واقع في قوله: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ) **كما جاء في الآية السابقة (**أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً**) [الحج: 63] ، فهو من عداد الامتنان**

١) بتصرف: تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٩١٣)، تفسير المراغي (١٧/ ١٣٧).

٢) بتصرف: التفسير المنير للزحيلي (١٧/ ٢٦١)، التفسير الميسر (١/ ٣٤٠).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والاستدلال، فكان كالتكرير للغرض، ولذلك فصّلت الجملة ولم تعطف. وهنا تذكير بنعمة تسخير الحيوان وغيره. والخطاب هنا والاستفهام كلاهما كما في الآية السابقة.

والتسخير هو هنا بمعنى تسهيل الانتفاع بدون مانع وهو يؤذن بصعوبة الانتفاع لولا ذلك التسخير، وأصله تسهيل الانتفاع بما فيه إرادة التمتع مثل تسخير الخادم وتسهيل استخدام الحيوان، بأن جعل الله فيها طبع الخوف من الإنسان مع تهيئتها للإلف بالإنسان، ثم أطلق على تسهيل الانتفاع بما في طبعه أو في حاله ما يتعذر الانتفاع به لولا ما ألهم الله إليه الإنسان من وسائل التغلب عليها بتعرف نواميسه وأحواله وحركاته وأوقات ظهوره. والمعنى: لو شاء الله لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه. وجملة تجري في البحر بأمره في موضع الحال من الفلك وإنما خص هذا بالذكر لأن ذلك الجري في البحر هو مظهر التسخير إذ لولا الإلهام إلى صنعها على الصفة المعلومة لكان حظها من البحر الغرق. وقوله بأمره هو أمر التكوين إذ جعل البحر صالحا لحملها.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ ﴾ أي: شديدُ الرَّحمةِ، أو ذو رحمةٍ واسعةٍ، والرَّأفةُ أعلَى معاني الرَّحمةِ، وأصلُ (رأف): يدلُّ على رِقَّةٍ ورَحمةٍ

إنه بهم لذو رأفة ورحمة، فمن رأفته بهم ورحمته لهم أمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وسخر لكم ما وصف في هذه الآية تفضلا منه عليكم بذلك[1].

١) بتصرف: التحرير والتنوير (٣٢١/١٧). تفسير ابن كثير (٤٥١/٥).

موضع الالتفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع:

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى (تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۚ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ) في كلمة(وَيُمْسِكُ) بصيغة الفعل المضارع، حيث عدل بطريق الالتفات من صيغة الماضي قبله في قوله تعالى: (أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم) (سَخَّرَ) وهنا نجد أن السياق القرآني التفت عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع وكان مقتضى السياق أن يقال: (وأمسك السماء). ليتوافق مع ما قبله من الفعل الماضي (سخّر) الذي هو للفعل الماضي، لكنه عدل عن ذلك بطريق الالتفات من الماضي للمضارع وذلك لسبب بلاغي بديع وهو الاستحضار التام لنعم الله على عباده واستشعارها في تسخير كل شيء للإنسان وإمساك السماء من الوقوع على الأرض فيتأذى الجميع من وقوعها، كما أن في الآية دلالة واضحة على عظيم قدرة الله تعالى، وجليل رأفته ورحمته بعباده.

سبب الالتفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع:

قلت: جاء سبب الالتفات هنا في هذه الآية الكريمة لبيان قدرة الله تعالى المطلقة في دوام إمساك السماء العظيمة وذلك لبيان عظمته وطلاقة قدرته، ورحمته بعباده، وذلك لدوام استحضار نعم الله على عباده، هذه النعم التي نراها على الدوام مما يساعد على دوام عبادتنا لربنا بسبب هذه النعم الدائمة.

أراء العلماء في الالتفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع:

يقول ابن عاشور: إن الله بتدبير علمه وقدرته جعل للسماء نظاما يمنعها من الوقوع على الأرض، فيكون قوله ويمسك السماء امتنانا منه على الناس بالسلامة مما يفسد حياتهم، ويكون قوله إلا بإذنه للاحتراس وذلك جمعا

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بين الامتنان عليهم والتخويف منه، ليكون الناس شاكرين مستزيدين من النعم خائفين من غضب ربهم أن يأذن لبعض السماء بالوقوع على الأرض. وقد أشكل الاستثناء بقوله إلا بإذنه فقيل في دفع الإشكال إن معناه إلا يوم القيامة يأذن الله لها في الوقوع على الأرض[1].

وفي قولُه: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ) فيه تقديم الجارّ والمجرور في قوله (لَكُمْ) على المفعولِ الصَّريحِ (مَا)؛ للاهتمامِ بالمُقدَّم؛ لتعجيل المسرَّة، والتَّشويق إلى المُؤخَّر، (وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ) أي من أن تقع أو كراهة أن تقع بأن خلقها على هيئة متداعية إلى الاستمساك (إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ) أي بمشيئته وذلك يوم القيامة، وفي هذا دليل على عظيم قدرة الله[2].

وموقع جملة إن الله بالناس لرؤف رحيم موقع التعليل للتسخير والإمساك باعتبار الاستثناء لأن في جميع ذلك رأفة بالناس بتيسير منافعهم الذي في ضمنه دفع الضر عنهم. والرؤوف: صيغة مبالغة من الرأفة أو صفة مشبهة، وهي صفة تقتضي صرف الضر.

والرحيم: وصف من الرحمة، وهي صفة تقتضي النفع لمحتاجه. وقد تتعاقب الصفتان، والجمع بينهما يفيد ما تختص به كل صفة منهما ويؤكد ما تجتمعان عليه[3].

****

١) التحرير والتنوير (٣٢٣/١٧).
٢) بتصرف: تفسير أبي السعود (١١٨/٦).
٣) بتصرف: التحرير والتنوير (٣٢٥/١٧).

المطلب الرابع: الالتفات عن المضمر إلى الاسم الظاهر:

قال تعالى: (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ ۖ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾) [الحج: ٤٢ – ٤٤].

المعنى العام للآية الكريمة:

قلت: لما نعى الله على المشركين مساويهم في شؤون الدين بإشراكهم بالله غيره من المخلوقات، وإنكارهم البعث يوم القيامة، وصدهم عن الإسلام وعن المسجد الحرام وما ناسب ذلك في غرضه من إخراج أهله منه، عطف هنا إلى ضلالهم بتكذيب النبي - صلى الله عليه وسلم - فقصد من ذلك تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولذلك مثلهم بأمثال الأمم التي استأصلها الله بالعذاب، ومن ثم تهديدهم بنفس المصير الذي صار إليه المكذبين من قبلهم.

كما أن في هذه الآيات مواساة للنبي الكريم، وعزاء جميل من رب العالمين، لما يلقى من قومه من تكذيب، وسفه، وتطاول.. فتلك هي طريقك كما كانت سبيل الأنبياء مع أقوامهم، وأنت أيها النبي الكريم لست بمعزل عن هذا الطريق، ولا قومك ببدع بين الأقوام. إنه حق وباطل، وهدى وضلال، وإنه لا بد من حدوث صدام بين أصحاب الحق وأهل الباطل، وبين دعاة الهدى، وأئمة الضلال، سنة الله في خلقه والباقية إلى يوم القيامة.

(فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) أمهلتهم بتأخير العقاب لهم ثم

أخذتهم بالعذاب الشديد الأليم، فكيف كان نكيري عليهم بتكذيبهم لرسلهم، ومن ثم كان عليّ إهلاكهم، والاستفهام هنا للتقرير أي هو واقع موقعه.

والمعنى: لا تحزن- أيها الرسول الكريم- لأن هؤلاء المشركين قد كذبوك فيما جئتهم به من عند ربك، وأعرضوا عنه، فإن قوم نوح، وقوم هود. وقوم صالح، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقوم موسى، قد كذبوا هؤلاء الأنبياء الكرام، وما يقال لك من هؤلاء المشركين، قد قيل للرسل من قبلك[1].

فبعد أن بين الله – سبحانه وتعالى - فيما سلف أن المشركين أخرجوا المؤمنين من ديارهم بغير حق، بل ظلما وعدوانا منهم للمؤمنين بالله، ولهذا أذن لهم في مقاتلتهم، ومن ثم ضَمِن لهم النصرة عليهم بقوة إيمانهم بربهم. أردف هذا تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على ما يرى من قومه، وتصبيره على أذاهم وتكذيبهم إياه، فأبان له أن هذا التكذيب ليس بدعا في الأمم، فكثير منها قد كذبت رسلها لذا حلّ بها من البوار ما فيه عبرة لمن اعتبر وتذكَّر واتعظ بما حدث لهم، مما يشاهدونه رأى العين في حِلّهم وترحالهم، وفي غدوهم ورواحهم، فلا تحزن يا محمد على ما تراه منهم، واصبر فإن العاقبة للمتقين.

أي: فانظُر - يا محمد - كيف كانت مُعاقَبتي لهم؟ فلْيعتَبِر بذلك هؤلاء المكذِّبونَ مِن قومك أن يُصيبَهم ما أصاب أولئك المكذبين السابقين؛ فإنهم ليسوا خيرًا منهم. وهذا فيه تسلية لنبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - عما

١) بتصرف: تفسير الجلالين (ص: ٤٣٩)، التفسير القرآني للقرآن (١٠٤٩/٩)، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي (٣٢٠/٩)، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولى، تاريخ النشر: ١٩٩٧م.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يناله من أذى المشركين بالله، وحاضًا له على الصبر على ما يلحقه منهم من السب والتكذيب: كأنه يقول إن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون بالله على ما آتيتهم به من الحق والبرهان، وما تعدهم من العذاب على كفرهم بالله، فذلك سنة إخوانهم من الأمم الخالية المكذبين رسل الله، المشركين بالله ومنهاجهم من قبلهم، فلا يصدنك ذلك، فإن العذاب المهين من ورائهم ونصري إياك وأتباعك عليهم آتيهم من وراء ذلك، كما أتى عذابي على أسلافهم من الأمم الذين من قبلهم بعد الإمهال إلى بلوغ الآجال. فقد كذبت قبل مشركي قريش من أهل مكة الكثير من السابقين مثل قوم نوح، وقوم عاد وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب مدين، كذب كل هؤلاء رسلهم. وكذب موسى[1].

موضع الالتفات عن المضمر إلى الاسم الظاهر:

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى (وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ) في كلمة (قبلهم) بصيغة الضمير، حيث عدل بطريق الالتفات من المضمر في (قبلهم) إلى الاسم الظاهر بدلا من المضمر في قوله تعالى: (فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ) (الكافرينَ) وهنا نجد أن السياق القرآني التفت عن المضمر إلى الاسم الظاهر وكان مقتضى السياق أن يقال: (فأمليت لهم). ليتوافق مع ما قبله من الضمير (كذبت قبلهم) الذي هو المضمر، لكنه عدل عن ذلك بطريق الالتفات من المضمر للاسم الظاهر وذلك لسبب بلاغي هو توبيخ الكفار بسبب شركهم وتكذيبهم لنبيهم كما فعل السابقون من المكذبين لرسلهم، وتسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم – وأنه ليس

١) بتصرف: تفسير المراغي (١٢١/١٧). تفسير القاسمي (٢٥٠/٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وحيدا فريدا بل سبقه كل إخوانه من الأنبياء في صبرهم على دعوة ربهم وتبليغ دينه وقابلهم أقوامهم بكل منكر وظلم.

سبب الالتفات عن المضمر إلى الاسم الظاهر:

قلت: جاء سبب الالتفات هنا في هذه الآية الكريمة هو تسلية النبي - صلى الله عليه وسلم -، بما وقع للأنبياء السابقين وبخاصة موسى – عليهم السلام جميعا - مع عظم ما جاء به من الآيات البينات الواضحات، وتكذيب أقوامهم لهم، وفي ذلك أيضا تعظيم للتأسية وتفخيم للتسلية له – صلى الله عليه وسلم -.

أراء العلماء في الالتفات عن المضمر إلى الاسم الظاهر:

قال ابن عاشور - رحمه الله - [1]وقوله: (فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ) معناه فأمليت لهم، فوضع الظاهر موضع الضمير للإيماء إلى أن علة الإملاء لهم ثم أخذهم هو الكفر بالرسل تعريضا بالنذارة لمشركي قريش.

والأخذ حقيقته: التناول لما لم يكن في اليد، واستعير هنا للقدرة عليهم بتسليط الإهلاك بعد إمهالهم، ومناسبة هذه الاستعارة أن الإملاء لهم يشبه بعد الشيء عن متناوله فشبه انتهاء ذلك الإملاء بالتناول، شبه ذلك بأخذ الله إياهم عنده، لظهور قدرته عليهم بعد وعيدهم، والإملاء هو ترك المتلبس بالعصيان دون تعجيل عقوبته وتأخيرها إلى وقت متأخر حتى يحسب أنه قد نجا ثم يؤخذ بالعقوبة.

والفاء في فأمليت للكافرين للتعقيب دلالة على أن تقدير هلاكهم حاصل

١) سبق ترجمته.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من وقت تكذيبهم وإنما أخر لهم، وهو تعقيب موزع، فلكل قوم من هؤلاء تعقيب إملائه، والأخذ حاصل بعد الإملاء بمهلة، فلذلك عطف فعله بحرف المهلة.

وعطفت جملة فكيف كان نكير بالفاء لأن حق ذلك الاستفهام أن يحصل عند ذكر ذلك الأخذ، وهو استفهام تعجيبي، أي فاعجب من نكيري كيف حصل. ووجه التعجيب منه أنهم أبدلوا بالنعمة محنة، وبالحياة هلاكا، وبالعمارة خرابا فهو عبرة لغيرهم، والنكير: الإنكار الزجري لتغيير الحالة التي عليها الذي ينكر عليه[1].

(وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ) يا محمد لا تأسف على هؤلاء المكذبين، فربك سيأخذهم وإن كانوا أمكن الناس، فقد فعلت بمن قبلهم ذلك، فلا يحزنك أمرهم وأتى سبحانه بتاء التأنيث في (كَذَّبَتْ) تحقيرا لهؤلاء المكذبين بالنسبة لقدرته وإن كانوا أشد الناس.

ولما كانت هذه الأمم لعظمهم وتمادي أزمانهم كأنهم قد استغرقوا الزمان كله، لم يأت بالجار فقال:(قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ) ولم قل من قبلهم، ولما كان موسى عليه السلام قد أتى من الآيات المرئية ثم المسموعة بما لم يأت بمثله أحد ممن تقدمه، فكان تكذيبه في غاية من البعد، غير سبحانه الأسلوب تنبيها على ذلك، ومن ثم أظهر ما حقه الإضمار فقال: (وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ) ولم يقل أمليت لهؤلاء أو أمليت لهم، وفي ذلك أيضا تعظيما للتأسية بهم، وتفخيما للتسلية للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم -. وفي هذا بيان للنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - أن الذي عامله به قومه

١) بتصرف: التحرير والتنوير (٢٨٣/١٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من التكذيب قد عومل به غيره من الرسل الكرام، وذلك حتى يسليه ويخفف عليه لذا قال له: (فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ) أي فتعقب عن تكذيبهم أني أمهلتهم بتأخير عقوبتهم إلى الوقت الذي ضربته لهم، وعبر عن طول الإملاء بأداة التراخي لزيادة التأسية فقال: (فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ) وذلك تنبيه منه - سبحانه وتعالى - على أنه كان في أخذهم عبر وعجائب، وأهوال وغرائب، بالاستفهام في قوله: (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾) أي إنكاري لأفعالهم، فليحذر هؤلاء الذين أتيتهم بأعظم ما أتى به رسول قومه مثل ذلك[1].

يقول الإمام الطبري[2]: يقول تعالى ذكره مسليا نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - عما يناله من أذى المشركين بالله، وحاضا له على الصبر على ما يلحقه منهم من السب والتكذيب: وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون بالله على ما آتيتهم به من الحق والبرهان، وما تَعِدُهم من العذاب على كفرهم بالله، فذلك سنة إخوانهم من الأمم الخالية المكذبة رسل الله، المشركون بالله ومنهاجهم من قبلهم، فلا يصدنك ذلك، فإن العذاب المهين من ورائهم ونصري إياك وأتباعك عليهم آتيهم من وراء ذلك، كما أتى عذابي على أسلافهم من الأمم الذين من قبلهم بعد الإمهال إلى بلوغ الآجال. فقد كذبت قبلهم

---

١) (بتصرف: أضواء البيان الشنقيطي (٢٦٦/٥)، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (٦١/١٣).

٢) أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي الطبري، من أهل آمل، الفقيه المؤرخ المفسر الإمام. ولد في آمل طبرستان سنة ٢٢٤هـ، واستوطن بغداد وتوفي بها. وعرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى. قدم إلى مصر سنة ٢٦٣هـ، وكتب بها، ورجع إلى بغداد، وصنّف تصانيف حسنة، تدل على سعة علمه منها: جامع البيان في تفسير القرآن، و أخبار الرسل والملوك وغيرها. وكانت وفاته ببغداد في العشر الأواخر من شوال سنة ٣١٠هـ عشر وثلاثمائة بتصرف: الأعلام للزركلي (٦٩/٦). تاريخ ابن يونس المصري عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت طبعة أولى، ١٤٢١هـ (١٩٦/٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يعني مشركي قريش; قوم نوح، وقوم عاد وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب مدين[1].

والواو في وإن يكذبوك استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم والمعنى أنك يا محمد لست بأوحدي في التكذيب، فقد كذب الرسل قبلك أقوامهم، وكفاك بهم أسوة، ووضع الظاهر موضع الضمير العائد إلى المكذبين لذمهم بالكفر الذي هم عليه[2].

وهذه آية تسلية للنبي عليه السلام ووعيد لقريش، وذلك أنه مثلهم بالأمم المكذبة المعذبة ووضع الظاهر موضع المضمر العائد على المكذبين لذمهم بالكفر والتصريح بمكذبي موسى عليه السلام حيث لم يذكروا فيما قبل تصريحا ثم أخذتهم أي أخذت كل فريق من فريق المكذبين بعد انقضاء مدة إملائه وإمهاله. والأخذ كناية عن الإهلاك فكيف كان نكير أي إنكاري عليهم بتغيير ما هم عليه من الحياة والنعمة وعمارة البلاد وتبديله لضده، والاستفهام للتعجب كأنه قيل فما أشد ما كان إنكاري عليهم، وفي الجملة إرهاب لقريش، وفيه إرشاد له صلى الله عليه وسلم إلى الصبر على قومه والاقتداء بمن قبله من الأنبياء في ذلك. وكذلك للإيذان بأن تكذيبهم له كان في غاية الشناعة لكون آياته في كمال الوضوح، ووضع الظاهر موضع الضمير العائد إلى المكذبين لذمهم بالكفر. وقوله {فكيف كان نكير} أي إنكاري عليهم بالإهلاك أي فكان ذلك في غاية ما يكون من الهول والفظاعة[3].

****

١) تفسير الطبري (٦٥٢/١٨)، تفسير القرطبي (٧٣/١٢)، تفسير ابن كثير (٤٣٧/٥).

٢) بتصرف: تفسير الزمخشري (١٦١/٣) إعراب القرآن وبيانه, محي الدين درويش (٤٤٣/٦)، تفسير أبي السعود (١١٠/٦).

٣) بتصرف: فتح القدير للشوكاني (٥٤٢/٣)، تفسير ابن عطية (١٢٦/٤) تفسير الرازي (٢٣١/٢٣). تفسير الألوسي (١٥٧/٩). تفسير أبي السعود (١١٠/٦).

المطلب الخامس: الالتفات عن وضع الاسم الظاهر مكان المضمر:

قال تعالى: (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢) [سورة الحج: ٥٢].

المعنى العام للآية:

قلت: جاءت هذه الآية تسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، (وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ) سبحانه وتعالى عليم بما أوحى إلى رسله من شرع، وبما يلقى الشيطان في قلوب بعض الخلق ممن يتبعون غوايته؛ أي: ذو الحكمة البالغة في تمكينه من ذلك الإلقاء، يفعل ما يشاء ليميز به الثابت على الإيمان من المتزلزل فيه؛ أي: والله عليم بكل شيء، ومن ذلك ما يصدر عن الشيطان وأوليائه، فيجازيهم عليه أشد الجزاء. وهو - سبحانه - حكيم في أفعاله، ومن ذلك أن يمكن الشيطان من إلقاء الشبهات، ليحاج أولياءه بها، فيتمكن المؤمنون من ردها، ودحض المفتريات التي يتشدقون بها، ويرجع الحق إلى نصابه، فتظهر الحقيقة ناصعة بيضاء، من بين تلك الظلمات، فتمحو الظلام الذي كان عالقا بنفوس الذين في قلوبهم مرض، وتضيء آفاق العقول السليمة، وتهديهم إلى طريق الرشاد[1].

كان من شدة حرص النبي - صلى الله عليه وسلم - عندما أعرض عنه قومه وشاقوه وخالفوه ولم يشايعوه على ما جاء به، ومن ثم فقد تمنى النبي -

١) بتصرف: الكشاف، الزمخشري (١٦٤/٣). حدائق الروح والريحان، الأمين الهرري (٣٧٤/١٨). روح المعاني الألوسي (١٦٥/٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صلى الله عليه وسلم - لفرط أسفه عليهم، وحزنه من إعراضهم، ولحرصه وتهالكه على إسلامهم أن لا ينزل عليه ما ينفرهم، لعله يتخذ من ذلك طريقا إلى استمالتهم واستنزالهم عن غيهم وعنادهم الذي هم فيه.

هذه الآية الكريمة، ولّد منها بعض أهل التفسير وأصحاب السّير، قصة «الغرانيق» وهي قصة لا أصل لها عند جمهور المفسرين، قوله: (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ) هو خبر يتضمن حكما عاما، لا انفكاك منه. يقع على رسل الله وأنبيائه جميعا. وهذا الحكم، هو: أنه ما من رسول من رسل الله، ولا نبي من أنبيائه، إلا والشيطان راصد له، وأنه كلّما تمنّى ألقى الشيطان في أمنيّته! هذا صريح ما تنطق به كلمات الله، في وضوح وجلاء..

والتمني في اللغة معروف، وهو طلب النّفس لرغيبة من الرغائب المحبوبة، البعيدة عن أن تنال، بعدا يكاد يبلغ حدّ الاستحالة، وكلّ أمنية لرسول، ورغيبة كلّ نبي، هي أن يرى قومه على الهدى الذي يدعوهم إليه، وأن يصبحوا جميعا في عِداد المؤمنين بالله.. فتلك هي رسالته الأولى في الناس، يعيش لها، ويعمل من أجل تحقيقها، وأن سعادته كلها هي أن يرى نجاح مسعاه، وثمرة جهاده، في هذه الأعداد التي استجابت له واتبعته، وأنه كلما كثرت هذه الأعداد، تضاعفت سعادته، وعظمت غبطته[1].

وهذه الآية جاءت تسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وتزييل الآية بقوله: (وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ) سبحانه وتعالى عليم بما أوحى إلى رسله من شرع، وبما يلقى الشيطان في قلوب بعض الخلق ممن يتبعون غوايته؛ أي: ذو الحكمة

١) بتصرف: التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب (٩/ ١٠٦٥). التفسير الواضح (٢/ ٥٩٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

البالغة في تمكينه من ذلك الإلقاء، يفعل ما يشاء ليميز به الثابت على الإيمان من المتزلزل فيه؛ أي: والله عليم بكل شيء، ومن ذلك ما يصدر عن الشيطان وأوليائه، فيجازيهم عليه أشد الجزاء. وهو - سبحانه - حكيم في أفعاله[1].

موضع الالتفات عن وضع الاسم الظاهر مكان المضمر.

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى: (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ) وذلك بالضمير الذي بنون العظمة إلى قوله تعالى: (فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (فَيَنْسَخُ الله – ثم يُحْكِمُ الله – والله عليم) بالاسم الظاهر لفظ الجلالة (الله)، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: (فنسخنا . ثم حكمنا آياتنا – ونحن أعلم) أو (فننسخ – ثم نُحكم آياتنا – وإنا) ليتوافق مع السياق السابق قوله تعالى: (أَرْسَلْنَا) ويكون جميع السياق بالضمير، لكن السياق القرآني عدل عن هذا بطريق الالتفات عن المضمر إلى الاسم الظاهر لسرٍّ بلاغي هو زيادة التقرير في الآية الكريمة وذلك لبيان قدرته – سبحانه وتعالى - على نسخ ما يلقيه الشيطان، وأن الأنبياء محفوظون بحفظ الله.

سبب الالتفات عن وضع الاسم الظاهر مكان المضمر:

والمتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات هو زيادة التقرير، والإيذان بأن الألوهية من موجبات إحكام آياته الباهرة.

وهذا ما وضحه الإمام أبو السعود حيث قال: وفي قوله (فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ) أي أن الله يبطل هذا الوسواس الذي يلقيه الشيطان في أمنية الرسول ويذهب به، وذلك بعصمته عن الركون إليه، وإرشاده إلى ما يزيحه

١) بتصرف: الكشاف، الزمخشري (١٦٤/٣). حدائق الروح والريحان، الأمين الهرري (٣٧٤/١٨). روح المعاني الألوسي (١٦٥/٩).

(ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ)أي يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق في شئون الحق، وصيغة المضارع في الفعلين للدلالة على الاستمرار التجددي وإظهار الجلالة في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإيذان بأن الألوهية من موجبات أحكام آياته الباهرة (وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) مبالغ في العلم بكل ما من شأنه أن يعلم ومن جملته ما صدر عن العباد من قول وفصل عمدا أو خطأ فهو جل في علاه حكيم في كل ما يفعل[1].

فكأن دلالة التكلم دلالة حفظ ورعاية وعناية، تبطل ما ذهبوا إليه من القول بأن الشيطان أدخل في قول النبي ما ليس منه، وفي هذا الالتفات دلالة على الهيمنة الإلهية بالنسخ والتبديل وغيره مما يشرع بحفظ الشرع من الزيادة أو النقصان.

والمتأمل في قوله: (وَمَآ أَرۡسَلۡنَا) يجد فيه دلالة على الحماية الربانية، إذ من أرسله الله من الرسل فقد تكفل برعايته وحفظه، وناسب ذلك أنه تبع هذه اللفظة ذكر حال الشيطان مع النبي أو الرسول.

****

١) بتصرف: إرشاد العقل السليم، أبو السعود (١١٣/٦).

المطلب السادس:

الالتفات عن المبني للمعلوم إلى المبني للمجهول:

قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾[الحج: ٤٢ – ٤٤].

المعنى العام للآية:

قلت: لما نعى الله على المشركين مساويهم في شؤون الدين بإشراكهم بالله غيره من المخلوقات، وإنكارهم البعث يوم القيامة، وصدهم عن الإسلام وعن المسجد الحرام وما ناسب ذلك في غرضه من إخراج أهله منه، عطف هنا إلى ضلالهم بتكذيب النبي - صلى الله عليه وسلم - فقصد من ذلك تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ولذلك مثلهم بأمثال الأمم التي استأصلها الله بالعذاب، ومن ثم تهديدهم بنفس المصير الذي صار إليه المكذبين من قبلهم.

كما أن في هذه الآيات مواساة للنبي الكريم، وعزاء جميل من رب العالمين، لما يلقى من قومه من تكذيب، وسفه، وتطاول.. فتلك هي طريقك كما كانت سبيل الأنبياء مع أقوامهم، وأنت أيها النبي الكريم لست بمعزل عن هذا الطريق، ولا قومك ببدع بين الأقوام. إنه حق وباطل، وهدى وضلال، وإنه لا بد من حدوث صدام بين أصحاب الحق وأهل الباطل، وبين دعاة الهدى، وأئمة الضلال، سنة الله في خلقه والباقية إلى يوم القيامة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أمهلتهم بتأخير العقاب لهم ثم أخذتهم بالعذاب الشديد الأليم، فكيف كان نكيري عليهم بتكذيبهم لرسلهم، ومن ثم كان عليّ إهلاكهم، والاستفهام هنا للتقرير أي هو واقع موقعه.

والمعنى: لا تحزن- أيها الرسول الكريم- لأن هؤلاء المشركين قد كذبوك فيما جئتهم به من عند ربك، وأعرضوا عنه، فإن قوم نوح، وقوم هود. وقوم صالح، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وقوم شعيب، وقوم موسى، قد كذبوا هؤلاء الأنبياء الكرام، وما يقال لك من هؤلاء المشركين، قد قيل للرسل من قبلك[1].

وبعد أن بين الله – سبحانه وتعالى - فيما سلف أن المشركين أخرجوا المؤمنين من ديارهم بغير حق، بل ظلما وعدوانا منهم للمؤمنين بالله، ولهذا أذن لهم في مقاتلتهم، ومن ثم ضَمِن لهم النصرة عليهم بقوة إيمانهم بربهم. أردف هذا تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم على ما يرى من قومه، وتصبيره على أذاهم وتكذيبهم إياه، فأبان له أن هذا التكذيب ليس بدعا في الأمم، فكثير منها قد كذبت رسلها لذا حلّ بها من البوار ما فيه عبرة لمن اعتبر وتذكَّر واتعظ بما حدث لهم، مما يشاهدونه رأى العين في حِلّهم وترحالهم، وفى غدوهم ورواحهم، فلا تحزن يا محمد على ما تراه منهم، واصبر فإن العاقبة للمتقين.

موضع الالتفات عن المبني للمعلوم إلى المبني للمجهول:

قلت: جاء الالتفات في قوله تعالى ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ في كلمة (كذبت) بصيغة المبني للمعلوم في قوم نوح وكذلك

١) بتصرف: تفسير الجلالين (ص: ٤٣٩)، التفسير القرآني للقرآن (٩/ ١٠٤٩)، التفسير الوسيط، محمد سيد طنطاوي (٩/ ٣٢٠). تفسير المراغي (١٧/ ١٢١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عاد وثمود وغيرهم، حيث عدل بطريق الالتفات من البناء للمعلوم البناء للمجهول في قوله تعالى: (وَكُذِّبَ مُوسَىٰ) وهنا نجد أن السياق القرآني التفت عن البناء للمعلوم إلى البناء للمجهول. وكان مقتضى السياق أن يقال: (وكذب قوم موسى). ليتوافق مع ما قبله من الضمير (كذبت قبلهم) المبني للمعلوم، لكنه عدل عن البناء للمعلوم إلى المبني للمجهول، بتغيير الأسلوب القرآني هنا مع سيدنا موسى جاء تنبيها على أن الذين كذبوا موسى عليه السلام هم القبط (أهل مصر فرعون وقومه)، وأما قومه بنوا إسرائيل فما كذبه منهم إلا ناس يسير، لذا قال: ﴿وكذب موسى﴾ لبيان هذا وفيه تسلية النبي - صلى الله عليه وسلم – بما وقع للأنبياء السابقين من تكذيبهم لرسلهم وبخاصة موسى – عليهم السلام جميعا – فقد كُذب مع عظم ما جاء به من الآيات البينات الواضحات. كما أن فيه تحقير لمن كذب موسى إذ ضرب صفحا عن ذكرهم أو التنويه بهم.

سبب الالتفات عن المبني للمعلوم إلى المبني للمجهول:

قلت: سبب الالتفات هنا في هذه الآية الكريمة هو تسلية النبي - صلى الله عليه وسلم -. وفيه تحقير لمن كذب من قوم موسى إذ ضرب صفحا عن ذكرهم احتقارا لهم، والتنويه بفظاعة ما قاموا مع وجود الأدلة الحسية المادية التي جاءهم بها.

ولما جاء موسى عليه السلام لقومه بما طلبوه وأكثر مما طلبوه من الآيات المرئية المادية بما لم يأت بمثله أحد ممن تقدمه من إخوانه من الأنبياء، لذا كان تكذيبه في غاية من البعد، فغير سبحانه الأسلوب تنبيها على ذلك، ولبيان أن الذين أطبقوا على تكذيبه هم القبط، وأما قومه فما كذبه منهم

إلا قليل، فقال: ﴿وكذب موسى﴾ وفي ذلك أيضا تعظيم للتأسية وتفخيم للتسلية.

أراء العلماء في الالتفات عن المبني للمعلوم إلى المبني للمجهول:

قلت: يقول تعالى ذكره مسليا نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - عما يناله من أذى المشركين بالله، وحاضا له على الصبر على ما يلحقه منهم من السب والتكذيب: وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون فقد كذبت قبلهم يعني مشركي قريش; أقوام نوح، وعاد وثمود، وقوم إبراهيم، وغيرهم من المكذبين، كذب كل هؤلاء رسلهم. وأيضا كُذّب موسى، فقيل: وكذب موسى، ولم يقل: وقوم موسى، لأن قوم موسى بنو إسرائيل، وكانت قد استجابت له ولم تكذبه، وإنما كذبه فرعون وقومه من القبط.

قال في التحرير والتنوير قال: وكذب موسى لأن مكذبيه هم القبط قوم فرعون ولم يكذبه قومه بنو إسرائيل.

والأخذ حقيقته: التناول لما لم يكن في اليد، واستعير هنا للقدرة عليهم بتسليط الإهلاك بعد إمهالهم، ومناسبة هذه الاستعارة أن الإملاء لهم يشبه بعد الشيء عن متناوله فشبه انتهاء ذلك الإملاء بالتناول، شبه ذلك بأخذ الله إياهم عنده، لظهور قدرته عليهم بعد وعيدهم، والإملاء: ترك المتلبس بالعصيان دون تعجيل عقوبته وتأخيرها إلى وقت متأخر حتى يحسب أنه قد نجا ثم يؤخذ بالعقوبة.

والفاء في فأمليت للكافرين للتعقيب دلالة على أن تقدير هلاكهم حاصل من وقت تكذيبهم وإنما أخر لهم، وهو تعقيب موزع، فلكل قوم من هؤلاء تعقيب إملائه، والأخذ حاصل بعد الإملاء بمهلة، فلذلك عطف فعله بحرف المهلة.

وعطفت جملة فكيف كان نكير بالفاء لأن حق ذلك الاستفهام أن يحصل عند ذكر ذلك الأخذ، وهو استفهام تعجيبي، أي فاعجب من نكيري كيف حصل. ووجه التعجيب منه أنهم أبدلوا بالنعمة محنة، وبالحياة هلاكا، وبالعمارة خرابا فهو عبرة لغيرهم.

والنكير: الإنكار الزجري لتغيير الحالة التي عليها الذي يُنكَر عليه.

والملاحظ هنا أن الحق سبحانه ذكر المكذبين، إلا في قصة موسى فذكر المكذَّب وهو سيدنا موسى ولم يقل: وقوم موسى بل قال: وكذب موسى، لماذا؟ قالوا: لأن مهمته كانت أصعب حيث تعرض في دعوته لمن ادعى الألوهية ذاته، وأصحاب مدين هم قوم شعيب، وإنما لم يعبر عنهم بقوم شعيب لئلا يتكرر لفظ قوم أكثر من ثلاث مرات[1].

(فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ) وأتى سبحانه بتاء التأنيث في قوله (كذبت) تحقيرا للمكذبين في قدرته - سبحانه وتعالى - وإن كانوا أشد الناس.

ولما كانت هذه الأمم لعظمهم وتمادي أزمانهم كأنهم قد استغرقوا الزمان كله، لم يأت بالجار فقال: قبلهم ولم يقل من قبلهم. ولما كان موسى عليه السلام قد أتى من الآيات الواضحات البينات بما لم يأت بمثله أحد ممن تقدمه من الأنبياء، فكان تكذيبه في غاية من البعد، غير سبحانه الأسلوب تنبيها على ذلك، وعلى أن الذين أطبقوا على تكذيبه القبط، وأما قومه فما كذبه منهم إلا ناس يسير، وفي ذلك أيضا تعظيم للتأسية وتفخيم للتسلية له - صلى الله عليه وسلم -

يقول الإمام الطبري: يقول تعالى ذكره مسليا نبيه محمدا صلى الله عليه

١) التحرير والتنوير (١٧/ ٢٨٣). تفسير الشعراوي (١٦/ ٩٨٥٤). نظم الدرر (١٣/٦١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وسلم عما يناله من أذى المشركين بالله، وحاضا له على الصبر على ما يلحقه منهم من السب والتكذيب: وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون بالله على ما آتيتهم به من الحق والبرهان، وما تعدهم من العذاب على كفرهم بالله، فذلك سنة إخوانهم من الأمم الخالية المكذبة رسل الله المشركة بالله ومنهاجهم من قبلهم، فلا يصدنك ذلك، فإن العذاب المهين من ورائهم ونصري إياك وأتباعك عليهم آتيهم من وراء ذلك، كما أتى عذابي على أسلافهم من الأمم الذين من قبلهم بعد الإمهال إلى بلوغ الآجال. فقد كذبت قبلهم يعني مشركي قريش; قوم نوح، وقوم عاد وثمود، وقوم إبراهيم، وقوم لوط، وأصحاب مدين، وهم قوم شعيب. يقول: كذب كل هؤلاء رسلهم. وكذب موسى، فقيل: وكذب موسى، ولم يقل: وقوم موسى، لأن قوم موسى بنو إسرائيل، وكانت قد استجابت له ولم تكذبه، وإنما كذبه فرعون وقومه من القبط[1].

وقيل إن هذا تسلية للنبي - صلى الله عليه وسلم- وتعزية، أي كان قبلك أنبياء كُذبوا فصبروا إلى أن أهلك الله المكذبين، فاقتد بهم واصبر. وكذلك كذب موسى أي كذبه فرعون وقومه. فأما بنو إسرائيل فما كذبوه، فلهذا لم يعطفه على ما قبل[2].

والواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لتسلية النبي - صلى الله عليه وسلم - والمعنى أنك يا محمد لست بأوحدي في هذا النوع من تكذيب قوم لنبيهم، فقد كذب الرسل قبلك أقوامهم، وكفاك بهم أسوة. فإن قلت: لم قيل وكذب موسى ولم يقل: وقوم موسى؟ قلت: لأن موسى ما كذبه قومه

١) تفسير الطبري (١٨/٦٥٢).

٢) بتصرف: تفسير القرطبي (١٢/ ٧٣)، تفسير ابن كثير (٥/٤٣٧)، تفسير الزمخشري (٣/١٦١).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بنو إسرائيل، وإنما كذبه غير قومه وهم القبط. وفيه شيء آخر، كأنه قيل بعد ما ذكر تكذيب كل قوم رسولهم: وكُذب موسى أيضا مع وضوح آياته وعظيم معجزاته، فما ظنك بغيره من إخوانه المرسلين[1].

وهذه آية تسلية للنبي عليه السلام ووعيد لقريش، وذلك أنه مثلهم بالأمم المكذبة المعذبة وأسند فعلا فيه علامة التأنيث إلى قوم من حيث أراد الأمة والقبيلة ليطرد القول في عاد وثمود وقوم نوح هم أول أمة كذبت نبيها ثم أسند التكذيب في موسى عليه السلام إلى من لم يسم من حيث لم يكذبه قومه بل كذبه القبط وقومه به مؤمنون. وليسوا قومه بل قومه - عليه السلام - هم بنو إسرائيل ولم يكذبوه بأسرهم ومن كذبه منهم تاب إلا اليسير وتكذيب اليسير من القوم كلا تكذيب ألا ترى أن تصديق اليسير من المذكورين قبل عُدّ كلا تصديق ولهذا لم يقل وقوم موسى، وفي الجملة فالآية هي إرهاب لقريش ومن سار في طريقهم[2].

وقال الشوكاني[3] «هذه تسلية لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وتعزية له متضمنة للوعد له بإهلاك المكذبين له، كما أهلك سبحانه المكذبين لمن كان قبله. وفيه إرشاد له صلى الله عليه وسلم إلى الصبر على قومه والاقتداء بمن قبله من الأنبياء في ذلك»[4].

****

١) بتصرف: تفسير الزمخشري (٣/ ١٦١). إعراب القرآن وبيانه, محي الدين درويش (٦/ ٤٤٣).
٢) بتصرف: تفسير ابن عطية (١٢٦/٤). تفسير الرازي (٢٣١/٢٣). تفسير أبي السعود (١١٠/٦), تفسير الألوسي (١٥٧/٩). حدائق الروح والريحان, الأمين الهرري (٣٦١/١٨).
٣) تقدمت ترجمته.
٤) بتصرف: فتح القدير للشوكاني (٥٤٢/٣), التفسير المنير للزحيلي (٢٣٥/١٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المطلب السابع: الالتفات عن الفعل الماضي إلى المضارع:

قال تعالى:

(إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٢٥) [سورة الحج: ٢٥].

المعنى العام للآية:

قلت: لما بين الله - جل وعلا - جزاء للفريقين، وتضمن ما للفريق الثاني بيان أعمالهم الدالة على صدق إيمانهم، كرر ذكر الفريق الأول لبيان ما يدل على استمرار كفرهم، ويؤكد بيان جزائهم، فقال: (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) أي أوقعوا هذا الفعل الخبيث ولا شيء أخبث من الكفر بالله الخالق الرازق. ولما كان المضارع قد لا يلحظ منه زمان معين من حال أو استقبال، بل قد يكون المقصود منه الدلالة على مجرد الاستمرار كقولهم: فلان يعطي ويمنع، عطف المضارع (وَيَصُدُّونَ)على الماضي في قوله: (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ). قوله:(وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ) أي يديمون صد الناس عن سبيل الله بيت الله أو دين الله وذلك بوقوفهم بطرق مكة، وقول بعضهم لمن يمر به: خرج فينا ساحر، وآخر يقول شاعر، وآخر: كاهن، فلا تسمعوا منه، فإنه يريد أن يردكم عن دينكم؛ قال بعض من أسلم: لم يزالوا بي حتى جعلت في أدنى الكرسف مخافة أن أسمع شيئا من كلامهم. وكانوا يؤذون من أسلم - إلى غير ذلك من أعمالهم، ولعله إنما عبر بالمضارع رحمة منه لهم ليكون كالشرط

في الكفر فيدل على أن من ترك الصد زال عنه الكفر وإن طال ذلك منه. ولم يكتفوا بكفرهم فقط بل كذلك يصدون عن (وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ) يريدون أن لا تقام شعائره من الطواف فيه والصلاة والحج. ثم وصف الله المسجد الحرام بما يبين شديد ظلمهم في الصد عنه فقال: (ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ) بما لنا من العظمة والقدرة. ثم بين جعله لهم بأنه سواء للجميع المقيم من الناس فيه أو الزائر له من أهل البادية وليس قاصراً على فئة معينة.

ولما ذكر الكفار ودليل كفرهم بما استعطفهم، وزاد في الاستعطاف بحذف الخبر عنهم، ودل آخر الآية على أنه يذيقهم العذاب الأليم، عطف عليه ما ينفر عن وصفهم فقال: (وَمَن يُرِدۡ فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ بِظُلۡمٖ نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ) ومن يقع منه شيئا من أفعال الكفار من الصد المذكور وغيره، أي يقع منه إرادة لشيء من ذلك ببعد عن الأمر المعروف وميل واعوجاج. ولما كان ذلك يقع على مطلق هذا المعنى، بين المراد بقوله بظلم منه وتعمُّد لصد الناس عن الله وبيته الحرام فهو مستحق للعذاب المؤلم المهين.

وهذا الابتداء منه - سبحانه وتعالى - بذكر الكافرين بصفة الكفر (كَفَرُواْ) مؤكدا كفرهم بـ (إِنَّ) الدالة على التأكيد، ثم ذكر الموصول (ٱلَّذِينَ) لبيان أن الصلة هي سبب هذا الجزاء، والصلة فيها أمور ثلاثة تستدعي الاستنكار والعذاب الشديد: الأمر الأول - الكفر، وكفر أهل مكة هو الإشراك بالله تعالى بعبادة الأوثان. الأمر الثاني - الصد عن سبيل الله تعالى بإيذاء المؤمنين ومحاربتهم، ودعوة العرب إلى عدم الإيمان بالله وبرسوله الأمر الثالث - بصدهم عن المسجد الحرام، ومنعهم من أداء المؤمنين الحج فيه، ويظهر

أن هذه الآية نزلت في فترة الحديبية؛ لأن المسلمين حيل بينهم وبين الوصول إلى المسجد الحرام، وهو للناس جميعا؛ ولذا وصفه الله تعالى بالموصول بقوله:(ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ) ، أي أن هؤلاء الناس الذين يصدون الناس عن المسجد الحرام من يريد الحج إليه وقد جعله الله - الذي باركه وأكرمهم به - للناس جميعا، وليس لقريش وحدها، فهم فيه كغيرهم من الناس، وإن كان الله تعالى كرمهم بأن جعل منهم سدنة البيت والقائمين عليه وعلى خدمته وعمارته، والْعَاكِف هو المقيم في مكة، وعبر عنه بالعاكف إيماء إلى أنه ينبئ أن يكون عاكفا عابدا، لَا أن يكون وثنيا مشركا، صادًّا عنه مانعًا له، والبادي هو المقيم في البادية، وإذا كان المقيم ببادية يستوي مع المقيم في مكة حول البيت الحرام فأولى المتحضر المقيم في الحاضرة؛ ولذا قالوا: إن البادي هو من يكون من غير أهل مكة سواء الحاضر فيها والبادي.

وقوله تعالى:(وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) أي إن الذي يريد فيه إلحادا وميلا عن الحق واحترام البيت وصيانته بظلم يرتكبه بالشرك والاعتداء على حرماته، وصد الناس، ومنعهم من الطواف يذيقه الله تعالى من عذاب أليم ينزل به في الدنيا بالحروب التي يهزمون فيها، وفي الآخرة بالنار يذوقون حريقها[1].

وبهذا يكون انتهى الدرس الماضي بتصوير عاقبة الخصام في الله، ومشهد الجحيم الحارق للكافرين، والنعيم الوارف للمؤمنين.

وبهذه النهاية يتصل الدرس الجديد، فيتحدث عن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعله مقاما ومسكنا للناس، كائنا من

١) بتصرف: نظم الدرر، البقاعي (٣٣/١٣). زهرة التفاسير، أبو زهرة (٩/ ٤٩٦٧). تفسير المراغي (١٠٥/١٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كان، لا فرق فيه بين مكي وآفاقي، وضعيف وقوي، حاضر وباد، لكن أهل مكة الذين كانوا يواجهون الدعوة الإسلامية في مكة، فيصدون الناس عنها ويواجهون الرسول- صلى الله عليه وسلم- والمؤمنين فيمنعونهم من دخول المسجد الحرام، ما بال من يريد ويفعل؟ إن التعبير يهدد ويتوعد على مجرد الإرادة وذلك زيادة في التحذير، ومبالغة في التوكيد. وهذا من دقائق التعبير. ومن دقائق التعبير كذلك أن يحذف خبر إن في الجملة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ فلا يذكرهم مالهم؟ ما شأنهم؟ ما جزاؤهم كأن مجرد ذكر هذا الوصف لهم يغني عن كل شيء آخر في شأنهم، ويقرر أمرهم ومصيرهم! ثم يرجع إلى نشأة هذا البيت الحرام، الذي يستبد به المشركون، يعبدون فيه الأصنام، ويمنعون منه الموحدين بالله، المتطهرين من الشرك.. يرجع إلى نشأته على يد إبراهيم- عليه السلام- بتوجيه ربه وإرشاده[1].

قلت: يقول سبحانه إن هؤلاء الكافرين بالله المعرضين عن الإيمان به، والبعيدين عن شعائر دينه، ومع ذلك لا يكتفون بكفرهم بل يصرفون الناس أيضا عن سبيل الله وعن الدخول في دينه الذي شرعه للناس، كما يصدونهم عن سلوك معالم الهدى الذي جاءت به الرسل، وليس في وقت دون وقت بل على الدوام مستمرين في كفرهم وصدهم الناس عن دين الإسلام، كما يقومون بصدهم عن البيت الحرام الذي هو بيت الله شرفهم الله به، وقد حرم الله الإفساد فيه بالصد عنه أو المنع منه مطلقا مؤبدا، فهو الذي جعله قبلة للناس جميعا، لم يخص به أحد دون أحد، وقد فرض الله عليهم الطواف حوله والحج إليه والصلاة فيه لمن يريد لا يُمنع منه أحد، ولهذا

(١) بتصرف: الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية، النخجواني (٥٥١/١). البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة (٥٢٦/٣).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صارت مكة مشرفة بتشريف الله لها بهذا البيت العتيق بيت الله وهي ملك له ليس لأحد أن يمنع أحد منها بل الكل سواء في ذلك، أهلها العاكفين والمقيمين فيها، أو الباد الوارد عليها القادم إليها. ومن يرد البيت الحرام أو أحد من زوّاره ويقصدهم بسوء أو ميل مقترن بظلم وجور عن قصد وتعمد لا عن سهو وخطأ منه، نذقه بمجرد قصده وان لم يقم بالفعل من العذاب الأليم الموجع.

وعلى هذا فالآية بينت أنه مجرد إرادة الظلم والإلحاد في الحرم، موجب للعذاب، وإن كان غيره لا يعاقب العبد عليه إلا بعمل الظلم، فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم، من الكفر والشرك، والصد عن سبيله، ومنع من يريده بزيارة.

أي أن هؤلاء الكافرين، ولم يقفوا عند كفرهم، بل وقفوا للناس بالمرصاد، يصدونهم عن سبيل الله، ويحولون بينهم وبين الاتصال بالمسجد الحرام، الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا، وجعل فيه للبادين- وهم أهل البادية- مثل ما للعاكفين- وهم المقيمون من أهل مكة- من حق في الاتصال بهذا البيت، والطواف به، والصلاة فيه..

هؤلاء الذين كفروا، ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام.. هم أشنع الناس جرما، وأغلظهم إثما.. إنهم ليسوا كافرين وحسب، بل إنهم أضافوا إلى كفرهم الوقوف في وجه المتجهين إلى الله، وإلى بيت الله الحرام، هؤلاء لهم عذاب مضاعف، فوق عذاب الكافرين.. أما هذا العذاب فقد عرفوا بعضا منه[1].

١) بتصرف: تفسير السعدي (ص: ٥٣٦). التفسير القرآني للقرآن, عبد الكريم الخطيب (٩/ ١٠١٢). أوضح التفاسير, محمد عبد اللطيف بن الخطيب (٤٠٤/١), الناشر: المطبعة المصرية ومكتبتها, الطبعة: السادسة، ١٣٨٣هـ - ١٩٦٤م.

موضع الالتفات عن الفعل الماضي إلى المضارع:

قلت: وقد ورد الالتفات في الآية في لفظة (وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ) حيث جاءت كلمة (وَيَصُدُّونَ)بصيغة المضارع، وكان مقتضى الكلام أن يقال: (إن الذين كفروا وصدوا) بصيغة الماضي، لكن السياق القرآني عدل عن ذلك، حيث عطفت لفظة (يَصُدُّونَ) بصيغة المضارع على لفظة (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ) بصيغة الماضي، وذلك لسبب بلاغي لهذا العدول وهو بيان استمرار الصدود منهم عن سبيل الله كل من يريد الدخول في الإسلام أو يريد أن يحج بيت الله، وهذا الصد والمنع منهم متكرر ومستمرّ حتى صار ديدنهم هذا المنع.

سبب الالتفات عن الفعل الماضي إلى المضارع:

المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات هو أن صدودهم مستمر ومتكرر فصار من صفتهم الصد عن سبيل الله وهذا ما تكشفه الدراسة في أراء العلماء في الالتفات في هذا الموضع في الالتفات.

أراء العلماء في الالتفات عن الفعل الماضي إلى المضارع:

جاء التعبير في الآية الكريمة في لفظة (يَصُدُّونَ) بصيغة المضارع وكان مقتضى الكلام أن يأتي التعبير بصيغة الماضي (صَدُّوا)، وقد علل الطبري لهذا الالتفات فقال:» وعطف بـ(يَصُدُّونَ) وهو مستقبل على كفروا، وهو ماض؛ لأن الصدّ بمعنى الصفة لهم والدوام. وإذا كان ذلك معنى الكلام، لم يكن إلا بلفظ الاسم أو الاستقبال، ولا يكون بلفظ الماضي. وإذا كان ذلك كذلك، فمعنى الكلام: إن الذين كفروا من صفتهم الصدّ عن سبيل الله[1]، وإلى مثل هذا ذهب وأبو حيان في البحر[2].

١) تفسير الطبري (٧/٤٩٩).

٢) البحر المحيط (٦/٣٣٦).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويقول الشيخ أبو زهرة: «والتعبير بالمضارع في يصدون إشارة إلى استمرارهم على الصد عن سبيل الله، وقوله تعالى:

(وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) أي إن الذي يريد فيه إلحادا وميلا عن الحق واحترام البيت وصيانته بظلم يرتكبه بالشرك والاعتداء على حرماته، وصد الناس، ومنعهم من الطواف يذيقه الله تعالى من عذاب أليم ينزل به في الدنيا بالحروب التي تهزمهم، وفي الآخرة بالنار يذوقون حريقها[1].

وقال الزمخشري « ولا يراد بالمضارع في لفظة (ويصدون) حال ولا استقبال، وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه والنعشة في جميع أزمنته وأوقاته. ومنه قوله تعالى ويصدون عن سبيل الله أي الصدود منهم مستمر دائم للناس أي الذين يقع عليهم اسم الناس من غير فرق بين حاضر وباد[2].

والواضح مما سبق أن التعبير بلفظة المضارع (يَصُدُّونَ) دون لفظ الماضي(صدوا) وذلك لأن صدودهم مستمر ومتكرر فصار من صفتهم الصد عن سبيل الله ، وقد علل يحيى بن حمزة العلويّ[3] وهو أحد البلاغيين علل مجيء اللفظة بصيغة المضارع فقال: « وإنما جاء به على صيغة المضارع، وعدل عن عطف الماضي على الماضي تنبيها على أن كفرهم ثابت مستمر غير متجدد، بخلاف الصّد، فإنه متجدد على ممر الأوقات، وتكرر الساعات،

---

١) بتصرف: زهرة التفاسير, أبو زهرة (٤٩٦٧/٩).

٢) الكشاف الزمخشري (١٥١/٣).

٣) يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم، الحسيني العلوي الطالبي: من أكابر أئمة الزيدية وعلمائهم ولد سنة ٦٦٩هـ. في صنعاء. يروي أن كراريس تصانيفه زادت على عدد أيام عمره. وأظهر الدعوة بعد وفاة « المهدي « محمد بن المطهر سنة ٧٢٩ هـ وتلقب بالمؤيد بالله. واستمر إلى أن توفي سنة ٧٤٥هـ في حصن هران. من تصانيفه: الشامل في أصول الدين، والطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، والإيجاز لأسرار كتاب الطراز وغيرها من الكتب النافعة. بتصرف: الأعلام للزركلي (١٤٣/٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فلهذا جاء به على صيغة المضارع، منبها على ذلك»[1].

في ضوء ما سبق يتضح أن الكفر في الكفار ثابت مستمر غير متجدد فجاءت بصيغة الماضي، وأن الصد متجدد على مر الأوقات فجاء على صيغة المضارع، وقال الزركشي[2]«والحكمة في هذه أن الكفر لما كان من شأنه إذا حصل أن يستمر حكمه عبر عنه بالماضي ليفيد ذلك مع كونه نافيا أنه قد مضى عليه زمان، ولا كذلك الصد عن سبيل الله فإن حكمه إنما ثبت حال حصوله مع أنفي الفعل المستقبل إشعارا بالتكثير[3].

«وما ذكره بعض علماء العربية من أن المضارع قد لا يلاحظ فيه زمان معين من حال أو استقبال، فيدل إذ ذاك على الاستمرار.

وعلى هذا فقوله: إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله عطف المضارع على الماضي لأن المراد بالمضارع ما مضى من الصد، أو المراد بالصد هاهنا الاستمرار لا مجرد الاستقبال، فصح بذلك عطفه على الماضي، وصف المسجد الحرام بذلك لزيادة التقريع والتوبيخ للصادين عنه»[4].

والصد في يصدون يكون بالمنع من الهجرة والجهاد لأنهم كانوا يأبون ذلك.

وفيه إشكال وهو أنه كيف عطف المستقبل وهو قوله: ويصدون عن سبيل الله الماضي وهو قوله: كفروا والجواب: عنه من وجهين: الأول: أنه يقال

---

١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز, يحيى بن حمزة العلوي (٢/٧٤).

٢) محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، أبو عبد الله، بدر الدين: عالم بفقه الشافعية والأصول. تركي الأصل، مصري المولد والوفاة. ولد سنة ٧٤٥هـ. له تصانيف كثيرة في عدة فنون، منها: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة و لقطة العجلان في أصول الفقه, البرهان في علوم القرآن, النكت على البخاري, وغيرها من الكتب الجليلة. وتوفي بمصر سنة ٧٩٤هـ. الأعلام للزركلي (٦/٦٠) شذرات الذهب في أخبار من ذهب, ابن العماد الحنبلي (٨/٥٧٣).

٣) البرهان في علوم القرآن, لبدر الدين الزركشي (٣/٣٣٦).

٤) أضواء البيان (٤/٢٩٢). فتح القدير للشوكاني (٣/٥٢٨). تفسير ابن جزي الكلبي (٢/٣٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فلان يحسن إلى الفقراء ويعين الضعفاء لا يراد به حال ولا استقبال وإنما يراد استمرار وجود الإحسان منه في جميع أزمنته وأوقاته، فكأنه قيل إن الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله.

وثانيهما: أن التقدير إن الذين كفروا فيما مضى وهم الآن يصدون ويدخل فيه أنهم يفعلون ذلك في الحال والمستقبل.

وقيل إن المضارع هنا لا يقصد به الدلالة على زمن معين من حال، أو استقبال، وإنما يراد به مجرد الاستمرار.

وهذا التعبير بالمضارع جاء لاستحضار الصورة الماضية وذلك تهويلا لما قاموا به من أمر الصد عن سبيل الله والمسجد الحرام[1].

قلت: وقد جاءت لفظة (يَصُدُّونَ) بصيغة المضارع لأسباب منها:

١. للدلالة على أن الصد عن سبيل الله الذي حصل من كفار قريش إنما هو مستمر ومتكرر لذا صار هذا الصد صفة لهم، وللدلالة على تكرر الصد منهم.

٢. كما أن اللفظة جاءت بصيغة الفعل المضارع لأن المضارع يدل على التكثير والتعظيم والتجدد وهذا فعل شنيع منهم.

****

١) بتصرف: تفسير الرازي (٢١٦/٢٣)، الدر المصون، السمين الحلبي (٢٥٥/٨). تفسير الألوسي (١٣٢/٩). التحرير والتنوير(١٧/ ٢٣٦).

المطلب الثامن: الالتفات عن التثنية إلى الجمع:

قال تعالى: (هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ١٩) [سورة الحج: ١٩].

المعنى العام للآية:

قلت: في هذه الآية الكريمة يخبر الله تعالى عن خصومة فريقين اختصموا في دين الله وذاته وصفاته فيقول جلا وعلا :(هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ) والمعنى: إن أهل الأديان المختلفة الستة الذين تقدم ذكرهم في الآيات السابقة، وبيانهم أنهم فريقان فريق المؤمنين وهم أتباع الرسل وأتباع الدين الحق، وفريق الكافرين الذين هم أتباع الديانات الخمس المتقدمة، وهؤلاء جميعا قد تنازعوا وتجادلوا في شأن ربهم ذاتا وصفاتا وأفعالا وكذلك في الدين الذي أرسل به رسله للخلق عامة، وكل من هذه الطوائف يعتقد أنه على الحق والصواب، وأن خصمه على الباطل ومن ثم يبني كل فريق رأيه في الفريق الآخر على هذا الأساس، والحق الذي لا مرية فيه أن الله قد حدد مصير الفريقين ووضحه في هذه الآيات.

«أما الفريق الأول وهم الكافرون فجزاؤهم: (فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ) أي فالكافرون تحيط بهم النار إحاطة شاملة، وقد مثّل ذلك بأنه فُصّلت لهم ثياب مقطعات من نار تحيط بهم كإحاطة الثوب بلابسه، مما يومئ بشدة عذابهم واحتقار شأنهم، والتقطيع: مبالغة في القطع، وهو فصل بعض أجزاء شيء عن بقيته. والمراد: قطع شقة

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الثوب. فصيغت صيغة الشدة في القطع للإشارة إلى السرعة في إعداد ذلك لهم فيجعل لهم ثياب من نار. والثياب من النار ثياب محرقة للجلود وذلك من شؤون الآخرة. والحميم: الماء الشديد الحرارة»[1].

فبعد أن ذكر أرباب الفرق الست فيما سلف، وذكر أن الله يفصل بينهم يوم القيامة وهو العليم بأحوالهم وأفعالهم وأقوالهم- قفى على ذلك بذكر طرف. الخصومة، وتعيين موضع الخصومة، وبيان مآل كل من الفريقين من الإهانة والكرامة، والعذاب والنعيم.

وبهذا يخبر تعالى عن طوائف أهل الأرض، من الذين أوتوا الكتاب، من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، ومن المجوس، ومن المشركين أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم بأعمالهم التي حفظها وكتبها وشهدها، ثم فصل هذا الفصل بينهم بقوله: (هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ) كل يدعي أنه المحق (فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ) وهذا يشمل كل كافر، من اليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئين، والمشركين.

(فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ) كأن النار تفصيل على قدر جسومهم وذلك إحكاما للعذاب الذي يعيشونه، ومبالغة فيه، فليس فيها اتساع يمكن أن يقلل من شدتها، وليست فضفاضة عليهم. ثم بعد ذلك (يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ) والحميم: الماء الذي بلغ منتهى الحرارة، حتى صار هو نفسه محرقا من شدة حره، ولك أن تتصور ماء يغليه ربنا عز وجل!!. وهكذا يجمع الله عليهم ألوانا من العذاب؛ لأن الثياب يرتديها الإنسان لتستر عورته،

١) بتصرف: التفسير المنير(١٨٣/١٧). التحرير والتنوير (٢٣٠/١٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وتقيه الحر والبرد، ففيها شمول لمنفعة الجسم، لكنها هنا لتزيد في آلامه وعذابه وإهانته.

فالإذاقة ليست في اللباس فقط، إنما بشيء آخر، واللباس يعطي الإحاطة والشمول، لتعم الإذاقة كل أطراف البدن، وتحكم عليه مبالغة في العذاب[1].

وقيل إن الخصمان هما الذين آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم -، والذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، وهما خصمان؛ لأنهما في جانبين متقابلين؛ ولأن المؤمنين يؤمنون بكل ما جاء عن الله، وغيرهم يجادلون في الله؛ لأن الخصومة في الحق قائمة بينهم وهي من جانب الذين اتبعوا محمدا - صلى الله عليه وسلم - هداية وإرشادا، ومجادلة بالتي هي أحسن، ومن جانب المخالفين لهم عناد وإغواء ودس وخيانة، ومجادلة بالباطل، وادعاء له. والواضح أن الخصومة كانت في الدنيا، وفي الآخرة كان الجزاء الوفاق، وكل ينال ما يستحق[2].

موضع الالتفات عن التثنية إلى الجمع:

قلت: ورَدَ الفعل (ٱخۡتَصَمُواْ)في الآية الكريمة مسندا إلى واو الجماعة، وكان مقتضى السياق اللغوي، أو التعبير أن يأتي الفعل مسندا إلى ألف الاثنين (اخْتَصَمَا) غير أنه جاء الالتفات من التثنية إلى الجمع لدلالة يقتضيها المقام، منها الحمل على المعنى والتفرقة بين المؤمنين في الآخرة.

سبب الالتفات عن التثنية إلى الجمع.

قلت: المتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات هو التفرقة بين

١) بتصرف: تفسير الشعراوي (٩٧٦١/١٦)، تفسير المراغي (١٠٢/١٧). تفسير السعدي (ص: ٥٣٦).
٢) بتصرف: زهرة التفاسير (٤٩٦٢/٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المؤمنين يوم القيامة وبين غيرهم في المآل الأخروي كما كان فرق بينهما في الدنيا من حيث التصديق والاتباع، وهذا ما تكشفه الدراسة في أراء العلماء في الالتفات في هذا الموضع في الالتفات.

أراء العلماء في الالتفات عن التثنية إلى الجمع:

وقد جاء فعل الاختصام مسندا إلى ضمير الجماعة في الآية الكريمة (ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ) لا إلى ضمير التثنية (اخْتَصَمَا) الملائم لظاهر السياق، وقد علل العلماء لهذا العدول عن التثنية إلى الجمع بتعليلات عدة: فمنهم من جعل سر العدول عن التثنية إلى الجمع هو الحمل على المعنى في الجمع كالعلّامة الفراء[1] حيث قال: «وقوله (ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ) في دين ربهم. فقال اليهود والنصارى للمسلمين: ديننا خير من دينكم لأنا سبقناكم. فقال المسلمون: بل ديننا خير من دينكم. لأنا آمنا بنبينا والقرآن، وآمنا بأنبيائكم وكتبكم، وكفرتم بنبينا وكتابنا. فعلاهم المسلمون بالحجة وأنزل الله هذه الآية. وقوله: (ٱخۡتَصَمُواْ) ولم يقل: اختصمَا لأنهما جَمعان ليسَا برجلين، ولو قيل: اختصما كان صَوَاباً يذهب إلى الجمع»[2].

وأيده الزمخشري حيث قال: «الخصم هو صفة وُصِف بها الفوج أو الفريق،

---

١) أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، مولى بني أسد (أو بني منقر)، المعروف بالفراء: إمام الكوفيين، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب. كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو. ومن كلام ثعلب: لولا الفراء ما كانت اللغة. ولد بالكوفة سنة ١٤٤هـ، وانتقل إلى بغداد، وعهد إليه المأمون بتربية ابنه، فكان أكثر مقامه بها، فإذا جاء آخر السنة انصرف إلى الكوفة فأقام أربعين يوما في أهله يوزع عليهم ما جمعه ويبرهم. وتوفي في طريق مكة سنة ٢٠٧هـ وكان مع تقدمه في اللغة فقيها متكلما، عالما بأيام العرب وأخبارها من كتبه: معاني القرآن, الجمع والتثنية في القرآن, وغيرها من الكتب. الأعلام للزركلي (١٤٥/٨).

٢) معاني القرآن للفراء (٢١٩/٢).، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي, محمد علي النجار وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر الطبعة الأولى.

سبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فكأنه قيل: هذان فوجان أو فريقان مختصمان وقوله: (هَـٰذَانِ)للفظ، و (ٱخۡتَصَمُواْ)للمعنى. وقيل: هذان خصمان اختصموا في ربهم يعني فريق المؤمنين وفريق الكافرين المنقسم إلى الفرق الخمس المبينة في الآية قبل. و (الخصم) في الأصل مصدر، ولذا يوحد وينكر غالبا، ويستوي فيه الواحد المذكر وغيره»[1].

والمتأمل في الكلام السابق يجد أنه لم يتجاوز نطاق تبرير الظاهرة لغويا عن طريق القول إنها من باب الحمل على المعنى فجيء باسم الإشارة (هَذَانِ) مراعاة لتثنية اللفظ (خَصْمَانِ)، وأتى بضمير الجماعة في (ٱخۡتَصَمُواْ) مراعاة للمعنى.

ومن العلماء من فسر الخصم بأنه اسم شبيه بالمصدر فقال :» الخصم اسم شبيه بوصف المصدر فلذلك قال اختصموا بلفظ الجمع[2].

ومن العلماء من ذكر أن المقصود بالخصمين الطائفتين، وتضم الطائفة عددا كثيرا فجاء الفعل مسندا إلى ضمير الجماعة مراعاة للمعنى فقال: «ولما أشار بالتثنية إلى كل فرقة منهم صارت - مع كثرتها وانتشارها باتحاد الكلمة في العقيدة - كالجسد الواحد صرح بكثرتهم بالتعبير بالجمع فقال: (ٱخۡتَصَمُواْ) أي: أوقعوا الخصومة بغاية الجهد[3].

وقال أبو السعود قوله تعالى: (هَـٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡ) تعيين لطرفي الخصام وإزاحة لما عسى يتبادر إلى الوهم من كونه بين كل واحدة من الفرق الست وبين البواقي، وتحرير لمحله أي فريق المؤمنين وفريق الكفرة المقسم

١) الكشاف(١٥٠/٣). تفسير القاسمي (٢٣٨/٧).
٢) الكشف والبيان (٣١٧/١٨).
٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور(١٤٢/٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إلى الفرق الخمس خصمان أو فريقان مختصمان وإنما قيل اختصموا في ربهم، وذلك حملا على المعنى[1].

وبهذا قال ابن عاشور والشوكاني على أن «المراد من هذه الآية ما يعم جميع المؤمنين وجميع مخالفيهم في الدين. لأنهم جمع، ولو قال اختصما لجاز، ومعنى في ربهم في شأن ربهم، أي: في دينه، أو في ذاته، أو في صفاته، أو في شريعته لعباده، أو في جميع ذلك»[2].

قلت: والذي أميل إليه هو أن المذاهب والملل والطوائف والديانات كثيرة ومتنوعة في الدنيا، والله يفرق بين هؤلاء جميعا، وبين المؤمنين يوم القيامة، وهذا هو سر إسناد فعل الاختصام إلى ضمير الجمع بدلا من ضمير التثنية بيان أن الخصام ليس شخصيا بينهما وإنما هو خلاف جماعي بين المسلمين والكافرين. فأتي باسم الإشارة الموضوع للمثنى هذان؛ لمراعاة تثنية اللفظ، وأتي بضمير الجماعة اختصموا؛ لمراعاة العدد.

****

١) تفسير أبو السعود (٦/ ١٠١).

٢) فتح القدير للشوكاني (٣/ ٥٢٥). التحرير والتنوير (١٧/ ٢٢٨).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المطلب التاسع: الالتفات عن الجمع إلى المفرد:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾)

المعنى العام للآية:

قلت: هذه الآية مستأنفة لإقامة الدليل على إمكان البعث، وإلزام المجادلين فيه الحجة، بعد أن حكت الآيتان السابقتان جدالهم في شئون الله ومنها البعث والنشور، وأنهم في جدالهم يتبعون كل شيطان مريد، يضلُّهم ويسوقهم إلى عذاب السعير. وقد رأينا في المقطع الأول من السورة أن الصارف الرئيسي عن التقوى هو الجهل بالله والذي يجعل صاحبه يستتبع الشيطان، ومن آثار الجهل بالله عدم الإيمان باليوم الآخر، أو الشك فيه، ومن ثم تأتي المجموعة الأولى في المقطع الثاني لتعالج الشك في اليوم الآخر، وهي إذ تعالج الشك فمن باب أولى أنها تعالج الكفر أصلاً فيقول: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ) وهو المعاد وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ) أي أن الإنسان خُلق من مرتين: المرة الأولى: من تراب وذلك يوم خلق الله آدم. والمرة الثانية: يوم أن أصبح نطفة وبويضة فإنه خلق من

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الغذاء، وكان الغذاء ترابا، وماء وهواء (ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ) أي من حيوان منوي (ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ)وهنا يذكر للمرحلة الثانية من تطور النطفة (ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ) وهذا ذكر للمرحلة الثالثة من تطور الجنين، وهو موضوع هام لبيان البعث والنشور ليبن للناس هذا التدريج والذي يدل على كمال قدرة وحكمته، وأن من قدر على خلق البشر من تراب أولا، ثم من نطفة ثانيا ولا مناسبة بين التراب والماء، وقدر أن يجعل النطفة علقة ومضغة، والعلقة والمضغة عظاما قادر على إعادة ما بدأه. والمعنى العام: إن ارتبتم أيها المشركون الشاكّون في البعث فإن الله يُزيل ريبكم وشكّكم أن تنظروا في بدء خلقكم كيف خُلقتم، فمن قدر على صنعكم أول مرة كما رأيتم قادر على إعادتكم من العدم. (وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى) والمعنى إن الله يثبت في الأرحام ما يشاء ثبوته، وما لم يشأ ثبوته أسقطته الأرحام في الأَجَلِ المُسَمى المؤقت الذي قدره الله وهو الولادة ومن ثم فالله يُخرجكم من الرحم (ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ) طِفْلًا ضعيفا في بدنه وسمعه وبصره وحواسه، وبطشه وعقله، ثم يعطيه الله القوة شيئا فشيئا، ويلطف به، ويحنن عليه والديه آناء الليل وأطراف النهار، ثم يربيكم الله ويُبقيكم حتى تبلغوا كمال عقلكم وقوتكم بتكامل القوى، والوصول إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر. (وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ) وَمِنْكُمْ مَن يموت عند بلوغه الأشد أو قبله أو بعده وَمِنْكُمْ مَن يُبقيه الله إلى أرذل العمر أي أخسه يعني الهرم والخرف. (وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ) والاهتزاز في النبات أظهر منه في الأرض. كلمة وربت أي ارتفعت وزادت. وقيل: انتفخت،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والمعنى واحد، وأصله الزياد. وعبر بالرؤية في وترى الأرض، لأن الكلام في سياق البعث، ولذا عبر بما هو أقرب إلى الموت فقال: هامدة أي يابسة مطمئنة ساكنة سكون الميت ليس بها شيء من نبت، ولعله أفرد الضمير توجيها إلى كل من يصلح أن يخاطب بذلك فإذا أنزل الله عليها ماء من مكان لا يوجد فيه الماء، ثم ينزل منه فهذا يدل على قدرة عظيمة وقهر باهر من الله وحده، فإذا أنزلنا بما لنا من العظمة والقدرة على الأرض من الماء اهتزت وتحركت بنجوم النبات اهتزاز الحي، وتأهلت لإخراجه؛ والاهتزاز: شدة الحركة في الجهات المختلفة. {وربت} أي انتفخت، وذلك أول ما يظهر منها للعين وزادت ونمت بما يخرج منها من النبات الناشئ عن التراب والماء ومن ثم أنبتت بتقدير الله من كل زوج وصنف بهيج حسن ناضر[1].

والسياق ينادي الجميع بيا أيها الناس، إن كان لديكم شك في قدرتنا على بعثكم بعد الموت، إن كنتم في شك من أن الله يحيي الموتى، فتأملوا في خلقكم؛ فقد خلقنا أباكم آدم من تراب، ثم تناسلت ذريته من نطفة، وقد خلقنا ذريته من مني يقذفه الرجل في رحم المرأة، ثم يتحول المني دما جامدا، ثم يتحول الدم الجامد إلى قطعة لحم تشبه قطعة اللحم الممضوغة، ثم تتحول قطعة اللحم إما إلى خلق سويّ يبقى في الرحم حتى يخرج مولوداً حيا، وإما إلى خلق غير سويّ يسقطه الرحم؛ لنبين لكم قدرتنا بخلقكم أطوارا، ونثبت في الأرحام ما نشاء من الأجنة حتى يولد في أجل محدد وهو تسعة أشهر، ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم أطفالا، ثم لتصلوا إلى كمال القوة والعقل، ومنكم من يموت قبل ذلك، ومنكم من يعيش حتى يبلغ من الهرم حيث تضعف

١) بتصرف: الأساس في التفسير, سعيد حوّى (٣٥٢٧/٧) الناشر: دار السلام – القاهرة, الطبعة: السادسة، ١٤٢٤هـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٢/١٣) تفسير القرطبي (١٣/١٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

القوة ويضعف العقل، حتى يصير أسوأ حالا من الصبي، لا يعلم شيئا مما كان يعلمه، فلا يعلم هذا المعمر شيئا مما كان يعلمه قبل ذلك، وترى الأرض يابسة لا نبات فيها، فإذا أنزلنا عليها ماء المطر تفتحت عن النبات، وارتفعت بسبب نمو نباته، وأخرجت من كل صنف من النبات جميل المنظر، وارتفعت وزادت لارتوائها، وأنبتت من كل نوع من أنواع النبات الحسن الذي يسر الناظرين.

والخلاصة: أن تدرج الخلق في مراحله المذكورة، وطروء الموت وعوارض الأحوال على الإنسان دليل قاطع على وجود الخالق القادر المهيمن، الذي يبدأ الخلق ثم يعيده، وهو أهون عليه في القياس والعقل[1].

موضع الالتفات عن الجمع إلى المفرد:

قلت: ورد الالتفات في لفظ (طِفْلًا) بصيغة المفرد، وكان السياق اللغوي يقتضي الجمع أن يأتي لفظ(طِفْلًا) بصيغة الجمع (أطفالاً) لموائمة ضمير الجمع العائد على المخاطبين في قوله تعالى: (نُخْرِجُكُمْ) عدل عن لفظ (أَطْفَالاً) بصيغة الجمع إلى لفظ(طِفْلًا) بصيغة المفرد وذلك لسر بلاغي هو بيان أن الأطفال غالبا ما تتشابه حالتهم في الضعف وقلة الحيلة.

سبب الالتفات عن الجمع إلى المفرد:

قلت: والمتأمل في الآية الكريمة يجد أن سبب الالتفات هو أن الأطفال على حال واحد من الضعف، وهذا ما تكشفه الدراسة في أراء العلماء في الالتفات في هذا الموضع في الالتفات.

١) بتصرف: المختصر في تفسير القرآن الكريم, نخبة من العلماء (٣٣٢/١), التفسير الميسر, نخبة من أساتذة التفسير (٣٣٢/١). التفسير المنير للزحيلي (١٥٧/١٧).

سبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أراء العلماء في الالتفات عن الجمع إلى المفرد:

الطاء والفاء واللام أصل صحيحٌ مطّرد، يقاس عليه، والأصل المولود الصغير؛ يقال: هو طِفْلٌ، والأنثى طِفلة[1]، وقد ورد الالتفات في قوله تعالى: (نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا) إذ ورد لفظ الحال بصيغة المفرد (طِفۡلٗا) لا بصيغة الجمع (أطفالا) الموافقة لضمير الجمع العائد على المخاطبين في (نُخۡرِجُكُمۡ)، وقد علل بعض العلماء لدلالة الالتفات في الآية الكريمة بقوله:(نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا)، أي: أطفالًا، وحسن لفظ الواحد هنا؛ لأنه موضع تصغير لشأن الإنسان، وتحقير لأمره، فلاق به ذكر الواحد لذلك، لقلته عن الجماعة، ولأن معناه أيضا نخرج كل واحد منكم طفلا، وهذا مما إذا سئل الناس عنه قالوا: وضع الواحد موضع الجماعة اتساعا في اللغة، وأنسوا حفظ المعنى ومقابلة اللفظ به؛ لتقوى دلالته عليه، وتنضم بالشبه إليه»[2].

وقيل: إن الإفراد باعتبار كل واحد منهم او بإرادة الجنس المنتظم للواحد والمتعدد والطفل الولد مادام ناعما و (طفلا): حال، وهو واحد في معنى الجمع. وقيل: التقدير: نخرج كل واحد منكم طفلا، أي كل واحد منهم. وقيل: هو مصدر في الأصل ; فلذلك لم يجمع[3].

والخلاصة: أن المخلقة هي القطعة المسواة التي لا نقص فيها ولا عيب أي التامة الخلقة، وغير المخلقة: هي القطعة غير المسواة التي فيها عيب.

لنبين لكم أي خلقناكم على هذا النحو من التدرج لنبين لكم كمال قدرتنا

١) مقاييس اللغة, ابن فارس (٣/٣٢٢). (ط ف ل).

٢) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها, لابن جني (٢/٢٦٧). نشر وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٣) التبيان في إعراب القرآن, العكبري (٢/٩٣٣). روح البيان, إسماعيل حقي الخلوتي (٦/٧).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وحكمتنا، لتستدلوا بها على إمكان البعث، فإن من قدر على خلق البشر من تراب أولا، ثم من نطفة ثانيا- ولا تناسب بين الماء والتراب- وقدر على أن يجعل النطفة علقة- وبينهما تباين ظاهر- ثم يجعل العلقة مضغة، والمضغة عظاما، قدر على إعادة ما بدأه، بل هذا أهون. وبتأمل الآية الكريمة؛ يتضح أن المقصود باللفظة في الآيتين الأوليين . حيث الإفراد . من هم في مرحلة الطفولة ، أو الصغر فعلا ، أما في الآية الأخيرة . حيث الجمع. فإن المقصود بها من تجاوزوا تلك المرحلة إلى مرحلة الرجولة أو الكبر، هؤلاء الذين بلغوا الحلم فوجب عليهم الاستئذان[1].

وقال أبو السعود قوله: (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا) أي حال كونكم أطفالا والإفراد هنا باعتبار كل واحد منهم. أو بإرادة الجنس المنتظم للواحد والمتعدد وقوله تعالى: (ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ) وعلة نخرجكم معطوفة على علة أخرى له مناسبة لها كأنه قيل ثم نخرجكم لتكبروا شيئا فشيئا ثم لتبلغوا كمالكم في القوة والعقل والتمييز، وقيل التقدير ثم نمهلكم لتبلغوا أشدكم، والمعنى خلقناكم على التدريج المذكور لغايتين مترتبتين عليه. إحداهما: أن نبين شئوننا، والثانية: أن نقركم في الأرحام ثم نخرجكم صغارا ثم لتبلغوا أشدكم وتقديم التبيين على ما بعده مع أن حصوله بالفعل بعد الكل للإيذان بأنه غاية الغايات ومقصود بالذات وإعادة اللام ههنا مع تجريد الأولين عنها للإشعار بأصالته في الغرضية بالنسبة إليهما إذ عليه يدور التكليف المؤدي إلى السعادة والشقاوة وإيثار البلوغ مسندا إلى المخاطبين على التبليغ مسندا

١) التفسير المنير للزحيلي (١٥٨/١٧). أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية د حسن طبل (ص: ٩٣).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

إليه تعالى كالأفعال السابقة لأنه المناسب لبيان حال اتصافهم بالكمال واستقلالهم بمبدئية الآثار والأفعال والأشد من ألفاظ الجموع التي لم يستعمل لها واحد[1].

قلت: في ضوء ما سبق يتبين أن الأطفال يكونوا في حالة واحدة من الضعف فكل (طفل) ضعيف؛ فلذا أفرد لضعف كل الأطفال، والجماعة فيها قوة، فلو جمع لكان كل طفل يختلف عن الآخر فيكون أحدهم ضعيفا والآخر قويا ولكن كل الأطفال ضعفاء.

****

١) بتصرف: تفسير أبو السعود (٩٤/٦).

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين صاحب المنن جزيل العطاء الوهاب ذي القوة المتين أحمده سبحانه وأشكر فضله عليّ أن هداني بهداه إلي اختيار موضوع بحثي وأعانني بكرمه وإحسانه علي المضي فيه ووفقني بفضله إلي أن أصل إلي خاتمة دراستي لأسلوب الالتفات في القرآن الكريم دراسة تحليلية من سورة الأنبياء وحتى سورة الفرقان داعياً ربي إلي أن يحسن خاتمتنا في الأمور كلها.

أجدني وأنا أكتب خاتمة رسالتي هذه مزيجا من المشاعر فرحا لا يقدر مقداره بوصولي إلي هذه اللحظة التي كم تاقت نفسي إلي الوصول إليها وخوفا من التقصير في حق القرآن وما فرضه ربي عليّ. وحزنا لعدم تمكني من إنجاز كل ما تاقت نفسي إلي إنجازه في هذه الدراسة ورغبة في توصيات شتي أتقدم بها إلي جميع أهل الله في الأرض (أهل القرآن)، إلى كل من وهب حياته لتحقيق مراد الله في أرضه وعباده، إلى كل من أراد المساهمة بما يستطيع في إعلاء كلمة الله في كل أرجاء المعمورة، وكل من يريد بيان إعجاز كلام الباري - سبحانه وتعالى – عليكم بكتاب الله تعالى ففيه كل ما تريدون، أقبلوا على دراسته دراسة متأنية، وغوصوا في أعماقه لاستخراج بعض ما فيه من درر يحتاج لها كل مسلم يريد معايشة كلام ربه ويسير على طريقه. وأري من خلال هذه المعايشة لكتاب الله في هذه الدراسة المتواضعة أن كل ما قدم في هذا الشأن هو غيض من فيض، وقليل من كثير مما تحتاجه الدراسات القرآنية البلاغية والبيانية، وبيان مدى علاقة الأدب والبلاغة بها يحتاج الكثير والكثير.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

كان الفراغ منه بالمدينة المنورة. يوم الجمعة غرة شهر ذي القعدة 1442هـ الموافق 11 / 6 / 2021م.

تم
بحمد الله

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فهرس

المقدمة ٥
الفصل الأول: الالتفات في سورة الأنبياء..... ٨
المبحث الأول: حول سورة الأنبياء ٩
المطلب الثاني: مناسبة سورة الأنبياء وغرضها:..... ١٥
المطلب الثالث: علاقة سورة الأنبياء بما قبلها سورة طه:..... ١٨
المطلب الرابع: ما تحدثت عنه سورة الأنبياء إجمالاً:..... ٢١
المبحث الثاني: الالتفات في الضمائر في سورة الأنبياء..... ٢٥
المطلب الأول: الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:..... ٢٦
المطلب الثاني: الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:..... ٣٤
المطلب الثالث: الالتفات عن التكلم إلى الغيبة:..... ٤٢
المطلب الرابع: الالتفات عن الغيبة إلى التكلم:..... ٥٠
المطلب الخامس: الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:..... ٥٨
المطلب السادس: الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة: ٦٨
المطلب السابع: الالتفات عن الخطاب إلى الغيبة:..... ٧٧
المبحث الثالث: من صور الالتفات في غير الضمائر في سورة الأنبياء ٨٨
المطلب الأول: الالتفات عن الجمع للمفرد:..... ٨٩
المطلب الثاني: الالتفات عن الماضي إلى المضارع:..... ٩٨
المطلب الثالث: الالتفات عن التثنية إلى الجمع:..... ١٠٤
المطلب الرابع: الالتفات عن الجملة الفعلية إلى الجملة الاسمية: ١١٠
الفصل الثاني: الالتفات في سورة الحج ١١٧
المبحث الأول: حول سورة الحج ١١٨
المطلب الأول: السورة وعدد آياتها ومكيتها وترتيبها:..... ١١٩
المطلب الثاني: علاقة سورة الحج بسورة الأنبياء قبلها:..... ١٢٣

شبكة الألوكة - قسم الكتب

المطلب الثالث: ما تحدثت عنه السورة إجمالا: ١٢٥
المبحث الثاني: الالتفات في الضمائر في سورة الحج ١٢٨
المطلب الأول: في الالتفات من الغيبة إلى التكلم: ١٢٩
المطلب الثاني: في الالتفات من الغيبة إلى التكلم: ١٣٥
المطلب الثالث: في الالتفات من الغيبة إلى التكلم: ١٤٢
المطلب الرابع: الالتفات عن التكلم إلى الغيبة: ١٥٠
المطلب الخامس: الالتفات من التكلم إلى الغيبة: ١٥٦
المطلب السادس: الالتفات من التكلم إلى الغيبة: ١٦١
المبحث الثالث: الالتفات في غير الضمائر في سورة الحج ١٦٧
المطلب الأول: التفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع: ١٦٨
المطلب الثاني: التفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع: ١٧٦
المطلب الثالث: التفات عن الفعل الماضي إلى الفعل المضارع: ١٨٢
المطلب الرابع: الالتفات عن المضمر إلى الاسم الظاهر: ١٨٧
المطلب الخامس: الالتفات عن وضع الاسم الظاهر مكان المضمر: ١٩٤
المطلب السادس: الالتفات عن المبني للمعلوم إلى المبني للمجهول: ١٩٨
المطلب السابع: الالتفات عن الفعل الماضي إلى المضارع: ٢٠٥
المطلب الثامن: الالتفات عن التثنية إلى الجمع: ٢١٤
المطلب التاسع: الالتفات عن الجمع إلى المفرد: ٢٢٠
الخاتمة ٢٢٧

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عن الدار ومشروع النشر الحر

لوتس للنشر الحر هي أول دار نشر حرة يملكها كل كاتب، تعتمد مبدأ النشر الحر من خلال مشروع طموح يهدف إلى تخطي عقبات النشر ومساعدة الكاتب للنشر بطريقة تمنحه الحرية الكاملة وكل الحقوق والصلاحيات للتعامل مع كتابه دون استغلاله مادياً أو معنوياً، ودون احتكار لمجهوده الفكري في عملية تجارية.

هي مشروع خدمي وليس تجاري، تدعم الكاتب الموهوب وتسانده، تحاول الارتقاء بمستوى الأدب وتهدف إلى احترام الكاتب والقارئ من خلال نشر كل ما هو جيد دون الإساءة لشخص، أو أشخاص، أو مؤسسات، أو أفكار، أو عقائد، أو ديانات، أو أنظمة سياسية.

إصدارات المشروع: 647

للتواصل مع الدار والمشروع

هاتف / واتسآب

+2 01091985809 +2 02 / / 37390893

الموقع الإلكتروني

www.lotusfreepub.com

البريد الإلكتروني

Lotusfreepub@gmail.com

lotusfreepub

دار لوتس للنشر الحر

مصرية مغربية، تأسست في مايو ٢٠١٧

شبكة الألوكة - قسم الكتب

بلاغة القرآن في سورتي الأنبياء والحج

علوم قرآن

د. عبد الجواد السيوطي

مشروع النشر الحر

الإصدار رقم: 647 - يناير 2022

رقم الإيداع: 5437 / 2022

الترقيم الدولي: 978-977-6975 38 -5

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف